تفسير سورة آل عمران

هى مدنية . قال القرطبى : بالإجماع ، ومما يدل على ذلك أن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية نزل فى وفد نجران ، وكان قدومهم فى سنة تسع من الهجرة . وقد أخرج البيهقى فى الدلائل من طرق عن ابن عباس قال : نزلت سورة آل عمران بالمدينة . وقد تقدم فى أوائل سورة البقرة ما هو مشترك بينها وبين هذه السورة من الأحاديث الدالة على فضلهما، وكذلك تقدم ما ورد فى السبع الطوال . وأخرج الطبرانى بسند ضعيف عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تغيب الشمس »(١) . وأخرج سعيد بن منصور، والبيهقى فى الشعب عن عمر بن الخطاب قال: من قرأ البقرة وآل عمران والنساء ، كتب عند الله من الحكماء . وأخرج الديلمى ومحمد ابن نصر، والبيهقى فى الشعب عن ابن مسعود : من قرأ آل عمران فهو غنى . وأخرج الدارمى وعبد بن حميد والبيهقى عنه قال: نعم كنز الصعلوك آل عمران يقوم بها الرجل من آخر الليل . وأخرج سعيد بن منصورعن أبى عطاف قال : اسم آل عمران فى التوراة طيبة . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الملك بن عمير قال: قرأ رجل البقرة وآل عمران ، فقال كعب: قد قرأ السورتين ، إن فيهما الاسم الذى إذا دعى به أجاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓ (١) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٣) مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤) إِنَّ اللَّهَ لا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) ﴾ .

قرأ الحسن وعمرو بن عبيد وعاصم بن أبى النجود وأبو جعفر الرواسى : « الم . ألله » بقطع ألف الوصل على تقدير الوقف على ﴿ الـم ﴾ كما يقدرون الوقف على أسماء الأعداد نحو: واحد ، اثنان ، ثلاثة ، أربعة مع وصلهم . . قال الأخفش : ويجوز « الم الله » بكسر الهمزة لالتقاء الساكنين . قال الزجاج : هذا خطأ ، ولا تقوله العرب لثقله . وقد ذكر سيبويه فى الكتاب أن فواتح السور التى لم تكن موازنة لمفرد، طريق التلفظ بها الحكاية فقط ، ساكنة الأعجاز على الوقف ، سواء جعلت أسماء أو مسرودة على نمط التعديد ، وإن لزمها التقاء الساكنين لما أنه مغتفر فى باب الوقف ، فحق هذه الفاتحة أن يوقف عليها،ثم يبدأ بما

(١) الطبرانى فى الكبير (١١٠٠٢) ، وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ١٧١ : « رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير وفيه طلحة بن زيد الرقى وهو ضعيف».

بعدها، كما فعله الحسن ومن معه فى قراءتهم المحكية سابقًا. وأما فتح الميم على القراءة المشهورة، فوجهه ما روى عن سيبويه أن الميم فتحت لالتقاء الساكنين . وقال الكسائى: حروف التهجى إذا لقيتها ألف وصل ، فحذفت الألف ، وحركت الميم بحركة الألف، وكذا قال الفراء. وهذه الفواتح إن جعلت مسرودة على نمط التعديد، فلا محل لها من الإعراب ، وإن جعلت أسماء للسورة فمحلها إما الرفع على أنها أخبار لمبتدآت مقدرة قبلها ، أو النصب على تقدير أفعال يقتضيها المقام كاذكر، أو اقرأ، أو نحوهما، وقد تقدم فى أوائل سورة البقرة ما يغنى عن الإعادة.

وقوله: ﴿ **الله لا إله إلا هو** ﴾ مبتدأ وخبر ، والجملة مستأنفة ، أى هو المستحق للعبودية. و﴿ **الحى القيوم** ﴾ خبران آخران للاسم الشريف ، أو خبران لمبتدأ محذوف ، أى هو الحى القيوم. وقيل : إنهما صفتان للمبتدأ الأول ،أو بدلان منه أو من الخبر ، وقد تقدم تفسير الحى والقيوم. وقرأ جماعة من الصحابة: « القيام» عمر وأبى بن كعب وابن مسعود. قوله : ﴿ **نزل عليك الكتاب** ﴾ أى القرآن، وقدم الظرف على المفعول به للاعتناء بالمنزل عليه ﷺ، وهى إما جملة مستأنفة أو خبر آخر للمبتدأ الأول. قوله: ﴿**بالحق**﴾ أى بالصدق. وقيل: بالحجة الغالبة وهو فى محل نصب على الحال. وقوله : ﴿ **مصدقا** ﴾ حال آخر من الكتاب مؤكدة ؛ لأنه لا يكون إلا مصدقًا، فلا تكون الحال منتقلة أصلاً، وبهذا قال الجمهور، وجوّز بعضهم الانتقال على معنى أنه مصدق لنفسه ولغيره . وقوله : ﴿ **لما بين يديه** ﴾ أى من الكتب المنزلة، وهو متعلق بقوله: ﴿ **مصدقا** ﴾ واللام للتقوية. قوله: ﴿**وأنزل التوراة والإنجيل**﴾ هذه الجملة فى حكم البيان لقوله : ﴿ **لما بين يديه** ﴾ وإنما قال هنا : ﴿ **أنزل** ﴾ وفيما تقدم: ﴿**نزل**﴾ لأن القرآن نزل منجمًا ، والكتابان نزلا دفعة واحدة ، ولم يذكر فى الكتابين من أنزلا عليه ، وذكر فيما تقدم أن الكتاب نزل على رسول الله ﷺ ؛ لأن القصد هنا ليس إلا إلى ذكر الكتابين لا ذكر من نزلا عليه .

وقوله : ﴿ **من قبل** ﴾ أى أنزل التوراة (١) ، والإنجيل (٢) من قبل تنزيل الكتاب . وقوله: ﴿ **هدى للناس** ﴾ إما حال من الكتابين أو علة للإنزال. والمراد بالناس: أهل الكتابين أو ما هو أعم؛ لأن هذه الأمة متعبدة بما لم ينسخ من الشرائع . قال ابن فورك : هدى للناس المتقين ، كما قال فى البقرة: ﴿هدى للمتقين﴾ [البقرة: ٢]، قوله: ﴿**وأنزل الفرقان**﴾ أى الفارق بين الحق

(١) التوراة : معناها الضياء والنور مشتقة من ورى الزند ، وورى لغتان إذا خرجت ناره ، وأصلها تورية على وزن تفعلة . وقال الخليل : أصلها فوعلة فالأصل وَوْرِية قلبت الواو الأولى تاء . وقيل : التوراة مأخوذة من التورية وهى التعريض بالشىء والكتمان لغيره ، فكأن أكثر التوراة معاريض وتلويحات من غير تصريح وإيضاح هذا قول المؤرج. والجمهور على القول الأول . لقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأنبياء : ٤٨] .

(٢) الإنجيل : إفعيل ؛ من النجل : وهو الأصل ، ويجمع على أناجيل ، فالإنجيل أصل لعلوم وحكم . ويقال: لعن الله ناجليه يعنى : والديه . وقيل : هو من نجلت الشىء : إذا استخرجته ، فالإنجيل مستخرج به علوم وحكم ، ومنه سمى الولد والنسل نجلاً لخروجه . قال الشاعر :

إلى معشرٍ لم يُورِث اللؤمَ جَدهم أصاغرهم وكلُّ فَحْلٍ لهم نَجْلُ

والنجل : الماء الذى يخرج من البر ، فسمى الإنجيل به. وقيل : هو من النجل فى العين ، وهو سعتها ،=

والباطل وهو القرآن، وكرر ذكره تشريفًا له مع ما يشتمل عليه هذا الذكر الآخر من الوصف له، بأنه يفرق بين الحق والباطل، وذكر التنزيل أولاً والإنزال ثانياً ؛ لكونه جامعًا بين الوصفين ، فإنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة ، ثم نزل منها إلى النبى ﷺ مفرقًا منجمًا ، على حسب الحوادث كما سبق. وقيل: أراد بالفرقان: جميع الكتب المنزلة من الله تعالى على رسله. وقيل: أراد الزبور لاشتماله على المواعظ الحسنة. وقوله: ﴿**إن الذين كفروا بآيات الله**﴾ أى بما يصدق عليه أنه آية من الكتب المنزلة وغيرها، أو بما فى الكتب المنزلة وغيرها ، أو بما فى الكتب المنزلة المذكورة على وضع آيات الله موضع الضمير العائد إليها ، وفيه بيان الأمر الذى استحقوا به الكفر، ﴿**لهم**﴾ بسبب هذا الكفر ﴿**عذاب شديد**﴾ أى عظيم ﴿**والله عزيز**﴾ لا يغالبه مغالب ﴿**ذو انتقام**﴾ عظيم، والنقمة : السطوة، يقال: انتقم منه : إذا عاقبه بسبب ذنب قد تقدم منه.

قوله: ﴿ **إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء** ﴾ هذه الجملة استئنافية لبيان سعة علمه، وإحاطته بالمعلومات بما فى الأرض والسماء ، مع كونها أوسع من ذلك ، لقصور عباده عن العلم بما سواهما ، من أمكنة مخلوقاته وسائر معلوماته ، ومن جملة ما لا يخفى عليه إيمان من آمن من خلقه ، وكفر من كفر .

قوله: ﴿**هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء**﴾ أصل اشتقاق الصورة من صاره إلى كذا، أى أماله إليه. فالصورة مائلة إلى شبه وهيئة . وأصل الرحم من الرحمة ؛ لأنه مما يتراحم به، وهذه الجملة مستأنفة مشتملة على بيان إحاطة علمه ، وأن من جملة معلوماته ما لا يدخل تحت الوجود ، وهو تصوير عباده فى أرحام أمهاتهم ، من نطف آبائهم كيف يشاء ، من حسن وقبيح ، وأسود وأبيض ، وطويل وقصير ، و﴿ **كيف** ﴾ معمول يشاء ، والجملة حالية.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن جعفر بن محمد بن الزبير قال: قدم على رسول الله ﷺ وفد نجران ستون راكبًا، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم، فكلم رسول الله ﷺ منهم أبو حارثة بن علقمة، والعاقب، وعبد المسيح، والسيد، وهو الأيهم، ثم ذكروا القصة فى الكلام الذى دار بينهم وبين رسول الله ﷺ، وأن الله أنزل فى ذلك صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها(١). وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع، فذكر وفد نجران ومخاصمتهم للنبى ﷺ فى عيسى عليه السلام، وأن الله أنزل: ﴿**الم. الله لا إله إلاهو الحى القيوم**﴾(٢).

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **مصدقا لما بين يديه** ﴾ قال: لما قبله من كتاب أو رسول. وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جريرعن قتادة نحوه ، وقال فى قوله : ﴿ **وأنزل الفرقان** ﴾ هو القرآن فرق بين الحق والباطل ،

= وطعنة نجلاء: واسعة ، قال الشاعر :

رمى ضربة بسيف صقيل بين بُصْرى وطعنة نجلاء

فسمى الإنجيل به. وقيل التناجل : التنازع ، وسمى إنجيلا ؛ لتنازع الناس فيه .

(١) ابن إسحاق: ٢/٢١٨، ٢١٩، وابن جرير: ٣/١٠٨ . (٢) ابن جرير ٣/١٠٨، ١٠٩.

فأحل فيه حلاله ، وحرم فيه حرامه ، وشرع فيه شرائعه ، وحد فيه حدوده ، وفرض فيه فرائضه، وبين فيه بيانه ، وأمر بطاعته ونهى عن معصيته . وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله : ﴿**وأنزل الفرقان**﴾ أى الفصل بين الحق والباطل ، فيما اختلف فيه الأحزاب من أمر عيسى وغيره . وقوله : ﴿ **إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد والله عزيز ذو انتقام** ﴾ أى إن الله ينتقم ممن كفر بآياته بعد علمه بها ومعرفته بما جاء منه فيها .

وفى قوله: ﴿**إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء**﴾ أى قد علم ما يريدون وما يكيدون، وما يضاهون بقولهم فى عيسى ؛ إذ جعلوه ربًا وإلهًا ، وعندهم من علمه غير ذلك غرّة بالله وكفرًا به . ﴿ **هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قد كان عيسى ممن صوّر فى الأرحام لا يدفعون ذلك ولا ينكرونه كما صور غيره من بنى آدم فكيف يكون إلهًا وقد كان بذلك المنزل ؟ ! وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى قوله : ﴿**يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قال : ذكورًا وإناثًا . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس وابن مسعود وناس من الصحابة فى قوله : ﴿ **يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قال : إذا وقعت النطفة فى الأرحام طارت فى الجسد أربعين يومًا ، ثم تكون علقة أربعين يومًا ، ثم تكون مضغة أربعين يومًا ، فإذا بلغ أن يخلق بعث الله ملكا يصورها ، فيأتى الملك بتراب بين أصبعيه فيخلط منه المضغة ، ثم يعجنه بها، ثم يصور كما يؤمر فيقول: أذكر أم أنثى؟ أشقى أم سعيد؟ وما رزقه، وما عمره ؟ وما أثره ، وما مصائبه ؟فيقول الله ويكتب الملك، فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب[1] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿ **يصوركم فى الأرحام كيف يشاء** ﴾ قال : من ذكر وأنثى ، وأحمر وأسود ، وتام الخلق وغير تام الخلق .

﴿ **هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)** ﴾ .

﴿ **الكتاب** ﴾ : هو القرآن ، فاللام للعهد ، وقدم الظرف وهو ﴿ **عليك** ﴾ لما يفيده من الاختصاص . وقوله : ﴿ **منه آيات محكمات** ﴾ الموافق لقواعد العربية أن يكون الظرف خبرا مقدما ، والأولى بالمعنى أن يكون مبتدأ تقديره : من الكتاب آيات بينات ، على نحو ما تقدم فى قوله : ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : ٨] ، وإنما كان أولى ؛ لأن المقصود انقسام الكتاب إلى القسمين المذكورين لا مجرد الإخبار عنهما ، بأنهما من الكتاب ، والجملة حالية فى

---

[1] السابق ٣ / ١١٢ .

محل نصب ، أو مستأنفة لا محل لها .

وقد اختلف العلماء فى تفسير المحكمات والمتشابهات على أقوال ، فقيل : إن المحكم : ما عرف تأويله ، وفهم معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل ؛ ومن القائلين بهذا جابر بن عبد الله والشعبى وسفيان الثورى ، قالوا: وذلك بجر الحروف المقطعة فى أوائل السور . وقيل : المحكم : ما لا يحتمل إلا وجهاً واحداً ، والمتشابه : ما يحتمل وجوهًا، فإذا ردّت إلى وجه واحد وأبطل الباقى صار المتشابه محكمًا . وقيل : إن المحكم : ناسخه وحرامه وحلاله وفرائضه وما نؤمن به ونعمل عليه ، والمتشابه : منسوخه ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما نؤمن به ولا نعمل به . روى هذا عن ابن عباس . وقيل : المحكم : الناسخ ، والمتشابه : المنسوخ ، روى عن ابن مسعود وقتادة والربيع والضحاك . وقيل : المحكم : الذى ليس فيه تصريف ولا تحريف عما وضع له ، والمتشابه : ما فيه تصريف وتحريف وتأويل ، قاله مجاهد وابن إسحاق . قال ابن عطية : وهذا أحسن الأقوال . وقيل : المحكم : ما كان قائمًا بنفسه لا يحتاج إلى أن يرجع فيه إلى غيره ، والمتشابه : ما يرجع فيه إلى غيره . قال النحاس. وهذا أحسن ما قيل فى المحكمات والمتشابهات . قال القرطبى : ما قاله النحاس يبين ما اختاره ابن عطية، وهو الجارى على وضع اللسان ، وذلك أن المحكم اسم مفعول من أحكم، والإحكام : الإتقان، ولا شك فى أن ما كان واضح المعنى لا إشكال فيه ولا تردد ، إنما يكون كذلك لوضوح مفردات كلماته وإتقان تركيبها ، ومتى اختل أحد الأمرين جاء التشابه والإشكال . وقال ابن خويز منداد : للمتشابه وجوه : ما اختلف فيه العلماء : أىّ الآيتين نسخت الأخرى، كما فى الحامل المتوفى عنها زوجها ، فإن من الصحابة من قال : إن آية وضع الحمل نسخت آية الأربعة الأشهر والعشر، ومنهم من قال بالعكس، وكاختلافهم فى الوصية للوارث ، وكتعارض الآيتين: أيهما أولى أن يقدم إذا لم يعرف النسخ، ولم توجد شرائطه، وكتعارض الأخبار، وتعارض الأقيسة، هذا معنى كلامه .

والأولى أن يقال : إن المحكم : هو الواضح المعنى الظاهر الدلالة ، إما باعتبار نفسه أو باعتبار غيره ، والمتشابه: ما لا يتضح معناه ، أو لا تظهر دلالته لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره . وإذا عرفت هذا عرفت أن هذا الاختلاف الذى قدمناه ليس كما ينبغى ، وذلك لأن أهل كل قول عرفوا المحكم ببعض صفاته ، وعرفوا المتشابه بما يقابلها . وبيان ذلك أن أهل القول الأول : جعلوا المحكم ما وجد إلى علمه سبيل ، والمتشابه ما لا سبيل إلى علمه ، ولا شك أن مفهوم المحكم والمتشابه أوسع دائرة مما ذكروه ، فإن مجرد الخفاء أو عدم الظهور ، أو الاحتمال أو التردد ، يوجب التشابه ؛ وأهل القول الثانى: خصوا المحكم بما ليس فيه احتمال، والمتشابه بما فيه احتمال ، ولا شك أن هذا بعض أوصاف المحكم والمتشابه لا كلها ؛ وهكذا أهل القول الثالث : فإنهم خصوا كل واحد من القسمين بتلك الأوصاف المعينة دون غيرها ؛ وأهل القول الرابع: خصوا كل واحد منهما ببعض الأوصاف التى ذكرها أهل القول الثالث ؛ والأمر أوسع

مما قالوا جميعًا ؛ وأهل القول الخامس : خصوا المحكم بوصف عدم التصريف والتحريف ، وجعلوا المتشابه مقابله ، وأهملوا ما هو أهم من ذلك مما لا سبيل إلى علمه ، من دون تصريف وتحريف كفواتح السور المقطعة ؛ وأهل القول السادس: خصوا المحكم بما يقوم بنفسه، والمتشابه بما لا يقوم بها ، وأن هذا هو بعض أوصافهما؛ وصاحب القول السابع وهوابن خويز منداد: عمد إلى صورة الوفاق فجعلها محكمًا ، وإلى صورة الخلاف والتعارض فجعلها متشابهًا، فأهمل ما هو أخص أوصاف كل واحد منهما، من كونه باعتبار نفسه مفهوم المعنى أو غير مفهوم.

قوله : ﴿ **هن أم الكتاب** ﴾ أى أصله الذى يعتمد عليه ، ويردّ ما خالفه إليه،وهذه الجملة صفة لما قبلها . قوله : ﴿**وأخر متشابهات** ﴾ وصف لمحذوف مقدر ، أى وآيات أخر متشابهات وهى جمع أخرى، وإنما لم ينصرف ؛ لأنه عدل بها عن الآخر ؛ لأن أصلها أن يكون كذلك، وقال أبو عبيد : لم ينصرف لأن واحدها لا ينصرف فى معرفة ولا نكرة ، وأنكر ذلك المبرد . وقال الكسائى : لم تنصرف؛ لأنها صفة ، وأنكره أيضًا المبرد. وقال سيبويه : لا يجوز أن يكون ﴿**أخر**﴾ معدولة عن الألف واللام؛ لأنها لو كانت معدولة عنها لكان معرفة، ألا ترى أن «سحر» معرفة فى جميع الأقاويل لما كانت معدولة. قوله : ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ** ﴾ الزيغ : الميل، ومنه زاغت الشمس وزاغت الأبصار، ويقال : زاغ يزيغ زيغًا : إذا ترك القصد، ومنه قوله تعالى: ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] وهذه الآية تعم كل طائفة من الطوائف الخارجة عن الحق، وسبب النزول: نصارى نجران كما تقدم ، وسيأتى .

قوله : ﴿ **فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ أى يتعلقون بالمتشابه من الكتاب فيشككون به على المؤمنين ، ويجعلونه دليلاً على ماهم فيه من البدعة المائلة عن الحق ، كما تجده فى كل طائفة من طوائف البدعة ، فإنهم يتلاعبون بكتاب الله تلاعبًا شديدًا، ويوردون منه لتنفيق جهلهم ما ليس من الدلالة فى شيء . قوله : ﴿ **ابتغاء الفتنة** ﴾ أى طلباً منهم لفتنة الناس فى دينهم والتلبيس عليهم وإفساد ذات بينهم ﴿ **وابتغاء تأويله** ﴾ أى طلبًا لتأويله على الوجه الذى يريدونه ويوافق مذاهبهم الفاسدة . قال الزجاج : معنى ابتغائهم **تأويله** أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم ، فأعلم الله عز وجل أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله . قال : والدليل على ذلك قوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ﴾ أى يوم يرون ما يوعدون من البعث والنشور والعذاب ﴿ يقول الذين نسوه﴾ أى تركوه ﴿ قد جاءت رسل ربنا بالحق ﴾ [الأعراف : ٥٣] أى قد رأينا تأويل ما أنبأتنا به الرسل . قوله : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ التأويل يكون بمعنى التفسير ، كقولهم : تأويل هذه الكلمة على كذا ، أى تفسيرها ، ويكون بمعنى ما يؤول الأمر إليه،واشتقاقه من آل الأمر إلى كذا يؤول إليه،أى صار، وأولته تأويلاً، أى صيرته، وهذه الجملة حالية ، أى يتبعون المتشابه لابتغاء تأويله ، والحال أن ما يعلم تأويله إلا الله .

- اختلف أهل العلم فى قوله : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ هل هو كلام مقطوع عما قبله

obeikandi.com

أو معطوف على ما قبله؟ فتكون الواو للجمع ، فالذى عليه الأكثر أنه مقطوع عما قبله ، وأن الكلام تم عند قوله : ﴿ **إلا الله** ﴾ هذا قول ابن عمر وابن عباس وعائشة وعروة بن الزبير وعمر ابن عبد العزيز وأبى الشعثاء وأبى نهيك وغيرهم ، وهو مذهب الكسائى والفراء والأخفش وأبى عبيد وحكاه ابن جرير الطبرى عن مالك واختاره، وحكاه الخطابى عن ابن مسعود وأبى ابن كعب قال: وإنما روى عن مجاهد: أنه نسق الراسخين على ما قبله ، وزعم أنهم يعلمونه، قال: واحتج له بعض أهل اللغة فقال: معناه: والراسخون فى العلم يعلمونه قائلين: ﴿ **آمنا به** ﴾ وزعم أن موضع ﴿**يقولون** ﴾ نصب على الحال ، وعامة أهل اللغة ينكرونه ويستبعدونه ؛ لأن العرب لا تضمر الفعل والمفعول معًا ، ولا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل ، فإذا لم يظهر فعل لم يكن حالاً ، ولو جاز ذلك لجاز أن يقال : عبْد الله راكبًا ، يعنى : أقبل عبد الله راكبا ، وإنما يجوز ذلك مع ذكر الفعل كقوله : عبد الله يتكلم ، يصلح بين الناس ، فكان يصلح حالا ، كقول الشاعر ــ أنشدنيه أبو عمرو ، قال : أنشدنا أبو العباس ثعلب :

أرْسَلْتُ فِيها رَجلا لُكَالِكا (١) يَقْصُرُ يَمْشِى وَيَطول بَارِكا

فكان قول عامة العلماء مع مساعدة مذاهب النحويين له أولى من قول مجاهد وحده . وأيضًا فإنه لا يجوز أن ينفى الله سبحانه شيئا عن الخلق وينسبه لنفسه ، فيكون له فى ذلك شريك ، ألا ترى قوله عز وجل : ﴿ قل لا يعلم من فى السموات والأرض الغيب إلا الله ﴾ [النمل : ٦٥] ، وقوله : ﴿ لا يجليها لوقتها إلا هو ﴾ [الأعراف: ١٨٧] ، وقوله : ﴿كل شىء هالك إلا وجهه ﴾ [القصص : ٨٨] فكان هذا كله مما استأثر الله سبحانه به لا يشركه فيه غيره، وكذلك قوله تعالى : ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ لو كانت الواو فى قوله : ﴿**والراسخون** ﴾ للنسق لم يكن لقوله : ﴿ **كل من عند ربنا** ﴾ فائدة . انتهى . قال القرطبى : ما حكاه الخطابى من أنه لم يقل بقول مجاهد غيره ، فقد روى عن ابن عباس : أن الراسخين معطوف على اسم الله عز وجل ، وأنهم داخلون فى علم المتشابه ، وأنهم مع علمهم به يقولون: آمنا به . وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم . و﴿**يقولون**﴾ على هذا التأويل نصب على الحال من ﴿**الراسخون**﴾ كما قال :

الرِيحُ يَبْكِى شَجْوه والبرقُ يَلْمَعُ فى الغَمَامَهْ

وهذا البيت يحتمل المعنيين ، فيجوز أن يكون « والبرق » مبتدأ ، والخبر « يلمع » على التأويل الأول فيكون مقطوعاً مما قبله، ويجوز أن يكون معطوفاً على الريح ، ويلمع فى موضع الحال على التأويل الثانى أى لامعاً . انتهى(٢) . ولا يخفاك أن ما قاله الخطابى فى وجه امتناع كون قوله : ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ حالاً من أن العرب لا تذكر حالاً إلا مع ظهور الفعل إلى آخر

(١) لُكَالِكا : الجمل الضخم المرمى باللحم . قال أبو على الفارسى : يقصر إذا مشى لا نخفاض بطنه وضخمه وتقارَبه من الأرض ، فإذا برك رأيته طويلاً لارتفاع سنامه فهو باركًا أطول منه قائمًا . اللسان ١٠/ ٤٨٤ .
(٢) القرطبى ٢ / ١٢٥٩ .

كلام لا يتم إلا على فرض أنه لا فعل هنا ، وليس الأمر كذلك ، فالفعل مذكور ، وهو قوله: ﴿ **وما يعلم تأويله** ﴾ ولكنه جاء الحال من المعطوف ، وهو قوله : ﴿**والراسخون**﴾ دون المعطوف عليه ، وهو قوله : ﴿ **إلا الله** ﴾ وذلك جائز فى اللغة العربية ، وقد جاء مثله فى الكتاب العزيز، ومنه قوله تعالى: ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ﴾ إلى قوله: ﴿ والذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا . . . ﴾ الآية [الحشر : ١٠] . وكقوله: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾ [الفجر : ٢٢] أى وجاءت الملائكة صفا صفا ، ولكن ها هنا مانع آخر من جعل ذلك حالا،وهو أن تقييد علمهم بتأويله بحال كونهم قائلين آمنا به ليس بصحيح، فإن الراسخين فى العلم على القول بصحة العطف على الاسم الشريف يعلمونه فى كل حال من الأحوال لا فى هذه الحالة الخاصة، فاقتضى هذا أن جعل قوله : ﴿ **يقولون آمنا به**﴾ حالا غير صحيح ، فتعين المصير إلى الاستئناف والجزم بأن قوله : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **يقولون** ﴾ . ومن جملة ما استدل به القائلون بالعطف أن الله سبحانه وصفهم بالرسوخ فى العلم ، فكيف يمدحهم وهم لا يعلمون ذلك ؟ ويجاب عن هذا : بأن تركهم لطلب علم ما لم يأذن الله به ، ولا جعل لخلقه إلى علمه سبيلا هو من رسوخهم ؛ لأنهم علموا أن ذلك مما استأثر الله بعلمه ، وأن الذين يتبعونه هم الذين فى قلوبهم زيغ ، وناهيك بهذا من رسوخ. وأصل الرسوخ فى لغة العرب : الثبوت فى الشىء ، وكل ثابت راسخ ، وأصله فى الأجرام أن ترسخ الجبل أو الشجر فى الأرض ، ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ رَسَخَتْ فِى الصَّدْرِ منى مَوَدَّةٌ لِلَيْلى أَبَتْ آياتُها أنْ تُغَيَّرا

فهؤلاء ثبتوا فى امتثال ما جاءهم عن الله من ترك اتباع المتشابه ، وإرجاع علمه إلى الله سبحانه. ومن أهل العلم من توسط بين المقامين فقال : التأويل يطلق ويراد به فى القرآن شيئان: أحدهما: التأويل بمعنى حقيقة الشىء، وما يؤول أمره إليه ، ومنه قوله : ﴿ هذا تأويل رؤياى ﴾ [يوسف : ١٠٠] ، وقوله : ﴿ هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله﴾ [الأعراف: ٥٣] أى حقيقة ما أخبروا به من أمر المعاد ، فإن أريد بالتأويل هذا فالوقف على الجلالة ؛ لأن حقائق الأمور وكنهها لا يعلمه إلا الله عز وجل ، ويكون قوله : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ مبتدأ ، و ﴿ **يقولون آمنا به** ﴾ خبره . وأما إن أريد بالتأويل المعنى الآخر ، وهو التفسير والبيان والتعبير عن الشىء كقوله: ﴿نبئنا بتأويله﴾ [يوسف: ٣٦] أى بتفسيره،فالوقف على ﴿**والراسخون فى العلم** ﴾؛ لأنهم يعلمون ويفهمون ما خوطبوا به بهذا الاعتبار ، وإن لم يحيطوا علمًا بحقائق الأشياء ، على كنه ما هى عليه ، وعلى هذا فيكون ﴿**يقولون آمنا به**﴾ حالا منهم . ورجح ابن فورك أن الراسخين يعلمون تأويله،واطنب فى ذلك،وهكذا جماعة من محققى المفسرين رجحوا ذلك. قال القرطبى: قال شيخنا أبو العباس أحمد بن عمر: وهو الصحيح،فإن تسميتهم راسخين تقضى بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذى يستوى فى علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفى أى شىء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع لكن المتشابه يتنوع ؛ فمنه ما لا يعلم

البتة كأمر الروح والساعة، مما استأثر الله بعلمه ، وهذا لا يتعاطى علمه أحد ؛ فمن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون علم المتشابه، فإنما أراد هذا النوع. وأما ما يمكن حمله على وجوه فى اللغة فيتأول ويعلم تأويله المستقيم،ويزال ما فيه من تأويل غير مستقيم. انتهى(١).

واعلم أن هذا الاضطراب الواقع فى مقالات أهل العلم أعظم أسبابه اختلاف أقوالهم فى تحقيق معنى المحكم والمتشابه ؛ وقد قدمنا لك ما هو الصواب فى تحقيقها ونزيدك ها هنا إيضاحًا وبيانًا ، فنقول : إن من جملة ما يصدق عليه تفسير المتشابه الذى قدمناه فواتح السور ، فإنها غير متضحة المعنى، ولا ظاهرة الدلالة، لا بالنسبة إلى أنفسها ؛ لأنه لا يدرى من يعلم بلغة العرب، ويعرف عرف الشرع ما معنى الم، المر، حم، طس، طسم ونحوها، لأنه لا يجد بيانًا فى شىء من كلام العرب ولا من كلام الشرع ، فهى غير متضحة المعنى ، لا باعتبارها نفسها ، ولا باعتبار أمر آخر يفسرها ويوضحها، ومثل ذلك الألفاظ المنقولة عن لغة العجم ، والألفاظ الغريبة التى لا يوجد فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع ما يوضحها ، وهكذا ما استأثر الله بعلمه كالروح وما فى قوله : ﴿ إن الله عنده علم الساعة . . . ﴾ إلى آخر الآية، [لقمان : ٣٤] ونحو ذلك . وهكذا ما كانت دلالته غير ظاهرة، لا باعتبار نفسه ولا باعتبار غيره ، كورود الشىء محتملا لأمرين احتمالا لا يترجح أحدهما على الآخر ، باعتبار ذلك الشىء فى نفسه ، وذلك كالألفاظ المشتركة مع عدم ورود ما يبين المراد من معنى ذلك المشترك من الأمور الخارجة ، وكذلك ورود دليلين متعارضين تعارضا كليا بحيث لا يمكن ترجيح أحدهما على الآخر، لا باعتبار نفسه ، ولا باعتبار أمر آخر يرجحه ، وأما ما كان واضح المعنى باعتبار نفسه بأن يكون معروفًا فى لغة العرب ، أو فى عرف الشرع ، أو باعتبار غيره ، وذلك كالأمور المجملة التى ورد بيانها فى موضع آخر من الكتاب العزيز أو فى السنة المطهرة ، أو الأمور التى تعارضت دلالتها ثم ورد مايبين راجحها من مرجوحها فى موضع آخر من الكتاب أو السنة أو سائر المرجحات المعروفة عند أهل الأصول المقبولة عند أهل الإنصاف ، فلا شك ولا ريب أن هذه من المحكم لا من المتشابه ، ومن زعم أنها من المتشابه فقد اشتبه عليه الصواب ، فاشدد يديك على هذا فإنك تنجو به من مضايق ومزالق وقعت للناس فى هذا المقام ، حتى صارت كل طائفة تسمى مادل لما ذهب إليه محكمًا ، وما دل على ما يذهب إليه من يخالفها متشابها ، سيما أهل علم الكلام ، ومن أنكر هذا فعليه بمؤلفاتهم .

واعلم أنه قد ورد فى الكتاب العزيز ما يدل على أنه جميعه محكم ، ولكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية، بل بمعنى آخر ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ كتاب أحكمت آياته ﴾ [هود: ١] وقوله : ﴿ تلك آيات الكتاب الحكيم ﴾ [يونس : ١] والمراد بالمحكم بهذا المعنى أنه صحيح الألفاظ ، قويم المعانى ، فائق فى البلاغة والفصاحة على كل كلام ، وورد أيضًا ما يدل على أنه جميعه متشابه لكن لا بهذا المعنى الوارد فى هذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها ، بل بمعنى آخر ومنه قوله تعالى : ﴿كتابًا متشابها ﴾ [الزمر : ٢٣] ، والمراد بالمتشابه بهذا المعنى: أنه يشبه بعضه بعضًا فى الصحة، والفصاحة ، والحسن ، والبلاغة.

(١) القرطبى ٢ / ١٢٦٠ .

وقد ذكر أهل العلم لورود المتشابه فى القرآن فوائد : منها : أنه يكون فى الوصول إلى الحق مع وجودها فيه مزيد صعوبة ومشقة ، وذلك يوجب مزيد الثواب للمستخرجين للحق ، وهم الأئمة المجتهدون وقد ذكر الزمخشرى [1] والرازى وغيرهما وجوهًا هذا أحسنها ، وبقيتها لا تستحق الذكر ها هنا .

قوله : ﴿ **كل من عند ربنا** ﴾ فيه ضمير مقدر عائد على قسمى المحكم والمتشابه ، أى كله، أو المحذوف غير ضمير ، أى كل واحد منهما ، وهذا من تمام المقول المذكور قبله. وقوله: ﴿**وما يذكر إلا أولو الألباب** ﴾ أى العقول الخالصة ، وهم الراسخون فى العلم ، الواقفون عند متشابهه ، العاملون بمحكمه ، العاملون بما أرشدهم الله إليه فى هذه الآية .

وقوله : ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا** ﴾ قال ابن كيسان : سألوا ألا يزيغوا فتزيغ قلوبهم نحو قوله تعالى : ﴿ فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم ﴾ [الصف : ٥] كأنهم لما سمعوا قوله سبحانه : ﴿**وأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ قالوا: ﴿ **ربنا لاتزغ قلوبنا** ﴾ باتباع المتشابه ﴿**بعد إذ هديتنا** ﴾ إلى الحق بما أذنت لنا من العمل بالآيات المحكمات ، والظرف وهو قوله : ﴿**بعد**﴾ منتصب بقوله : لا تزغ . قوله : ﴿ **وهب لنا من لدنك رحمة**﴾ أى كائنة من عندك، و« من » لابتداء الغاية و« لَدن » بفتح اللام وضم الدال وسكون النون ، وفيه لغات أخر هذه أفصحها ، وهو ظرف مكان ، وقد يضاف إلى الزمان ، وتنكير ﴿**رحمة** ﴾ للتعظيم ، أى رحمة عظيمة واسعة . وقوله : ﴿ **إنك أنت الوهاب** ﴾ تعليل للسؤال أو لإعطاء المسؤول .

وقوله : ﴿ **ربنا إنك جامع الناس** ﴾ أى باعثهم ومحييهم بعد تفرقهم ﴿ **ليوم** ﴾ هو يوم القيامة ، أى لحساب يوم ، أو لجزاء يوم ، على تقدير حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه. قوله : ﴿ **لا ريب فيه** ﴾ أى فى وقوعه ووقوع ما فيه من الحساب والجزاء ، وقد تقدم تفسير الريب ، وجملة قوله : ﴿ **إن الله لا يخلف الميعاد** ﴾ للتعليل لمضمون ما قبلها ، أى أن الوفاء بالوعد شأن الإله سبحانه وخلفه يخالف الألوهية كما أنها تنافيه وتباينه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : المحكمات : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه، وحدوده، وفرائضه ، وما نؤمن به ، ونعمل به . والمتشابهات: منسوخه ، ومقدمه ، ومؤخره وأمثاله ، وأقسامه وما نؤمن به، ولا نعمل به . وأخرج سعيد ابن منصور وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه عن ابن عباس قال فى قوله : ﴿**منه آيات محكمات**﴾ قال : الثلاث آيات من آخر سورة الأنعام محكمات ﴿ قل تعالوا ﴾ [الأنعام : ١٥١] والآيتان بعدها . وفى رواية عنه أخرجها عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **آيات محكمات** ﴾ قال : من هنا : ﴿ **قل تعالوا** ﴾ إلى ثلاث آيات ، ومن هنا : ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [الإسراء:٢٣] إلى ثلاث آيات بعدها . وأقول : رحم الله ابن عباس ما أقل جدوى هذا الكلام المنقول عنه . فإن تعيين ثلاث آيات ، أو عشر أو مائة من جميع آيات القرآن ، ووصفها بأنها محكمة ليس تحته من الفائدة

(١) الكشاف ١/ ٣٣٨ .

شيء ، فالمحكمات هى أكثر القرآن على جميع الأقوال حتى على قوله المنقول عنه قريبًا من أن المحكمات ناسخه وحلاله إلخ، فما معنى تعيين تلك الآيات من آخر سورة الأنعام ؟ وأخرج عبد ابن حميد عنه قال : المحكمات : الحلال والحرام ، وللسلف أقوال كثيرة هى راجعة إلى ماقدمنا فى أول هذا البحث .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ**﴾ يعنى أهل الشك ، فيحملون المحكم على المتشابه والمتشابه على المحكم ، ويلبسون فلبس الله عليهم ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ قال : تأويله يوم القيامة لا يعلمه إلا الله . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود ﴿ **زيغ** ﴾ قال : شك . وفى الصحيحين وغيرهما عن عائشة قالت : تلا رسول الله ﷺ : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ**﴾ إلى قوله : ﴿ **أولو الألباب** ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : « إذا رأيتم الذين يجادلون فيه فهم الذين عنى فاحذروهم » . وفى لفظ: « فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سماهم الله فاحذروهم » هذا لفظ البخارى. ولفظ ابن جرير وغيره: « فإذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه والذين يجادلون فيه فهم الذين عنى الله فلا تجالسوهم » [(١)]. وأخرج عبد بن حميد وعبد الرزاق وأحمد وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن أبى أمامة عن النبى ﷺ فى قوله: ﴿**فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه** ﴾ قال : هم الخوارج[(٢)] .

وأخرج ابن جرير والحاكم وصححه عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال : «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد ، على حرف واحد ، ونزل القرآن على سبعة أحرف: زاجر ، وآمر ، وحلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه، وأمثال ، فأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وافعلوا ما أمرتم به ، وانتهوا عما نهيتم عنه ، واعتبروا بأمثاله ، واعملوا بمحكمه ، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا : آمنا به كل من عندنا ربنا » [(٣)] . وأخرجه ابن أبى حاتم عن ابن مسعود موقوفا. وأخرج الطبرانى عن عمر بن أبى سلمة أن النبى ﷺ قال لعبد الله بن مسعود ، فذكر نحوه [(٤)]. وأخرج البخارى فى التاريخ ، عن على مرفوعًا بإسناد ضعيف نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، وابن أبى داود فى المصاحف عن ابن مسعود نحوه [(٥)] . وأخرج ابن جرير وأبو يعلى عن أبى هريرة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : «نزل القرآن على سبعة أحرف والمراء فى

---

(١) أحمد ٦/ ٤٨ والبخارى فى التفسير (٤٥٤٧) ومسلم فى العلم (٢٦٦٥/ ١) وأبو داود فى السنة (٤٥٩٨) والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٩٤) وقال : «حسن صحيح» وابن جرير ٣/ ١١٩ .

(٢) أحمد ٥/ ٢٦٢ والطبرانى (٨٠٤٦ ، ٨٠٤٩) وأورد ابن كثير رواية ابن مردويه ٢/ ٨٢٧ وقال : « وأقل أقسام الحديث أن يكون موقوفاً من كلام الصحابى ومعناه صحيح » والبيهقى فى قتال أهل البغى (٨/ ١٨٨) .

(٣) ابن جرير ١/ ٢٣ وصححه الحاكم ٢/ ٢٨٩ وقال الذهبى : «منقطع ».

(٤) الطبرانى (٨٢٩٦) وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٦ : «فيه عمارة بن مطر وهو ضعيف جدًا وقد وثقه بعضهم ».

(٥) ابن جرير ١/ ٢٤ .

القرآن كفر، ما عرفتم فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وإسناده صحيح [١].
وأخرج البيهقى فى الشعب عن أبى هريرة مرفوعًا، وفيه: «واتبعوا المحكم وآمنوا بالمتشابه»[٢].

وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر، والحاكم وصححه عن طاوس قال: كان ابن عباس يقرؤها: «وما يعلم تأويله إلا الله، ويقول الراسخون فى العلم: آمنا به». وأخرج ابن أبى داود فى المصاحف عن الأعمش قال فى قراءة عبد الله: وإن حقيقة تأويله إلا عند الله، والراسخون فى العلم يقولون: آمنا به. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى الشعثاء وأبى نهيك قال: إنكم تصلون هذه الآية وهى مقطوعة: ﴿**وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا**﴾ فانتهى علمهم إلى قولهم الذى قالوا. وأخرج ابن جرير عن عروة قال: الراسخون فى العلم لا يعلمون تأويله. ولكنهم يقولون: آمنا به كل من عند ربنا. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر بن عبد العزيز نحوه. وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن أبىّ قال: كتاب الله ما استبان فاعمل به، وما اشتبه عليك فآمن به وكله إلى عالمه. وأخرج أيضًا عن ابن مسعود قال: إن للقرآن منارا كمنار الطريق، فما عرفتم فتمسكوا به، وما اشتبه عليكم فذروه. وأخرج أيضًا عن معاذ نحوه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس قال: تفسير القرآن على أربعة وجوه: تفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعذر الناس بجهالته من حلال أو حرام، وتفسير تعرفه العرب بلغتها، وتفسير لا يعلم تأويله إلا الله، من ادعى علمه فهو كذاب. وأخرج ابن جرير عنه قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف: حلال وحرام لا يعذر أحد بالجهالة به، وتفسير تفسره العرب، وتفسير تفسره العلماء، ومتشابه لا يعلمه إلا الله، ومن ادعى علمه سوى الله فهو كاذب. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: أنا ممن يعلم تأويله. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق عطية العوفى عنه فى قوله: ﴿**يقولون آمنا به**﴾: نؤمن بالمحكم وندين به، ونؤمن بالمتشابه ولا ندين به، وهو من عند الله كله.

وأخرج الدارمى فى مسنده، ونصر المقدسى فى الحجة عن سليمان بن يسار؛ أن رجلا يقال: له صبيغ، قدم المدينة، فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل، فقال: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله صبيغ، فقال: وأنا عبد الله عمر، فأخذ عمر عرجونًا من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه، فقال: يا أمير المؤمنين، حسبك قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى. وأخرجه الدارمى أيضًا من وجه آخر، وفيه أنه

---

(١) ابن جرير ١/٩ وأبو يعلى (٦٠١٦) وأحمد ٢/ ٣٠٠ وقال الهيثمى فى المجمع ٧/ ١٥٤: «رواه أحمد بإسنادين ورجال أحدهما رجال الصحيح».
(٢) البيهقى فى الشعب (٢٠٥٩، ٢٠٦٠) ولكن لم يذكر اللفظ الوارد للمصنف.

ضربه ثلاث مرات يتركه فى كل مرة حتى يبرأ ، ثم يضربه . وأخرج أصل القصة ابن عساكر فى تاريخه عن أنس. وأخرج الدارمى وابن عساكر أن عمر كتب إلى أهل البصرة ألا يجالسوا صبيغًا. وقد أخرج هذه القصة جماعة(١).

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم والطبرانى عن أنس وأبى أمامة وواثلة بن الأسقع وأبى الدرداء ؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن الراسخين فى العلم ؟ فقال : « من برّت يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، ومن عفّ بطنه وفرجه ، فذلك من الراسخين فى العلم » (٢) . وأخرج ابن عساكر من طريق عبد الله بن يزيد الأزدى عن أنس مرفوعًا نحوه . وأخرج أبو داود والحاكم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « الجدال فى القرآن كفر » (٣) . وأخرج نصر المقدسى فى الحجة عن ابن عمر قال : خرج رسول الله ﷺ ومن وراء حجرته قوم يتجادلون بالقرآن، فخرج محمرة وجنتاه كأنما يقطران دمًا ، فقال: « ياقوم ، لا تجادلوا بالقرآن فإنما ضلّ من كان قبلكم بجدالهم ، إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضاً ، ولكن نزل ليصدق بعضه بعضًا ، فما كان من محكمه فاعملوا به ، وما كان من متشابهه فآمنوا به » .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أم سلمة ؛ أن النبى ﷺ كان يقول : « يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك » ثم قرأ: ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا** ﴾ الآية (٤). وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة مرفوعًا نحوه (٥) . وقد ورد نحوه من طرق أخر. وأخرج ابن النجار فى تاريخه فى قوله : ﴿ **ربنا إنك جامع الناس ليوم** ﴾ الآية ، عن جعفر بن محمد الخلدى قال : روى عن النبى ﷺ أن : « من قرأ هذه الآية على شىء ضاع منه ردَّه الله عليه » ، ويقول بعد قراءتها : « يا جامع الناس ، ليوم لا ريب فيه اجمع بينى وبين مالى ، إنك على كل شىء قدير » .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)** ﴾ .

---

(١) الدارمى ١/ ٥٤ ، ٥٥ وصبيغ :هو صبيغ العراقى .

(٢) ابن جرير ٣/ ١٢٣ .

(٣) أبو داود فى السنة(٤٦٠٣) بلفظ : « المراء » بدلا من : « الجدال » وصححه الحاكم ٢/ ٢٢٣ وقال: «على شرط مسلم وتابعه عمر بن أبى سلمة عن أبيه »ووافقه الذهبى .

(٤) ابن جرير ٣ / ١٢٥ . (٥) ابن أبى شيبة (٩٢٤٦) وأحمد ٦ / ٢٩٤ .

المراد بـ ﴿ **الذين كفروا** ﴾ :جنس الكفرة . وقيل : وفد نجران . وقيل : قريظة . وقيل: النضير . وقيل : مشركو العرب . وقرأ السلمى : « لن يُغنى » بالتحتية . وقرأ الحسن بكون الياء الآخرة تخفيفًا . قوله : ﴿ **من الله شيئاً** ﴾ أى من عذابه شيئا من الإغناء . وقيل : إن كلمة من بمعنى عند ، أى لا تغنى عند الله شيئًا قاله أبو عبيد. وقيل : هى بمعنى بدل ، والمعنى : بدل رحمة الله، وهو بعيد . قوله : ﴿ **وأولئك هم وقود النار** ﴾ الوقود : اسم للحطب ، وقد تقدم الكلام عليه فى سورة البقرة ، أى هم حطب جهنم الذى تسعر به ، وهم مبتدأ ، ووقود خبره، والجملة خبر أولئك ، أو هم ضمير فصل ، وعلى التقديرين فالجملة مستأنفة مقررة لقوله: ﴿ **لن تغنى عنهم أموالهم** . . . ﴾ الآية. وقرأ الحسن ومجاهد وطلحة بن مصرف: «وقود» بضم الواو، وهو مصدر، وكذلك الوقود بفتح الواو ، فى قراءة الجمهور يحتمل أن يكون اسمًا للحطب كما تقدم فلا يحتاج إلى تقدير ، ويحتمل أن يكون مصدرًا ؛ لأنه من المصادر التى تأتى على وزن الفعول فتحتاج إلى تقدير ، أى هم أهل وقود النار .

قوله : ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ الدأب : الاجتهاد ، يقال : دأب الرجل فى عمله يدأب دأبًا ودؤوبا : إذا جد واجتهد ، والدائبان : الليل والنهار، والدأب : العادة والشأن ، ومنه قول امرئ القيس :

كَدَأْبِكَ مِنْ أمِّ الْحُوَيْرِثِ قَبْلَها وَجَارَتِها أمِّ الرَّبَابِ بِمَأْسَلِ

والمراد هنا :كعادة آل فرعون وشأنهم وحالهم ، واختلفوا فى الكاف ، فقيل : هى فى موضع رفع تقديره : دأبهم كدأب آل فرعون مع موسى . وقال الفراء : إن المعنى : كفرت العرب ككفر آل فرعون . قال النحاس : لا يجوز أن تكون الكاف متعلقة بكفروا ؛ لأن كفروا داخلة فى الصلة . وقيل : هى متعلقة بأخذهم الله ، أى أخذهم أخذة كما أخذ آل فرعون. وقيل: هى متعلقة بـ ﴿ **لن تغنى** ﴾ أى لن تغنى عنهم غناء كما لم تغن عن آل فرعون. وقيل: إن العامل فعل مقدر من لفظ الوقود ، ويكون التشبيه فى نفس الإحراق ، قالوا : ويؤيده قوله تعالى: ﴿ أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴾ [غافر:٤٦] ﴿ النار يعرضون عليها غدوا وعشيا﴾ [غافر : ٤٦] والقول الأول هو الذى قاله جمهور المحققين ومنهم الأزهرى. قوله : ﴿ **والذين من قبلهم** ﴾ أى من قبل آل فرعون من الأمم الكافرة ، أى وكدأب الذين من قبلهم . قوله : ﴿ **كذبوا بآياتنا فأخذهم الله** ﴾ يحتمل أن يريد الآيات المتلوة، ويحتمل أن يريد الآيات المنصوبة للدلالة على الوحدانية ، ويصح إرادة الجميع ، والجملة بيان وتفسير لدأبهم ، ويجوز أن تكون فى محل نصب على الحال من آل فرعون ، والذين من قبلهم على إضمار قد ، أى دأب هؤلاء كدأب أولئك قد كذبوا إلخ. وقوله : ﴿ **بذنوبهم** ﴾ أى بسائر ذنوبهم التى من جملتها تكذيبهم .

قوله : ﴿ **قل للذين كفروا** ﴾ قيل : هم اليهود . وقيل : هم مشركو مكة ، وسيأتى بيان

سبب نزول الآية. وقوله : ﴿ستغلبون﴾ قرئ بالفوقية والتحتية ، وكذلك ﴿ تحشرون ﴾ . وقد صدق الله وعده بقتل بنى قريظة وإجلاء بنى النضير ، وفتح خيبر ، وضرب الجزية على سائر اليهود ، ولله الحمد . قوله : ﴿ وبئس المهاد ﴾ يحتمل أن يكون من تمام القول الذى أمر الله سبحانه نبيه ﷺ أن يقول لهم ، ويحتمل أن تكون الجملة مستأنفة تهويلا وتفظيعًا .

قوله : ﴿ قد كان لكم آية ﴾ أى علامة عظيمة دالة على صدق ما أقول لكم . وهذه الجملة جواب قسم محذوف ، وهى من تمام القول المأمور به لتقرير مضمون ما قبله، ولم يقل : « كانت » لأن التأنيث غير حقيقى . وقال الفراء : إنه ذكر الفعل لأجل الفصل بينه وبين الاسم بقوله : ﴿ لكم ﴾ . والمراد بالفئتين : المسلمون والمشركون لما الْتقوا يوم بدر . قوله : ﴿فئة تقاتل فى سبيل الله﴾ قراءة الجمهور برفع: ﴿ فئة ﴾.وقرأ الحسن ومجاهد: « فئة» و« كافرة» بالخفض ، فالرفع على الخبرية لمبتدأ محذوف ، أى إحداهما فئة . وقوله : ﴿ تقاتل ﴾ فى محل رفع على الصفة ، والجر على البدل من قوله : ﴿ فئتين ﴾ . وقوله : ﴿ وأخرى ﴾ أى وفئة أخرى كافرة . وقرأ ابن أبى عبلة (١) بالنصب فيها . قال ثعلب : هو على الحال ، أى التقتا مختلفتين ، مؤمنة وكافرة . وقال الزجاج : النصب بتقدير أعنى ؛ وسميت الجماعة من الناس فئة ؛ لأنه يفاء إليها ، أى يرجع إليها فى وقت الشدة . وقال الزجاج : الفئة : الفرقة مأخوذة من فأوت رأسه بالسيف : إذا قطعته ، ولا خلاف أن المراد بالفئتين هما المقتتلتان فى يوم بدر ، وإنما وقع الخلاف فى المخاطب بهذا الخطاب، فقيل المخاطب بها : المؤمنون . وقيل: اليهود . وفائدة الخطاب للمؤمنين : تثبيت نفوسهم ، وتشجيعها ، وفائدته إذا كان مع اليهود عكس الفائدة المقصودة بخطاب المسلمين .

قوله :﴿ ترونهم مثليهم ﴾ قال أبو على الفارسى : الرؤية فى هذه الآية رؤية العين ؛ ولذلك تعدت إلى مفعول واحد ، ويدل عليه قوله: ﴿ رأى العين ﴾ والمراد: أنه يرى المشركون المسلمين مثلى عدد المشركين ، أو مثلى عدد المسلمين . وهذا على قراءة الجمهور بالياء التحتية ، وقرأ نافع بالفوقية . وقوله : ﴿ مثليهم ﴾ منتصب على الحال ، وقد ذهب الجمهور إلى أن فاعل ترون هم المؤمنون والمفعول هم الكفار . والضمير فى : ﴿ مثليهم ﴾ يحتمل أن يكون للمشركين ، أى ترون أيها المسلمون المشركين مثلى ما هم عليه من العدد ، وفيه بُعْد، أن يكثر الله المشركين فى أعين المؤمنين ، وقد أخبرنا أنه قللهم فى أعين المؤمنين ، فيكون المعنى ترون أيها المسلمون المشركين مثليكم فى العدد ، وقد كانوا ثلاثة أمثالهم ، فقلل الله المشركين فى أعين المسلمين ، فأراهم إياهم مثلى عدتهم لتقوى أنفسهم . وقد كانوا أعلموا أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار . ويحتمل أن يكون الضمير فى : ﴿ مثليهم ﴾ للمسلمين ، أى ترون أيها المسلمون أنفسكم مثلى ما أنتم عليه من العدد لتقوى بذلك أنفسكم ، وقد قال من ذهب

---

(١) ابن أبى عبلة إبراهيم واسمه: شمر بن يقظان بن المرتحل أبو إسماعيل. وقيل: أبو إسحاق. وقيل: أبو سعيد الشامى الدمشقى. ويقال:الرملى. ويقال: المقدسى. ثقة كبير تابعى. طبقات القراء ١/ ١٩ (٧٢).

إلى التفسير الأول ـ أعنى : أن فاعل الرؤية المشركون ، وأنهم رأوا المسلمين مثلى عددهم ـ أنه لا يناقض هذا مافى سورة الأنفال من قوله تعالى : ﴿ ويقللكم فى أعينهم ﴾ [الأنفال : ٤٤] بل قللوا أولا فى أعينهم ليلاقوهم ، ويجترئوا عليهم ، فلما لاقوهم كثروا فى أعينهم حتى غلبوا. قوله : ﴿ **رأى العين** ﴾ مصدر مؤكد لقوله: ﴿**ترونهم** ﴾ أى رؤية ظاهرة مكشوفة لا لبس فيها . ﴿ **والله يؤيد بنصره من يشاء** ﴾ أى يقوى من يشاء أن يقويه، ومن جملة ذلك تأييد أهل بدر بتلك الرؤية ﴿ **إن فى ذلك** ﴾ أى فى رؤية القليل كثيراً ﴿**لعبرة**﴾ فعلة من العبور كالجلسة من الجلوس . والمراد الاتعاظ ، والتنكير للتعظيم ، أى عبرة عظيمة ، وموعظة جسيمة.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **كدأب آل فرعون** ﴾ قال: كصنيع آل فرعون. وأخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عنه قال :كفعل . وأخرج مثله أبو الشيخ عن مجاهد . وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : كسنتهم . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ لما أصاب من أهل بدر ما أصاب ، ورجع إلى المدينة ، جمع اليهود فى سوق بنى قينقاع قال : « يامعشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم الله بما أصاب قريشًا » قالوا : يا محمد ، لا يغرنك من نفسك أنك قتلت نفرا كانوا غمارًا [١] لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لم تلق مثلنا، فأنزل الله: ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون** ﴾ إلى قوله: ﴿ **أولى الأبصار** ﴾ [٢] . وأخرج ابن جرير وابن إسحاق وابن أبى حاتم عن عاصم بن عمر بن قتادة مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة قال : قال فنحاص اليهودى وذكر نحوه .

وأخرج ابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **قد كان لكم آية** ﴾ عبرة وتفكر . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **قد كان لكم آية فى فئتين التقتا فئة تقاتل فى سبيل الله** ﴾: أصحاب رسول الله ﷺ ببدر، ﴿**وأخرى كافرة** ﴾: فئة قريش الكفار . وأخرج عبد الرزاق أن هذه الآية نزلت فى أهل بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع فى قوله : ﴿ **قد كان لكم آية** ﴾ يقول : قد كان لكم فى هؤلاء عبرة ومتفكر ، أيدهم الله ، ونصرهم على عدوهم يوم بدر ، كان المشركون تسعمائة وخمسين رجلا ، وكان أصحاب محمد ﷺ ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا . وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود فى الآية قال : هذا يوم بدر نظرنا إلى المشركين فرأيناهم يضعفون علينا ، ثم نظرنا إليهم فما رأيناهم يزيدون علينا رجلا واحدا [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : أنزلت فى التخفيف يوم بدر على المؤمنين كانوا يومئذ ثلاثمائة

---

(١) الأغمار : جمع غمر ـ بضم فسكون ـ وهو الجاهل الغر الذى لم يجرب الأمور ، ولم تحنكه التجارب.

(٢) ابن إسحاق ٣/ ٥ وابن جرير ٣/ ١٢٨ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ١٧٣ .

(٣) ابن جرير ٣/ ١٣٠ وعنده بزيادة قول الله تعالى : ﴿ وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ﴾ [الأنفال : ٤٤] .

وثلاثة عشر رجلا ، وكان المشركون مثليهم ستمائة وستة وعشرين فأيد الله المؤمنين .

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ(١٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **زُين للناس** ﴾ إلخ ، كلام مستأنف لبيان حقارة ما تستلذه الأنفس فى هذه الدار . والمزين قيل : هو الله سبحانه ، وبه قال عمر كما حكاه عنه البخارى وغيره ، ويؤيده قوله تعالى : ﴿ إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم ﴾ [الكهف : ٧]. وقيل : المزين هو الشيطان ، وبه قال الحسن ، حكاه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عنه. وقرأ الضحاك: « زين » على البناء للفاعل ، وقرأه الجمهور على البناء للمفعول . والمراد بالناس: الجنس . والشهوات : جمع شهوة ، وهى نزوع النفس إلى ما تريده ، والمراد هنا : المشتهيات، عبر عنها بالشهوات ؛ مبالغة فى كونها مرغوبًا فيها أو تحقيرًا لها ؛ لكونها مسترذلة عند العقلاء من صفات الطبائع البهيمية ، ووجه تزيين الله سبحانه لها : ابتلاء عباده كما صرح به فى الآية الأخرى ، وقوله : ﴿ **من النساء والبنين** ﴾ فى محل الحال ، أى زين للناس حب الشهوات حال كونها من النساء والبنين إلخ . وبدأ بالنساء لكثرة تشوق النفوس إليهن ؛ لأنهن حبائل الشيطان ، وخص البنين دون البنات ؛ لعدم الاضطراد فى محبتهن . والقناطير : جمع قنطار ، وهو اسم للكثير من المال . قال الزجاج : القنطار مأخوذ من عقد الشىء وإحكامه ، تقول العرب : قنطرت الشىء : إذا أحكمته، ومنه سميت القنطرة لإحكامها . وقد اختلف فى تقديره على أقوال للسلف ، ستأتى إن شاء الله . واختلفوا فى معنى ﴿ **المقنطرة** ﴾ ، فقال ابن جرير الطبرى : معناها المضعفة ، وقال : القناطير ثلاثة والمقنطرة تسعة (١) . وقال الفراء : القناطير جمع القنطار، والمقنطرة جمع الجمع ، فتكون تسع قناطير . وقيل: المقنطرة: المضروبة، وقيل : المكملة كما يقال : بدرة مبدرة ، وألوف مؤلفة ، وبه قال مكى وحكاه الهروى. وقال ابن كيسان : لا تكون المقنطرة أقل من سبعة قناطير . وقوله : ﴿ **من الذهب والفضة** ﴾ بيان للقناطير ، أوحال :﴿**والخيل المسومة**﴾ قيل : هى المرعية فى المروج والمسارح، يقال: سامت الدابة والشاة: إذا سرحت . وقيل: هى المعدة للجهاد . وقيل: هى الحسان.

(١) ابن جرير ٣/ ١٣٥ .

وقيل : المعلمة من السومة ، وهى العلامة ، أى التى يجعل عليها علامة لتتميز عن غيرها . وقال ابن فارس فى المجمل : المسومة : المرسلة وعليها ركبانها . وقال ابن كيسان : البلق . والأنعام هى : الإبل والبقر والغنم ، فإذا قلت: نعم فهى الإبل خاصة ، قاله الفراء وابن كيسان ، ومنه قول حسان :

وَكَانَتْ لايَزَالُ بِـها أنِيس خِلالَ مُروجِـهَا نَعمٌ وشَاءُ

والحرث : اسم لكل ما يحرث ، وهو مصدر سمى به المحروث ، يقول :حرث الرجل حرثًا : إذا أثار الأرض فيقع على الأرض والزرع . قال ابن الأعرابى : الحرث : التفتيش . قوله: ﴿ **ذلك متاع الحياة الدنيا** ﴾ أى ذلك المذكور ما يتمتع به، ثم يذهب ولا يبقى ، وفيه تزهيد فى الدنيا وترغيب فى الآخرة . و ﴿ **المآب** ﴾ : المرجع ، آب يؤوب إياباً : إذا رجع ، ومنه قول امرئ القيس :

لَقَدْ طَوَّفْتُ فِى الآفَاقِ حَتَّى رَضِيتُ منَ الغَنِيمةِ بالإيَابِ

قوله : ﴿ **قل أؤنبئكم بخير من ذلكم** ﴾ أى هل أخبركم بما هو خير لكم من تلك المستلذات ؟ وإبهام الخير للتفخيم، ثم بينه بقوله : ﴿ **للذين اتقوا عند ربهم جنات** ﴾ وعند فى محل نصب على الحال من جنات ، وهى مبتدأ ، وخبرها للذين اتقوا ، ويجوز أن تتعلق اللام بخير ، وجنات خبر مبتدأ مقدر ، أى هو جنات ، وخص المتقين ؛ لأنهم المنتفعون بذلك، وقد تقدم تفسير قوله : ﴿ **تجرى من تحتها الأنهار** ﴾ وما بعده .

قوله : ﴿ **الذين يقولون** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **للذين اتقوا** ﴾ أو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين ، أو منصوب على المدح . والصابرين وما بعده نعت للموصول ، على تقدير كونه بدلا ، أو منصوبًا على المدح ، وعلى تقدير كونه خبرا، يكون الصابرين وما بعده منصوبة على المدح ، وقد تقدم تفسير الصبر والصدق والقنوت. قوله : ﴿ **والمستغفرين بالأسحار** ﴾ هم السائلون للمغفرة بالأسحار .وقيل : المصلون . والأسحار : جمع سحر بفتح الحاء وسكونها . قال الزجاج : هو من حين يدبر الليل إلى أن يطلع الفجر ، وخص الأسحار؛ لأنها من أوقات الإجابة .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عمر بن الخطاب ، لما نزلت : ﴿ **زين للناس حب الشهوات** ﴾ قال : الآن يارب حين زينتها لنا ، فنزلت : ﴿ **قل أؤنبئكم** ﴾ [(١)] . وأخرجه ابن المنذر عنه بلفظ « خير » انتهى إلى قوله: ﴿ **قل أؤنبئكم بخير** ﴾ فبكى وقال: بعد ماذا،بعد ماذا ، بعد ما زينتها . وأخرج أحمد وابن ماجة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « القنطار اثنا عشر ألف أوقية » [(٢)] . رواه أحمد من حديث عبد الصمد بن عبد الوارث عن

(١) ابن جرير ٣/ ١٣٣ .

(٢) أحمد ٢/ ٣٦٣ وابن ماجة فى الأدب (٣٦٦٠) وفيه زيادة وقال فى الزوائد:«إسناده صحيح ورجاله ثقات».

حماد عن عاصم عن أبى صالح عنه [١] . ورواه ابن ماجة عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عبد الصمد به [٢] . وقد رواه ابن جرير موقوفاً على أبى هريرة [٣] . قال ابن كثير : وهذا أصح[٤]. وأخرج الحاكم وصححه عن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن القناطير المقنطرة فقال : « القنطار ألف أوقية » [٥] ورواه ابن أبى حاتم وابن مردويه عنه مرفوعًا بلفظ :« ألف دينار» . وأخرج ابن جرير عن أبىّ بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ : « القنطار ألف أوقية ومائتا أوقية » [٦] . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى من قول معاذ بن جبل . وأخرجه ابن جرير من قول ابن عمر . وأخرجه عبد بن حميد وابن جرير والبيهقى من قول أبى هريرة . وأخرجه ابن جرير والبيهقى من قول ابن عباس . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم والبيهقى عن أبى سعيد الخدرى قال : القنطار ملء مسك جلد الثور ذهبًا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عمر أنه قال : القنطار سبعون ألفا ، وأخرجه عبد ابن حميد عن مجاهد . وأخرج أيضا عن سعيد بن المسيب قال : القنطار ثمانون ألفًا . وأخرج أيضًا عن أبى صالح قال : القنطار مائة رطل . وأخرجه أيضًا عن قتادة . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى جعفر قال: القنطار خمسة عشر ألف مثقال، والمثقال أربعة وعشرون قيراطا. وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال:هو المال الكثير من الذهب والفضة.وأخرجه أيضا عن الربيع.وأخرج عن السدى أن المقنطرة : المضروبة .وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس: ﴿**والخيل المسومة**﴾ قال:الراعية.وأخرج ابن المنذر عنه من طريق مجاهد.وأخرج ابن جرير عنه قال:هى الراعية والمطهمة الحسان.وأخرج عبد بن حميد ، وابن جرير،عن مجاهد قال: هى المطهمة الحسان. وأخرجا عن عكرمة قال : تسويمها حسنها. وأخرج ابن أبى حاتم قال:﴿**الخيل المسومة** ﴾ الغرة والتحجيل . وأخرج عبد بن حميد عن قتادة فى قوله : ﴿ **الصابرين** ﴾ قال : قوم صبروا على طاعة الله وصبروا عن محارمه ، والصادقون : قوم صدقت نياتهم ، واستقامت قلوبهم وألسنتهم ، وصدقوا فى السر والعلانية. القانتون : هم المطيعون ، والمستغفرون بالأسحار : أهل الصلاة . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة قال : هم الذين يشهدون صلاة الصبح. وأخرج ابن جرير وابن مردويه عن أنس قال:أمرنا رسول الله ﷺ أن نستغفر بالأسحار سبعين مرة[٧]. وأخرج ابن جرير ، وأحمد فى الزهد عن سعيد الجريرى ؛ قال : بلغنا أن داود عليه السلام سأل جبريل فقال : يا جبريل ، أى الليل أفضل ؟ قال : يادا ود ، ما أدرى ، إلا أن العرش يهتز فى السحر [٨] . وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما عن جماعة من الصحابة ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « ينزل الله تبارك

---

(١) أحمد ٢/ ٣٦٣.
(٢) ابن ماجة فى الأدب (٣٦٦٠).
(٣) ابن جرير ٣/ ١٣٣ موقوفًا .
(٤) ابن كثير ٢/ ١٧ .
(٥) صححه الحاكم ٢/ ١٧٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٦) ابن جرير ٣/ ١٣٤ .
(٧) ابن جرير ٣ / ١٣٩ .
(٨) أحمد فى الزهد (٣٦٤) .

وتعالى فى كل ليلة إلى سماء الدنيا حتى يبقى ثلث الليل الآخر ، فيقول : هل من سائل فأعطيه، هل من داع فأستجيب له ، هل من مستغفر فأغفر له »[١] .

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالأُمِّيِّينَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **شهد الله** ﴾ أى بين وأعلم . قال الزجاج : الشاهد هو الذى يعلم الشىء ويبينه، فقد دلنا الله على وحدانيته بما خلق وبين . وقال أبو عبيدة : شهد الله بمعنى قضى ، أى أعلم . قال ابن عطية : وهذا مردود من جهات . وقيل : إنها شبهت دلالته على وحدانيته بأفعاله ووحيه، بشهادة الشاهد فى كونها مبينة . وقوله: ﴿**أنه**﴾ بفتح الهمزة . قال المبرد : أى بأنه ثم حذفت الباء كما فى أمرتك الخير ، أى بالخير . وقرأ ابن عباس : « إنه» بكسر الهمزة بتضمين ﴿ **شهد** ﴾ معنى «قال»، وقرأ أبو المهلب : « شهداء لله » بالنصب على أنه حال من الصابرين وما بعده ، أو على المدح . ﴿ **والملائكة** ﴾ : عطف على الاسم الشريف، وشهادتهم : إقرارهم بأنه لا إله إلا الله . وقوله : ﴿ **وأولو العلم** ﴾ معطوف أيضًا على ما قبله، وشهادتهم بمعنى الإيمان منهم ، وما يقع من البيان للناس على ألسنتهم ، وعلى هذا لابد من حمل الشهادة على معنى يشمل شهادة الله ، وشهادة الملائكة وأولى العلم. وقد اختلف فى أولى العلم هؤلاء من هم ؟ فقيل : هم الأنبياء . وقيل : المهاجرون والأنصار ، قاله ابن كيسان . وقيل : مؤمنو أهل الكتاب ، قاله مقاتل . وقيل :المؤمنون كلهم ، قاله السدى والكلبى ، وهو الحق إذ لا وجه للتخصيص . وفى ذلك فضيلة لأهل العلم جليلة ، ومنقبة نبيلة ؛ لقرنهم باسمه واسم ملائكته ، والمراد بأولى العلم هنا : علماء الكتاب والسنة وما يتوصل به إلى معرفتهما ؛ إذ لا اعتداد بعلم لا مدخل له فى العلم الذى اشتمل عليه الكتاب العزيز والسنة المطهرة .

وقوله: ﴿ **قائما بالقسط** ﴾ أى العدل ، أى قائما بالعدل ، فى جميع أموره أو مقيمًا له ، وانتصاب ﴿ **قائما** ﴾ على الحال من الاسم الشريف . قال فى الكشاف : إنها حال مؤكدة كقوله: ﴿ وهو الحق مصدقا ﴾ [البقرة : ٩١] وجاز إفراده سبحانه بذلك دون ما هو معطوف عليه من الملائكة وأولى العلم لعدم اللبس . وقيل : إنه منصوب على المدح . وقيل : إنه صفة

---

(١) حديث أبى هريرة عند البخارى فى التهجد (١١٤٥) ومسلم فى صلاة المسافرين (١٦٨/٧٥٨) والترمذى فى الدعوات (٣٤٩٨) وقال: «حسن صحيح » وابن ماجة فى إقامة الصلاة والسنة فيها (١٣٦٦).

لقوله : ﴿ **إله** ﴾ أى لا إله قائما بالقسط إلا هو ، أو هو حال من قوله : ﴿**إلا هو**﴾ والعامل فيه معنى الجملة . وقال الفراء : هو منصوب على القطع؛ لأن أصله الألف واللام فلما قطعت نصب كقوله : ﴿ وله الدين واصبا ﴾ [النحل : ٥٢] ويدل عليه قراءة عبد الله بن مسعود : «القائم بالقسط ». وقوله : ﴿ **لا إله إلا هو** ﴾ تكرير لقصد التأكيد . وقيل :إن قوله : ﴿ **أنه لا إله إلا هو** ﴾ كالدعوى ، والأخيرة كالحكم . وقال جعفر الصادق : الأولى وصف وتوحيد، والثانية رسم وتعليم، وقوله : ﴿ **العزيز الحكيم** ﴾ مرتفعان على البدلية من الضمير ، أو الوصفية لفاعل شهد لتقرير معنى الوحدانية .

قوله: ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ قرأه الجمهور بكسر إن على أن الجملة مستأنفة مؤكدة للجملة الأولى ، وقرئ بفتح أن. قال الكسائى: أنصبهما جميعا يعنى قوله: ﴿**شهد الله أنه**﴾ وقوله : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ بمعنى شهد الله أنه كذا وأن الدين عند الله الإسلام . قال ابن كيسان : إن الثانية بدل من الأولى . وقد ذهب الجمهور إلى أن الإسلام هنا بمعنى الإيمان ، وإن كانا فى الأصل متغايرين كما فى حديث جبريل الذى بين فيه النبى ﷺ معنى الإسلام ، ومعنى الإيمان ، وصدقه جبريل ، وهو فى الصحيحين وغيرهما [1] ، ولكنه قد يسمى كل واحد منهما باسم الآخر وقد ورد ذلك فى الكتاب والسنة . قوله : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم** ﴾ فيه الإخبار بأن اختلاف اليهود والنصارى كان لمجرد البغى بعد أن علموا بأنه يجب عليهم الدخول فى دين الإسلام بما تضمنته كتبهم المنزلة إليهم . قال الأخفش : وفى الكلام تقديم وتأخير ، والمعنى : ما اختلف الذين أوتوا الكتاب بغيًا بينهم إلا من بعد ما جاءهم العلم . والمراد بهذا الخلاف الواقع بينهم ، هو خلافهم فى كون نبينا ﷺ نبيا أم لا ؟ وقيل : اختلافهم فى نبوة عيسى . وقيل : اختلافهم فى ذات بينهم حتى قالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى : ليست اليهود على شىء . قوله: ﴿**ومن يكفر بآيات الله** ﴾ أى بالآيات الدالة على أن الدين عند الله الإسلام ﴿ **فإن الله سريع الحساب** ﴾ فيجازيه ويعاقبه على كفره بآياته ، والإظهار فى قوله : ﴿ **فإن الله** ﴾ مع كونه مقام الإضمار ؛ للتهويل عليهم والتهديد لهم .

قوله : ﴿ **فإن حاجوك** ﴾ أى جادلوك بالشبه الباطلة والأقوال المحرفة ، ﴿ **فقل أسلمت وجهى لله** ﴾ أى أخلصت ذاتى لله، وعبر بالوجه عن سائر الذات لكونه أشرف أعضاء الإنسان وأجمعها للحواس .وقيل : الوجه هنا بمعنى القصد . وقوله : ﴿ **ومن اتبعن** ﴾ عطف على فاعل أسلمت وجاز للفصل . وأثبت نافع وأبو عمرو ويعقوب الياء فى : ﴿ **اتبعن** ﴾ على الأصل ، وحذفها الآخرون اتباعًا لرسم المصحف ، ويجوز أن تكون « الواو » بمعنى « مع » والمراد بالأميين هنا : مشركو العرب . وقوله: ﴿ **أأسلمتم**﴾ استفهام تقريرى يتضمن الأمر ،

(١) البخارى فى الإيمان (٥٠) عن أبى هريرة ومسلم فى الإيمان (٨/ ١) وأبو داود فى السنة (٤٦٩٥) والترمذى فى الإيمان (٢٦١٠) وقال : «حسن صحيح » والنسائى فى الإيمان ٨/ ١٠١ .

أى أسلموا ، كذا قاله ابن جرير وغيره . وقال الزجاج : ﴿**أأسلمتم**﴾ تهديد ، والمعنى : أنه قد أتاكم من البراهين ما يوجب الإسلام فهل علمتم بموجب ذلك أم لا ؟ تبكيتًا لهم وتصغيرًا لشأنهم فى الإنصاف وقبول الحق. وقوله: ﴿**فقد اهتدوا**﴾ أى ظفروا بالهداية التى هى الحظ الأكبر، وفازوا بخير الدنيا والآخرة ﴿**وإن تولوا**﴾ أى أعرضوا عن قبول الحجة ولم يعملوا بموجبها. ﴿**فإنما عليك البلاغ**﴾ أى فإنما عليك أن تبلغهم ما أنزل إليك ، ولست عليهم بمصيطر ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، والبلاغ مصدر. وقوله: ﴿**والله بصير بالعباد**﴾ فيه وعد ووعيد لتضمنه أنه عالم بجميع أحوالهم .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **قائما بالقسط** ﴾ قال : بالعدل . وأخرج أيضا عن ابن عباس مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله: ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ قال : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وهو دين الله الذى شرع لنفسه وبعث به رسله ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك قال : لم يبعث الله رسولا إلا بالإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : كان حول البيت ستون وثلاثمائة صنم ، لكل قبيلة من قبائل العرب صنم أو صنمان ، فأنزل الله : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو . . .** ﴾ الآية ، فأصبحت الأصنام كلها قد خرت سجدًا للكعبة . وأخرج ابن السنى فى عمل اليوم والليلة، وأبو منصور الشحامى فى الأربعين عن على قال : قال رسول الله ﷺ : « إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسى ، والآيتين من آل عمران : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم. إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ ﴿ **قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء** ﴾ إلى قوله : ﴿**بغير حساب** ﴾ [آل عمران : ٢٦ ، ٢٧] هى معلقات بالعرش ما بينهن وبين الله حجاب ، يقلن : يا رب تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك ؟ قال الله: إنى حلفت لا يقرؤكن أحد من عبادى دبر كل صلاة إلا جعلت الجنة مأواه على ما كان منه ، وإلا أسكنته حظيرة القدس ، وإلا نظرت إليه بعينى المكنونة كل يوم سبعين نظرة ، وإلا قضيت له كل يوم سبعين حاجة أدناها المغفرة ، وإلا أعذته من كل عدو ونصرته منه». وأخرج الديلمى فى مسند الفردوس عن أبى أيوب الأنصارى مرفوعًا نحوه ، وفيه :« لا يتلوهن عبد دبر كل صلاة مكتوبة إلا غفرت له ما كان منه ، وأسكنته جنة الفردوس ، ونظرت إليه كل يوم سبعين مرة ، وقضيت له سبعين حاجة أدناها المغفرة » .

وأخرج أحمد وابن أبى حاتم والطبرانى وابن السنى عن الزبير بن العوام قال : سمعت رسول الله ﷺ ، وهو بعرفة يقرأ هذه الآية : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم** ﴾ فقال: «وأنا على ذلك من الشاهدين » ولفظ

(١) ابن جرير ٣/ ٤١ ، ٤٢ .

الطبرانى : « وأنا أشهد أن لا إله إلا أنت العزيز الحكيم»[١] . وأخرج ابن عدى ، والطبرانى فى الأوسط ، والبيهقى فى شعب الإيمان وضعفه ، والخطيب فى تاريخه ، وابن النجار عن غالب القطان ؛ قال : أتيت الكوفة فى تجارة فنزلت قريبًا من الأعمش ، فلما كان ليلة أردت أن أنحدر قام فتهجد من الليل فمر بهذه الآية : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ إلى قوله : ﴿ **إن الدين عند الله الإسلام** ﴾ فقال: وأنا أشهد بما شهد به الله ، وأستودع الله هذه الشهادة، وهى لى وديعة عند الله ، قالها مرارا ، فقلت : لقد سمع فيها شيئاً فسألته ، فقال : حدثنى أبو وائل عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ : «يجاء بصاحبها يوم القيامة فيقول الله : عبدى عهد إلىَّ ، وأنا أحق من وفَّى بالعهد أدخلوا عبدى الجنة »[٢].

وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **وما اختلف الذين أوتوا الكتاب** ﴾ قال: بنو إسرائيل. وأخرج ابن جرير عن أبى العالية فى قوله : ﴿ **بغيا بينهم** ﴾ يقول : بغيًا على الدنيا وطلب ملكها وسلطانها ، فقتل بعضهم بعضا على الدنيا من بعد ما كانوا علماء الناس .

وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **فإن حاجوك** ﴾ قال : إن حاجك اليهود والنصارى . وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **وقل للذين أوتوا الكتاب** ﴾ قال: اليهود والنصارى ﴿ **والأميين** ﴾ قال: هم الذين لا يكتبون .

﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٢٢) أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ (٢٣) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَّ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (٢٥)** ﴾ .

قوله : ﴿**بآيات الله**﴾ ظاهره عدم الفرق بين آية وآية ﴿ **ويقتلون النبيين بغير حق** ﴾ يعنى:

---

(١) أحمد ١/١٦٦ والطبرانى (٢٥٠) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/٣٢٨: « فى أسانيدهما مجاهيل » .

(٢) ابن عدى فى الكامل ٥/٣٦ وقال :« إسناده فيه نظر » وقال غالب القطان :« فيه عمر بن المختار البصرى وهو متهم بالوضع » ميزان الاعتدال ٣/٢٢٣ والهيثمى فى المجمع ٦/٣٢٨ ، ٣٢٩ وقال : « رواه الطبرانى وفيه عمر بن المختار وهو ضعيف » والبيهقى فى الشعب وضعفه (٢١٩٠) وقال :« عمار بن المختار عن أبيه ـ عمر ـ ضعيفان وهذا لم يأت به غيرهما والله أعلم » . وقال الذهبى : «فيه كلام » وقال ابن عدى : « روى الأباطيل » والخطيب فى تاريخه ٧/١٩٣ .

اليهود قتلوا الأنبياء ﴿**ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس**﴾ أى بالعدل . وهم الذين يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . قال المبرد : كان ناس من بنى إسرائيل جاءهم النبيون فدعوهم إلى الله فقتلوهم ، فقام أناس من بعدهم من المؤمنين فأمروهم بالإسلام فقتلوهم . ففيهم نزلت الآية. وقوله : ﴿ **فبشرهم بعذاب أليم** ﴾ [1] خبر . ﴿ **إن الذين يكفرون**﴾ إلخ ، ودخلته الفاء لتضمن الموصول معنى الشرط ؛ وذهب بعض أهل النحو إلى أن الخبر قوله : ﴿**أولئك الذين حبطت أعمالهم** ﴾ وقالوا: إن الفاء لا تدخل فى خبر « إن » وإن تضمن اسمها معنى الشرط ؛ لأنه قد نسخ بدخول « إن » عليه ، ومنهم سيبويه والأخفش ، وذهب غيرهما إلى أن ما يتضمنه المبتدأ من معنى الشرط لا ينسخ بدخول « إن » عليه ، ومثل المكسورة المفتوحة، ومنه قوله تعالى: ﴿ واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه﴾ [الأنفال: ٤١] .

وقوله : ﴿ **حبطت أعمالهم** ﴾ قد تقدم تفسير الإحباط ، ومعنى كونها حبطت فى الدنيا والآخرة : أنه لم يبق لحسناتهم أثر فى الدنيا ، حتى يعاملوا فيها معاملة أهل الحسنات ، بل عوملوا معاملة أهل السيئات فلعنوا ، وحل بهم الخزى والصغار ، ولهم فى الآخرة عذاب النار .

قوله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب** ﴾ فيه تعجب لرسول الله ﷺ ، ولكل من تصح منه الرؤية من حال هؤلاء ، وهم أحبار اليهود . والكتاب : التوراة . وتنكير النصيب للتعظيم ، أى نصيبًا عظيمًا كما يفيده مقام المبالغة ، ومن قال : إن التنكير للتحقير ؛ لم يصب، فلم ينتفعوا بذلك ، وذلك بأنهم يدعون إلى كتاب الله الذى أوتوا نصيبًا منه وهو التوراة ﴿**ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم** ﴾ والحال أنهم معرضون عن الإجابة إلى ما دعوا إليه مع علمهم به ، واعترافهم بوجوب الإجابة إليه ، و ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما مر من التولى والإعراض ، بسبب ﴿ **أنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات** ﴾ وهى مقدار عبادتهم العجل. وقد تقدم تفسير ذلك ﴿ **وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون** ﴾ من الأكاذيب التى من جملتها هذا القول .

قوله : ﴿ **فكيف إذا جمعناهم ليوم لاريب فيه** ﴾ هو ردّ عليهم وإبطال لما غرهم من الأكاذيب ، أى فكيف يكون حالهم إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه وهو يوم الجزاء الذى لا يرتاب مرتاب فى وقوعه ؟ فإنهم يقعون لا محالة ، ويعجزون عن دفعه بالحيل والأكاذيب . ﴿ **ووفيت كل نفس ماكسبت** ﴾ أى جزاء ما كسبت على حذف المضاف ﴿ **وهم لا يظلمون** ﴾ بزيادة ولا نقص . والمراد كل الناس المدلول عليهم بكل نفس . قال الكسائى : اللام فى قوله : ﴿ **ليوم** ﴾ بمعنى «فى » ، وقال البصريون : المعنى : لحساب يوم . وقال ابن جرير الطبرى : المعنى : لما يحدث فى يوم .

---

(١) البشارة تكون فى الخير ، قال تعالى : ﴿ وبشر المخبتين ﴾ [الحج : ٣٩] ، وقال تعالى : ﴿ يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ﴾ [التوبة : ٢١] وتكون فى العقوبة والعذاب ، قال تعالى : ﴿ فبشرهم بعذاب أليم﴾ [آل عمران : ٢١] .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى عبيدة بن الجراح : قلت : يارسول الله ، أى الناس أشد عذابًا يوم القيامة؟ قال: « رجل قتل نبيًا ، أو رجلا أمر بالمعروف ونهى عن المنكر » ، ثم قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **الذين يقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما لهم من ناصرين** ﴾ ثم قال رسول الله ﷺ : « يا أبا عبيدة ، قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة رجل ، وسبعون رجلا ، من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعاً من آخر النهار من ذلك اليوم ، فهم الذين ذكر الله»[١]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : بعث عيسى يحيى بن زكريا فى اثنى عشر رجلا من الحواريين يعلمون الناس، فكان ينهى عن نكاح بنت الأخ ، وكان ملك له بنت أخ تعجبه فأرادها وجعل يقضى لها كل يوم حاجة ، فقالت لها أمها : إذا سألك عن حاجة فقولى : حاجتى أن تقتل يحيى بن زكريا ، فقال: سلى غير هذا ، فقالت : لا أسألك غير هذا فلما أبت أمر به فذبح فى طست ، فبدرت قطرة من دمه فلم تزل تغلى حتى بعث الله بختنصر ، فدلت عجوز عليه فألقى فى نفسه أن لا يزال يقتل حتى يسكن هذا الدم ، فقتل فى يوم واحد من ضرب واحد ، وسن واحد سبعين ألفًا فسكن [٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن معقل بن أبى مسكين فى الآية ؛ قال : كان الوحى يأتى بنى إسرائيل فيذكرون قومهم، ولم يكن يأتيهم كتاب ، فيقوم رجال ممن اتبعهم وصدقهم فيذكرون قومهم ، فيقتلون، فهم **الذين يأمرون بالقسط** من الناس [٣] . وأخرج ابن جرير عن قتادة نحوه [٤] . وأخرج ابن عساكر عن ابن عباس قال : ﴿ **الذين يأمرون بالقسط من الناس** ﴾ ولاة العدل .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : دخل رسول الله ﷺ بيت المدراس على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له النعمان بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يامحمد ؟ قال : « على ملة إبراهيم ودينه » ، قال : فإن إبراهيم كان يهوديًا، قال لهما النبى ﷺ : «فهلما إلى التوراة ، فهى بيننا وبينكم» ، فأبيا عليه، فأنزل الله : ﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله** . . .﴾ الآية [٥] . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى مالك فى قوله: ﴿ **نصيبا** ﴾ قال: حظا ﴿ **من الكتاب** ﴾ قال : التوراة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد فى قوله : ﴿ **قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات** ﴾ قال : يعنون الأيام التى خلق الله فيها آدم . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن قتادة فى

---

(١) ابن جرير ٣/ ١٤٤ ، ١٤٥ .

(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٢ على شرط الشيخين . وفى الحديث قال : « رجلا » وفى الحاكم قال : « ألفا » بدلا من: «رجلا » وعطف يحيى على عيسى . وفى الطبرى من رواية عبيدة ٣/ ١٤٥ : « قال : واثنا عشر رجلا » بدلا من « ألفا » التى هى فى الحاكم خطأ . ووافقه الذهبى فى كل .

(٣، ٤) ابن جرير ٣/ ١٤٤ .

(٥) ابن إسحاق ٢/ ١٩٤ وابن جرير ٣/ ١٤٥ .

قوله: ﴿ **وغرهم فى دينهم ماكانوا يفترون** ﴾ حين قالوا: ﴿ نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾ [المائدة: ١٨]. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ **ووفيت كل نفس** ﴾ يعنى: توفى كل نفس برّ أو فاجر ﴿**ما كسبت**﴾ ما عملت من خير أو شر ﴿**وهم لا يظلمون**﴾ يعنى: من أعمالهم.

﴿ **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ(٢٧)** ﴾ .

قوله : ﴿ **قل اللهم** ﴾ . قال الخليل وسيبويه وجميع البصريين : إن أصل اللهم : يا ألله، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذى هو« يا » جعلوا بدله هذه الميم المشددة ، فجاؤوا بحرفين ، وهما الميمان عوضًا من حرفين ، وهما الياء والألف، والضمة فى الهاء هى ضمة الاسم المنادى المفرد، وذهب الفراء والكوفيون إلى أن الأصل فى اللهم : يا ألله أمنا بخير، فحذف وخلط الكلمتان ، والضمة التى فى الهاء هى الضمة التى كانت فى أمنا لما حذفت الهمزة انتقلت الحركة . قال النحاس : هذا عند البصريين من الخطأ العظيم ، والقول فى هذا ما قاله الخليل وسيبويه . قال الكوفيون : وقد يدخل حرف النداء على اللهم ، وأنشدوا فى ذلك قول الراجز :

غفرت أو عذبت يا اللهما

وقول الآخر :

وَمَا عَلَيْكِ أنْ تَقُولِي كُلَّمَا سَبَّحتِ أوْهللتَ يَا اللَّهُما

وقول الآخر :

إنى إذَا مَا حَدَث ألَمَّا أقَولُ يَا اللَّهُمَّا يَا اللَّهُما

قالوا : ولو كان الميم عوضًا من حرف النداء لما اجتمعتا . قال الزجاج : وهذا شاذ لا يعرف قائله . قال النضر بن شميل : من قال : اللهم فقد دعا الله بجميع أسمائه . قوله : ﴿**مالك الملك** ﴾ أى مالك جنس الملك على الإطلاق ، ومالك منصوب عند سيبويه على أنه نداء ثان ، أى يا مالك الملك ، ولا يجوز عنده أن يكون وصفًا لقوله : ﴿ **اللهم** ﴾ لأن الميم عندة تمنع الوصفية . وقال محمد بن يزيد المبرد وإبراهيم بن السرى الزجاج :إنه صفة لاسم الله تعالى ، وكذلك قوله تعالى: ﴿ قل اللهم فاطر السموات والأرض ﴾ [الزمر : ٤٦] قال أبو على الفارسى : وهو مذهب المبرد ، وما قاله سيبويه أصوب وأبين ، وذلك لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت ، والأصوات لا توصف ، نحو غاق ، وما أشبهه . قال الزجاج : والمعنى : مالك العباد وما ملكوا. وقيل : المعنى : مالك الدنيا والآخرة . وقيل :الملك هنا النبوة .

وقيل : الغلبة . وقيل : المال والعبيد، والظاهر : شموله لما يصدق عليه اسم الملك من غير تخصيص : ﴿ **تؤتى الملك من تشاء** ﴾ أى من تشاء إيتاءه إياه ﴿ **وتنزع الملك ممن تشاء** ﴾ نزعه منه . والمراد بما يؤتيه من الملك وينزعه هو نوع من أنواع ذلك الملك العام .

قوله : ﴿ **وتعز من تشاء** ﴾ أى فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما ، يقال : عزّ : إذا غلب، ومنه: ﴿ وعزنى فى الخطاب﴾ [ص: ٢٣] . وقوله : ﴿ **وتذل من تشاء** ﴾ أى فى الدنيا أو فى الآخرة أو فيهما . يقال : ذل يذلّ ذلا : إذا غلب وقهر . قوله : ﴿ **بيدك الخير** ﴾ تقديم الخبر للتخصيص ، أى بيدك الخير لا بيد غيرك ، وذكر الخير دون الشر؛ لأن الخير بفضل محض بخلاف الشر فإنه يكون جزاء لعمل وصل إليه . وقيل : لأن كل شر من حيث كونه من قضائه سبحانه هو متضمن للخير فأفعاله كلها خير . وقيل : إنه حذف كما حذف فى قوله : ﴿ سرابيل تقيكم الحر ﴾ [النحل : ٨١] وأصله: بيدك الخير والشر . وقيل : خص الخير؛ لأن المقام مقام دعاء . وقوله :﴿ **إنك على كل شىء قدير** ﴾ تعليل لما سبق وتحقيق له.

قوله : ﴿ **تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل** ﴾ أى تدخل ما نقص من أحدهما فى الآخر . وقيل : المعنى : تعاقب بينهما ويكون زوال أحدهما ولوجًا فى الآخر . قوله : ﴿**وتخرج الحى من الميت وتخرج الميت من الحى**﴾ قيل : المراد: إخراج الحيوان وهو حى من النطفة وهى ميتة ، وإخراج النطفة وهى ميتة من الحيوان وهو حى. وقيل : المراد : إخراج الطائر وهو حى من البيضة وهى ميتة ، وإخراج البيضة وهى ميتة من الدجاجة وهى حية . وقيل : المراد : إخراج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن . قوله : ﴿ **بغير حساب** ﴾ أى بغير تضييق ولا تقتير،كما تقول: فلان يعطى بغير حساب ، والباء متعلقة بمحذوف وقع حالا.

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن نبى الله ﷺ سأل ربه أن يجعل ملك فارس والروم فى أمته ، فنزلت الآية [١] . وأخرج الطبرانى وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: اسم الله الأعظم: ﴿ **قل اللهم مالك الملك** ﴾ إلى قوله : ﴿**بغير حساب** ﴾ [٢] . وأخرج ابن أبى الدنيا والطبرانى عن معاذ ؛ أنه شكا إلى النبى ﷺ دينًا عليه، فعلمه أن يتلو هذه الآية ، ثم يقول : « رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما ، تعطى من تشاء منهما وتمنع من تشاء ، ارحمنى رحمة تغنينى بها عن رحمة من سواك ، اللهم اغننى من الفقر واقض عنى الدين »[٣]. وأخرج الطبرانى فى الصغير من حديث أنس قال:قال رسول الله

(١) ابن جرير ٣/١٤٨ .

(٢) الطبرانى : (١٢٧٩٢) ومحمد بن زكريا الغلابى وجسر بن فرقد ضعيفان وجعفر فيه كلام وخاصة إذا روى عن أبيه ، ثم هو مخالف لما فى الصحيحين ، ولذا حكم عليه شيخنا بالوضع . وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٥٩: « فيه جسر بن فرقد وهو ضعيف ».

(٣) الطبرانى ٢٠/١٥٤ ، ١٥٥ (٣٢٣) وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/١٨٩ : « فيه نصر بن مرزوق ولم أعرفه وبقية رجاله ثقات إلا أن سعيد بن المسيب لم يسمع من معاذ » قلت : نصربن مرزوق هذا أورده ابن أبى حاتم فى الجرح والتعديل ٤/١/٤٧٢ وقال :«كتبنا عنه وكان صدوقا ». وقال :« إنه يروى عن وهب الله بن راشد فالعلة الانقطاع بين سعيد ومعاذ » .

ﷺ لمعاذ :« ألا أعلمك دعاء تدعو به لو كان عليك مثل جبل أحد دينا لأداه الله عنك » فذكره، وإسناده جيد[١] ، وقد تقدم عند تفسير قوله تعالى : ﴿ **شهد الله أنه لا إله إلا هو** ﴾ [آل عمران : ١٨] بعض فضائل هذه الآية. وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿**تؤتى الملك من تشاء** ﴾ قال : النبوة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **تولج الليل فى النهار** . . .﴾ الآية . قال : تأخذ الصيف من الشتاء وتأخذ الشتاء من الصيف ﴿ **وتخرج الحى من الميت** ﴾ تخرج الرجل الحى من النطفة الميتة ﴿ **وتخرج الميت من الحى** ﴾ تخرج النطفة الميتة من الرجل الحى . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس: ﴿ **تولج الليل فى النهار** ﴾ قال : ما نقص من النهار تجعله فى الليل ، وما نقص من الليل تجعله فى النهار. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك نحوه أيضا .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس : ﴿ **تخرج الحى من الميت** ﴾ قال : تخرج النطفة الميتة من الحى ، ثم تخرج من النطفة بشرا حيا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة : ﴿ **تخرج الحى من الميت** ﴾ قال : هى البيضة تخرج من الحى وهى ميتة ، ثم يخرج منها الحى . وأخرج ابن جرير عنه قال : النخلة من النواة ، والنواة من النخلة ، والحبة من السنبلة ، والسنبلة من الحبة . وأخرج ابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن أبى مالك مثله . وأخرج ابن جرير وأبو الشيخ عن الحسن قال : المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ، والمؤمن عبد حى الفؤاد ، والكافر عبد ميت الفؤاد . وأخرج سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى عن سلمان الفارسى نحوه . وأخرج ابن مردويه عنه مرفوعا نحوه . وأخرجه أيضا عنه ، أو عن ابن مسعود مرفوعاً . وأخرج عبد الرزاق وابن سعد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبيد الله بن عبد الله ؛ أن خالدة بنت الأسود بن عبد يغوث دخلت على النبى ﷺ فقال : « من هذه ؟ » قيل : خالدة بنت الأسود ، قال : « سبحان الذى يخرج الحى من الميت » وكانت امرأة صالحة وكان أبوها كافرا . وأخرج ابن سعد عن عائشة مثله [٢] .

﴿ **لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِن تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ**

(١) الطبرانى فى الصغير ١/ ٢٠٢ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠/ ١٨٩ : « رجاله ثقات » .

(٢) ابن سعد ٨/ ٢٤٨ وابن جرير ٣/ ١٥١ ، وعزاه ابن حجر فى الإصابة ٤/ ٢٨٠ إلى عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى مرسلا وقال : «هذا أصح طرقه » وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٢٦٧ : «رواه الطبرانى بإسناد جيد » .

قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠) ﴾ .

قوله : ﴿ **لا يتخذ** ﴾ فيه النهى للمؤمنين عن موالاة الكفار لسبب من الأسباب ، ومثله قوله تعالى : ﴿لاتتخذوا بطانة من دونكم . . .﴾ الآية [آل عمران: ١١٨]، وقوله: ﴿ ومن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾ [المائدة : ٥١]، و قوله: ﴿لا تجد قوما يؤمنون بالله. . .﴾ الآية [المجادلة : ٢٢] ، وقوله : ﴿ لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء﴾ [المائدة: ٥١] ، وقوله : ﴿يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء ﴾ [الممتحنة : ١] ، وقوله: ﴿ **من دون المؤمنين** ﴾ فى محل الحال ، أى متجاوزين المؤمنين إلى الكافرين استقلالا أو اشتراكا ، والإشارة بقوله : ﴿ **ومن يفعل ذلك**﴾ إلى الاتخاذ المدلول عليه بقوله: ﴿ **لا يتخذ** ﴾ ومعنى قوله: ﴿ **فليس من الله فى شيء** ﴾: أى من ولايته فى شيء من الأشياء؛ بل هو منسلخ عنه بكل حال. قوله : ﴿**إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾ على صيغة الخطاب بطريق الالتفات ، أى إلا أن تخافوا منهم أمرًا يجب اتقاؤه وهو استثناء مفرغ من أعم الأحوال . و ﴿**تقاة**﴾ مصدر واقع موقع المفعول ، وأصلها : وقية على وزن فعلة ، قلبت الواو تاء والياء ألفا ، وقرأ رجاء وقتادة : «تقية» . وفى ذلك دليل على جواز الموالاة لهم مع الخوف منهم ، ولكنها تكون ظاهرًا لا باطنًا ، وخالف فى ذلك قوم من السلف ، فقالوا : لا تقية بعد أن أعز الله الإسلام . قوله : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ أى ذاته المقدسة ، وإطلاق ذلك عليه سبحانه جائز فى المشاكلة كقوله :﴿ تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك﴾ [المائدة :١١٦] فمعناه :تعلم ما عندى وما فى حقيقتى ، ولا أعلم ما عندك ، ولا ما فى حقيقتك . وقال بعض أهل العلم، معناه :ويحذركم الله عقابه مثل : ﴿واسأل القرية ﴾ [يوسف : ٨٢] فجعلت النفس فى موضع الإضمار ، وفى هذه الآية تهديد شديد وتخويف عظيم لعباده أن يتعرضوا لعقابه بموالاة أعدائه .

قوله : ﴿ **قل إن تخفوا ما فى صدوركم . . .** ﴾ الآية : فيه أن كل ما يضمره العبد ، ويخفيه أو يظهره ويبديه ، فهو معلوم لله سبحانه لا يخفى عليه منه شيء ولا يعزب عنه مثقال ذرة ﴿ **ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض**﴾ مما هو أعم من الأمور التى يخفونها أو يبدونها، فلا يخفى عليه ما هو أخص من ذلك .

قوله : ﴿ **يوم تجد** ﴾ منصوب بقوله : ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ وقيل : بمحذوف ، أى اذكر ، و﴿**محضرا**﴾ حال. وقوله : ﴿ **وما عملت من سوء** ﴾ معطوف على « ما » الأولى ، أى وتجد ما عملت من سوء محضرًا تود لو أن بينها وبينه أمدًا بعيدا، فحذف محضرا لدلالة الأول عليه، وهذا إذا كان ﴿ **تجد** ﴾ من وجدان الضالة، وأما إذا كان من وجد بمعنى علم، كان محضرا هو المفعول الثانى،ويجوز أن يكون قوله:﴿ **وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه**

obeikandl.com

أمداً بعيداً﴾ جملة مستأنفة ، ويكون « ما » فى : ﴿ **ما عملت** ﴾ مبتدأ ويود :خبره . والأمد: الغاية ، وجمعه : آماد ، أى تودّ لو أن بينها وبين ما عملت من السوء أمدًا بعيدًا . وقيل : إن قوله : ﴿ **يوم تجد**﴾ منصوب بقوله : ﴿ **تود** ﴾ . والضمير فى قوله : ﴿ **وبينه** ﴾ لليوم ، وفيه بُعْد ، وكرر قوله: ﴿ **ويحذركم الله نفسه** ﴾ للتأكيد وللاستحضار ؛ ليكون هذا التهديد العظيم على ذكر منهم ، وفى قوله: ﴿ **والله رؤوف بالعباد** ﴾ دليل على أن هذا التحذير الشديد مقترن بالرأفة منه سبحانه بعباده لطفًا بهم . وما أحسن ما يحكى عن بعض العرب أنه قيل له : إنك تموت وتبعث وترجع إلى الله ، فقال : أتهددوننى بما لم أر الخير قط إلا منه.

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس؛ قال : كان الحجاج بن عمرو حليف كعب بن الأشرف وابن أبى الحقيق ، وقيس بن زيد ، قد بطنوا [١] بنفر من الأنصار ليفتنوهم عن دينهم ، فقال رفاعة بن المنذر وعبدالله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر : اجتنبوا هؤلاء النفر من يهود ، واحذروا مباطنتهم لا يفتنوكم عن دينكم ، فأبى أولئك النفر ، فأنزل الله فيهم : ﴿ **لا يتخذ المؤمنون الكافرين** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والله على كل شىء قدير** ﴾ [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طرق عنه قال : نهى الله المؤمنين أن يلاطفوا الكفار ويتخذوهم وليجة من دون المؤمنين ، إلا أن يكون الكفار عليهم ظاهرين فيظهرون لهم اللطف، ويخالفونهم فى الدين، وذلك قوله تعالى: ﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة**﴾[٣]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى : ﴿ **ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء** ﴾ فقد برئ الله منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة**﴾ قال : التقية باللسان من حمل على أمر يتكلم به وهو معصية لله فيتكلم به مخافة الناس وقلبه مطمئن بالإيمان فإن ذلك لا يضره ، إنما التقية باللسان .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عنه فى الآية قال : التقاة التكلم باللسان ، والقلب مطمئن بالإيمان ، ولا يبسط يده فيقتل ، ولا إلى إثم فإنه لا عذر له . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى الآية قال : التقية باللسان ، وليس بالعمل . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة ﴿ **إلا أن تتقوا منهم تقاة** ﴾ قال : إلا أن يكون بينك وبينه قرابة فتصله لذلك. وأخرج عبد بن حميد والبخارى عن الحسن قال : التقية جائزة إلى يوم القيامة . وحكى البخارى عن أبى الدرداء أنه قال : إنا نبش فى وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم [٤] ، ويدل على جواز التقية قوله

---

(١) بطنوا : يقال : بطن فلان بفلان يبطن بطوناً وبطانة : إذا كان خاصًا به ذا علم بداخلة أمره ، مؤانسا له مطلعًا على سره ومنه المباطنة . اللسان ١٣/ ٥٥ .

(٢ ، ٣) ابن إسحاق ٢/ ١٩٩ وابن جرير ٣/ ١٥٢ .

(٤) البخارى فى الأدب ١٠/ ٥٢٧ .

تعالى : ﴿ إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان ولكن من شرح بالكفر صدرا فعليهم غضب من الله ولهم عذاب عظيم ﴾ [النحل : ١٠٦] ، ومن القائلين بجواز التقية باللسان أبو الشعثاء والضحاك والربيع بن أنس .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **قل إن تخفوا** . . .﴾ الآية. قال: أخبرهم أنه يعلم ما أسروا وما أعلنوا. وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿**محضرا**﴾ يقول: موفرا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: يسر أحدكم ألا يلقى عمله ذلك أبدا يكون ذلك مناه، وأما فى الدنيا فقد كانت خطيئته يستلذها. وأخرجا أيضاً عن السدى: ﴿**أمدا بعيدا**﴾ قال: مكانا بعيداً. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج ﴿**أمدا**﴾ قال: أجلا. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: ﴿**ويحذركم الله نفسه والله رؤوف بالعباد** ﴾ قال : من رأفته بهم حذرهم نفسه .

﴿ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢) إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤)** ﴾ .

الحب والمحبة : ميل النفس إلى الشىء ، يقال : أحبه فهو محب ، وحبه يحبه بالكسر فهو محبوب، قال الجوهرى : وهذا شاذ؛ لأنه لا يأتى فى المضاعف يفعل بالكسر . قال ابن الدهان: فى حبّ لغتان : حبّ وأحبّ ، وأصل حبّ فى هذا الباب حبب كطرق ، وقد فسرت المحبة لله سبحانه بإرادة طاعته . قال الأزهرى : محبة العبد لله ورسوله : طاعته لهما واتباعه أمرهما ، ومحبة الله للعباد : إنعامه عليهم بالغفران . وقرأ أبو رجاء العطاردى : «فاتبعونى » بفتح الباء . وروى عن أبى عمرو بن العلاء أنه أدغم الراء من « يغفر» فى اللام . قال النحاس : لا يجيز الخليل وسيبويه إدغام الراء فى اللام ، وأبو عمرو أجلّ من أن يغلط فى هذا ، ولعله كان يخفى الحركة كما يفعل فى أشياء كثيرة .

قوله : ﴿ **قل أطيعوا الله والرسول** ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى فى جميع الأوامر والنواهى . قوله : ﴿**فإن تولوا** ﴾ يحتمل أن يكون من تمام مقول القول فيكون مضارعاً حذفت فيه إحدى التاءين ، أى تتولوا ، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى فيكون ماضيًا . وقوله: ﴿ **فإن الله لا يحب الكافرين** ﴾ نفى المحبة ،كناية عن البغض والسخط . ووجه الإظهار فى قوله: ﴿**فإن الله** ﴾ مع كون المقام مقام إضمار ؛ لقصد التعظيم أو التعميم .

قوله : ﴿ **إن الله اصطفى آدم** ﴾ إلخ ، لما فرغ سبحانه من بيان أن الدين المرضى هو الإسلام ، وأن محمدًا ﷺ هو الرسول الذى لا يصح لأحد أن يحب الله إلا باتباعه ، وأن

اختلاف أهل الكتابين فيه إنما هو لمجرد البغى عليه والحسد له ـ شرع فى تقرير رسالة النبى ﷺ، وبين أنه من أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة . والاصطفاء : الاختيار . قال الزجاج : اختارهم بالنبوة على عالمى زمانهم . وقيل : إن الكلام على تقدير مضاف ، أى اصطفى دين آدم إلخ ، وقد تقدم الكلام على تفسير العالمين ، وتخصيص آدم بالذكر ؛ لأنه أبو البشر ، وكذلك نوح فإنه آدم الثانى ، وأما آل إبراهيم فلكون النبى ﷺ منهم مع كثرة الأنبياء منهم، وأما آل عمران وإن كانوا من آل إبراهيم ، فلما كان عيسى عليه السلام منهم كان لتخصيصهم بالذكر وجه . وقيل : المراد بآل إبراهيم : إبراهيم نفسه ، وبآل عمران : عمران نفسه . قوله: ﴿ **ذرية بعضها من بعض** ﴾ نصب ذرية على البدلية مما قبله ، قاله الزجاج ، أو على الحالية ، قاله الأخفش . وقد تقدم تفسير الذرية ، و﴿**بعضها من بعض** ﴾ فى محل نصب على صفة الذرية ومعناه : متناسلة متشعبة أو متناصرة متعاضدة فى الدين .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الحسن من طرق ؛ قال : قال أقوام على عهد رسول الله ﷺ : والله يا محمد إنا لنحب ربنا فأنزل الله : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله...** ﴾ الآية [(١)] . وأخرج الحكيم الترمذى عن يحيى بن أبى كثير نحوه . وأخرج أيضا ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج نحوه [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن محمد بن جعفر بن الزبير فى قوله: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله** ﴾ أى إن كان هذا من قولكم فى عيسى حبا لله وتعظيمًا له ﴿**فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** ﴾ أى ما مضى من كفركم ﴿**والله غفور رحيم**﴾. وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى الدرداء فى قوله : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله**﴾ قال : على البر والتقوى والتواضع وذلة النفس . وأخرجه أيضا الحكيم الترمذى وأبو نعيم والديلمى وابن عساكر عنه . أخرج ابن عساكر سئله عن عائشة . وأخرج ابن أبى حاتم ، وأبو نعيم فى الحلية، والحاكم عن عائشة؛ قالت: قال رسول الله ﷺ : «الشرك أخفى من دبيب النمل على الصفا فى الليلة الظلماء، وأدناه أن يحب على شىء من الجور ويبغض على شىء من العدل، وهل الدين إلا الحب والبغض فى الله ، قال الله تعالى: ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله...** ﴾ الآية»[(٣)].

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وآل إبراهيم وآل عمران** ﴾ قال : هم المؤمنون من آل إبراهيم وآل عمران وآل ياسين وآل محمد . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ذرية بعضها من بعض** ﴾ قال: فى النية والعمل والإخلاص والتوحيد .

﴿ **إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ**

(١، ٢) ابن جرير ٣/ ١٥٥ .

(٣) أورد ابن كثير رواية ابن أبى حاتم ٢/ ٢٩ وقال:«قال أبو زرعة: عبد الأعلى هذا منكر الحديث» وأبو نعيم فى الحلية ٩/ ٢٥٣، وصححه الحاكم ٢/ ٢٩١وقال الذهبى:«فيه عبد الأعلى» قال الدارقطنى: «ليس بثقة».

السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)﴾

قوله: ﴿ **إذ قالت** ﴾ قال أبو عمرو :« إذ » زائدة . وقال محمد بن يزيد : إنه متعلق بمحذوف تقديره : اذكر إذ قالت. وقال الزجاج : هو متعلق بقوله : ﴿ **اصطفى** ﴾ . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ **سميع عليم** ﴾ وامرأة عمران اسمها: حنة ـ بالحاء المهملة والنون ـ بنت فاقود ابن قبيل ، أم مريم ، فهى جدة عيسى ، وعمران هو ابن ماثان جد عيسى . قوله: ﴿ **رب إنى نذرت لك ما فى بطنى** ﴾ تقديم الجار والمجرور لكمال العناية ، وهذا النذر كان جائزًا فى شريعتهم .ومعنى ﴿**لك**﴾ : أى لعبادتك .﴿ **ومحررا**﴾ : منصوب على الحال ، أى عتيقًا خالصًا لله خادمًا للكنيسة. والمراد هنا : الحرية التى هى ضد العبودية . وقيل : المراد بالمحرر هنا : الخالص لله سبحانه الذى لا يشوبه شىء من أمر الدنيا . ورجح هذا بأنه لا خلاف أن عمران وامرأته حران.قوله:﴿ **فتقبل منى** ﴾ التقبل :أخذ الشىء على وجه الرضا ، أى تقبل منى نذرى بما فى بطنى .

قوله : ﴿ **فلما وضعتها** ﴾ التأنيث باعتبار ما علم من المقام أن الذى فى بطنها أنثى ، أو لكونه أنثى فى علم الله ، أو بتأويل ما فى بطنها بالنفس أو النسمة أو نحو ذلك. قوله : ﴿**قالت رب إنى وضعتها أنثى** ﴾ إنما قالت هذه المقالة؛ لأنه لم يكن يقبل فى النذر إلا الذكر دون الأنثى، فكأنها تحسرت وتحزنت لما فاتها من ذلك الذى كانت ترجوه وتقدره ، و﴿**أنثى**﴾ حال مؤكدة من الضمير أو بدل منه. قوله : ﴿ **والله أعلم بما وضعت** ﴾ قرأ أبو بكر وابن عامر بضم التاء ، فيكون من جملة كلامها ، ويكون متصلا بما قبله ، وفيه معنى التسليم لله والخضوع والتنزيه له أن يخفى عليه شىء . وقرأ الجمهور : ﴿**وضعت** ﴾ فيكون من كلام الله سبحانه على جهة التعظيم لما وضعته والتفخيم لشأنه والتجليل لها حيث وقع منها التحسر والتحزن ، مع أن هذه الأنثى التى وضعتها سيجعلها الله وابنها آية للعالمين، وعبرة للمعتبرين، ويختصها بما لم يختص به أحدًا . وقرأ ابن عباس : «بما وضعت » بكسر التاء على أنه خطاب من الله سبحانه لها ، أى إنك لا تعلمين قدر هذا الموهوب وما علم الله فيه من الأمور التى تتقاصر عنها الأفهام وتتضافر عندها العقول .

قوله :﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ أى وليس الذكر الذى طلبت كالأنثى التى وضعت ،

فإن غاية ما أرادت من كونه ذكرًا أن يكون نذرًا خادمًا للكنيسة وأمر هذه الأنثى عظيم وشأنها فخيم . وهذه الجملة اعتراضية مبينة لما فى الجملة الأولى من تعظيم الموضوع ورفع شأنه وعلو منزلته ، واللام فى الذكر والأنثى للعهد ، هذا على قراءة الجمهور وعلى قراءة ابن عباس ، وأما على قراءة أبى بكر وابن عامر فيكون قوله : ﴿ **وليس الذكر كالأنثى** ﴾ من جملة كلامها ومن تمام تحسرها وتحزنها ، أو ليس الذكر الذى أردت أن يكون خادمًا ويصلح للنذر كالأنثى التى لا تصلح لذلك، وكأنها أعذرت إلى ربها من وجودها لها على خلاف ما قصدت. قوله : ﴿ **وإنى سميتها مريم** ﴾ عطف على ﴿ **إنى وضعتها أنثى** ﴾ ومقصودها من هذا الإخبار بالتسمية التقرب إلى الله سبحانه وأن يكون فعلها مطابقًا لمعنى اسمها ، فإن معنى مريم : خادم الرب بلغتهم ، فهى وإن لم تكن صالحة لخدمة الكنيسة فذلك لا يمنع أن تكون من العابدات . قوله: ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ [1] عطف على قوله : ﴿ **إنى سميتها مريم** ﴾ والرجيم : المطرود ، وأصله المرمى بالحجارة، طلبت الإعاذة لها ولولدها من الشيطان وأعوانه.

قوله : ﴿ **فتقبلها ربها بقبول حسن** ﴾ أى رضى بها فى النذر ، وسلك بها مسلك السعداء. وقال قوم : معنى التقبل : التكفل والتربية والقيام بشأنها ، والقبول مصدر مؤكد للفعل السابق ، والباء زائدة ، والأصل تقبلا، وكذلك قوله : ﴿ **وأنبتها نباتا حسنا** ﴾ وأصله إنباتا فحذف الحرف الزائد . وقيل : هو مصدر لفعل محذوف ، أى فنبتت نباتا حسنا ، والمعنى : أنه سوى خلقها من غير زيادة ولا نقصان . قيل : إنها كانت تنبت فى اليوم ما ينبت المولود فى عام. وقيل : هو مجاز عن التربية الحسنة العائدة عليها بما يصلحها فى جميع أحوالها . قوله : ﴿**وكفلها زكريا**﴾ أى ضمها إليه . وقال أبو عبيدة : ضمن القيام بها ، وقرأ الكوفيون : ﴿**وكفلها**﴾ بالتشديد، أى جعله الله كافلا لها وملتزما بمصالحها ، وفى معناه ما فى مصحف أبىّ: « وأكفلها ». وقرأ الباقون بالتخفيف على إسناد الفعل إلى زكريا ، ومعناه ما تقدم من كونه ضمها إليه وضمن القيام بها . وروى عمرو بن موسى عن عبد الله بن كثير وأبى عبد الله المزنى: « وكفلها » بكسر الفاء . قال الأخفش : لم أسمع كفل . وقرأ مجاهد : «فتقبلْها » بإسكان اللام على المسألة والطلب ، ونصب : « ربَّها » على أنه منادى مضاف . وقرأ أيضا :« وأنبتْها » بإسكان التاء « وكفلها »بتشديد الفاء المكسورة وإسكان اللام ونصب « زكريا » مع المد ، وقرأ حفص وحمزة والكسائى : ﴿ **زكريا** ﴾ بغير مد ، ومده الباقون . وقال الفراء : أهل الحجاز يمدون ﴿**زكريا**﴾ ويقصرونه . قال الأخفش : فيه لغات : المد ، والقصر ، و « زكرىّ » بتشديد الياء وهو ممتنع على جميع التقادير للعجمة والتعريف مع ألف التأنيث.

---

(١) فى صحيح مسلم عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : «ما من مولود يولد إلا نخسه الشيطان فيستهل صارخًا من نخسة الشيطان إلا ابن مريم وأمه». ثم قال أبو هريرة: «اقرؤوا إن شئتم: ﴿ وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم ﴾». قال العلماء :«فأفاد هذا الحديث أن الله تعالى استجاب دعاء أم مريم ».

وقوله : ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب** ﴾ قدّم الظرف للاهتمام به ، وكلمة كل ظرف والزمان محذوف، « وما » مصدرية أو نكرة موصوفة ، والعامل فى ذلك قوله : ﴿ **وجد** ﴾ أى كل زمان دخوله عليها وجد عندها رزقًا ، أى نوعًا من أنواع الرزق . والمحراب فى اللغة : أكرم موضع فى المجلس ، قاله القرطبى (١) ، وهو منصوب على التوسع . قيل : إن زكريا جعل لها محرابًا لا يرتقى إليه إلا بسلم (٢) ، وكان يطلق عليها حتى كبرت ، وكان إذا دخل عليها وجد عندها فاكهة الشتاء فى الصيف وفاكهة الصيف فى الشتاء . فقال: ﴿ **يا مريم أنى لك هذا** ﴾ أى من أين يجيء لك هذا الرزق الذى لا يشبه أرزاق الدنيا ﴿ **قالت هو من عند الله** ﴾ فليس ذلك بعجيب ولا مستنكر. وجملة قوله : ﴿ **إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ تعليلية لما قبلها ، وهو من تمام كلامها، ومن قال: إنه من كلام زكريا، فتكون الجملة مستأنفة .

وقد أخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا** ﴾ قال : كانت نذرت أن تجعله فى الكنيسة يتعبد فيها ، وكانت ترجو أن يكون ذكرًا . وأخرج ابن المنذر عنه قال : نذرت أن تجعله محررًا للعبادة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **محررا** ﴾ قال : خادمًا للبيعة . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال: محررًا خالصا لا يخالطه شيء من أمر الدنيا .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد ، فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » ، ثم يقول أبو هريرة : اقرؤوا إن شئتم: ﴿ **وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم** ﴾ (٣) ، وللحديث ألفاظ عند أبى هريرة هذا أحدها، وروى من حديث غيره . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس قال : كفلها زكريا فدخل عليها المحراب فوجد عندها عنبا فى مكتل فى غير حينه . فقال : أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، قال : إن الذى يرزقك العنب فى غير حينه لقادر أن يرزقنى من العاقر الكبير العقيم ولدًا ﴿ **هنالك دعا زكريا ربه** ﴾ (٤) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : كانت مريم ابنة سيدهم وإمامهم فتشاحّ عليها أحبارهم فاقترعوا فيها بسهامهم أيهم يكفلها ، وكان زكريا زوج أختها فكفلها ، وكانت عنده وحضنها(٥). وأخرج البيهقى فى سننه عن ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة نحوه. وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿**وكفلها زكريا** ﴾ قال : جعلها معه فى محرابه .

---

(١) القرطبى ٢/ ١٣١٣ .

(٢) قال أبو جعفر: « وأما المحراب فهو مقدم كل مجلس ومصلى ، وهو سيد المجالس وأشرفها وأكرمها وكذلك هو من المساجد ».

(٣) أحمد ٢/ ٢٧٤ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٣١) ومسلم فى الفضائل (١٤٦/٢٣٦٦) وابن جرير ٣/ ١٦٠ .

(٤) ابن جرير ٣/ ١٦٥ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩١ ووافقه الذهبى .

(٥) ابن جرير ٣/ ١٦٤ .

﴿ هُنالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا وَاذْكُر رَّبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١) وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤) ﴾ .

قوله : ﴿ **هنالك** ﴾ ظرف يستعمل للزمان والمكان ، وأصله للمكان . وقيل : إنه للزمان خاصة ، وهناك للمكان . وقيل : يجوز استعمال كل واحد منهما مكان الآخر ، واللام للدلالة على البعد ، والكاف للخطاب . والمعنى : أنه دعا فى ذلك المكان الذى هو قائم فيه عند مريم؛ أو فى ذلك الزمان ، أن يهب الله له ذرية طيبة ، والذى بعثه على ذلك ما رآه من ولادة حنة لمريم وقد كانت عاقرًا ، فحصل له رجاء الولد وإن كان كبيرًا وامرأته عاقر ، أو بعثه على ذلك ما رآه من فاكهة الشتاء فى الصيف والصيف فى الشتاء عند مريم ، لأن من أوجد ذلك فى غير وقته يقدر على إيجاد الولد من العاقر . وعلى هذا يكون هذا الكلام قصة مستأنفة ، سيقت فى غضون قصة مريم لما بينهما من الارتباط . والذرية : النسل ، يكون للواحد ويكون للجمع ويدل على أنها هنا للواحد . قوله : ﴿ فهب لى من لدنك وليا ﴾ [مريم : ٥] ولم يقل أولياء، وتأنيث طيِّبة لكون لفظ الذرية مؤنثًا .

قوله : ﴿ **فنادته الملائكة** ﴾ قرأ حمزة والكسائى : « فناداه » وبذلك قرأ ابن عباس وابن مسعود . وقرأ الباقون: ﴿**فنادته الملائكة** ﴾ قيل : المراد هنا : جبريل ، والتعبير بلفظ الجمع عن الواحد جائز فى العربية ، ومنه: ﴿ الذين قال لهم الناس ﴾ [آل عمران : ١٧٣] . وقيل: ناداه جميع الملائكة وهو الظاهر من إسناد الفعل إلى الجمع ، والمعنى الحقيقى مقدم ، فلا يصار إلى المجاز إلا لقرينة. قوله: ﴿ **وهو قائم** ﴾ جملة حالية، و ﴿ **يصلى فى المحراب** ﴾ صفة لقوله : ﴿ **قائم** ﴾ أو خبر ثان لقوله : ﴿**وهو**﴾ . قوله :﴿ **أن الله يبشرك** ﴾ قرئ بفتح أن ، والتقدير : بأن الله ، وقرئ بكسرها على تقدير القول، وقرأ أهل المدينة : « يبشرك » بالتشديد ، وقرأ حمزة بالتخفيف ، وقرأ حميد بن قيس المكى بكسر الشين وضم حرف المضارعة . قال الأخفش :هي ثلاث لغات بمعنى واحد ، والقراءة الأولى هى التى وردت كثيرًا

فى القرآن، ومنه ﴿ فبشر عباد ﴾ [الزمر : ١٧] ﴿ فبشره بمغفرة ﴾ [يس : ١١] ﴿ فبشرناها بإسحاق ﴾ [هود : ٧١] ﴿ قالوا بشرناك بالحق ﴾ [الحجر : ٥٥] وهى قراءة الجمهور . والثانية لغة أهل تهامة ، وبها قرأ أيضًا عبد الله بن مسعود . والثالثة : من أبشر يبشر إبشارًا، ويحيى ممتنع إما لكونه أعجميًا ، أو لكون فيه وزن الفعل كيعمر مع العلمية . قال القرطبى حاكيا عن النقاش : كان اسمه فى الكتاب الأول حنا [١] انتهى . والذى رأيناه فى مواضع من الإنجيل أنه يوحنا . قيل : سمى بذلك ؛ لأن الله أحياه بالإيمان والنبوة . وقيل : لأن الله أحيا به الناس بالهدى ، والمراد هنا : التبشير بولادته ، أى يبشرك بولادة يحيى .

وقوله : ﴿ **مصدقا بكلمة من الله** ﴾ أى بعيسى عليه السلام ، وسمى كلمة الله ؛ لأنه كان بقوله سبحانه : «كن » . وقيل : سمى كلمة الله ؛ لأن الناس يهتدون به كما يهتدون بكلام الله. وقال أبو عبيد : معنى ﴿ **بكلمة من الله** ﴾ : بكتاب من الله ، قال : والعرب تقول : أنشدنى كلمته ، أى قصيدته . كما روى أن الحويدرة ذكر لحسان فقال : لعن الله كلمته ، يعنى قصيدته انتهى . ويحيى أول من آمن بعيسى وصدق ، وكان أكبر من عيسى بثلاث سنين. وقيل بستة أشهر . والسيد : الذى يسود قومه . قال الزجاج : السيد : الذى يفوق أقرانه فى كل شىء من الخير . والحصور : أصله من الحصر وهو الحبس ، يقال : حصرنى الشىء وأحصرنى: إذا حبسنى ، ومنه قول الشاعر :

وَمَا هَجْرُ لَيْلَى أنْ تكون تَبَاعَدتْ عَلَيْكَ وَلا أن أحْصَرتك شُغُولُ

والحصور : الذى لا يأتى النساء كأنه يحجم عنهن ، كما يقال : رجل حصور وحصير : إذا حبس رِفده ولم يخرجه. فيحيى عليه السلام كان حصورًا عن إتيان النساء ، أى محصورًا لا يأتيهن كغيره من الرجال ، إما لعدم القدرة على ذلك ، أو لكونه يكف عنهنّ منعًا لنفسه عن الشهوة مع القدرة . وقد رجح الثانى : بأن المقام مقام مدح، وهو لا يكون إلا على أمر مكتسب يقدر فاعله على خلافه ، لا على ما كان من أصل الخلقة وفى نفس الجبلة . وقوله : ﴿ **من الصالحين** ﴾ أى ناشئا من الصالحين ؛ لكونه من نسل الأنبياء ، أو كائنًا من جملة الصالحين ، كما فى قوله : ﴿ وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ﴾ [البقرة : ١٣٠] . قال الزجاج : الصالح: الذى يؤدى لله ما افترض عليه ، وإلى الناس حقوقهم .

قوله : ﴿ **قال رب أنى يكون لى غلام** ﴾ ظاهر هذا أن الخطاب منه لله سبحانه ، وإن كان الخطاب الواصل إليه هو بواسطة الملائكة ، وذلك لمزيد التضرع والجد فى طلب الجواب عن سؤاله . وقيل : إنه أراد بالرب : جبريل ، أى يا سيدى . قيل : وفى معنى هذا الاستفهام وجهان : أحدهما : أنه سأل هل يرزق هذا الولد من امرأته العاقر أو من غيرها ؟ وقيل:

(١) كذا ، والصواب : ﴿ حيا ﴾ كما عند القرطبى ٢/ ١٣١٨ .

معناه بأى سبب أستوجب هذا وأنا وامرأتى على هذه الحال ؟ والحاصل أنه استبعد حدوث الولد منهما، مع كون العادة قاضية بأنه لا يحدث من مثلهما؛ لأنه كان يوم التبشير كبيرًا. قيل : فى تسعين سنة. وقيل : ابن عشرين ومائة سنة، وكانت امرأته فى ثمان وتسعين سنة؛ ولذلك قال: ﴿ **وقد بلغنى الكبر** ﴾ أى والحال ذلك ، جعل الكبر كالطالب له كونه طليعة من طلائع الموت فأسند الفعل إليه. والعاقر: التى لا تلد، أى ذات عقر على النسب ولو كان على الفعل لقال: عقيرة ، أى بها عقر يمنعها من الولد، وإنما وقع منه هذا الاستفهام بعد دعائه بأن يهب الله له ذرية طيِّبة ، ومشاهدته لتلك الآية الكبرى فى مريم ، استعظامًا لقدرة الله سبحانه لا لمحض الاستبعاد. وقيل : إنه قد مرّ بعد دعائه إلى وقت يشاء ربه أربعون سنة. وقيل: عشرون سنة، فكان الاستبعاد من هذه الحيثية . قوله : ﴿ **كذلك الله يفعل ما يشاء** ﴾ أى يفعل الله ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل ، وهو إيجاد الولد من الشيخ الكبير والمرأة العاقر ، والكاف فى محل نصب نعتًا لمصدر محذوف ، والإشارة إلى مصدر يفعل ، أو الكاف فى محل رفع على أنها خبر ، أى على هذا الشأن العجيب شأن الله، ويكون قوله : ﴿ **يفعل ما يشاء** ﴾ بيانا له ، أو الكاف فى محل نصب على الحال ، أى يفعل الله الفعل كائنا مثل ذلك .

قوله : ﴿ **قال رب اجعل لى آية** ﴾ أى علامة أعرف بها صحة الحبل ، فأتلقى هذه النعمة بالشكر ﴿ **قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا** ﴾ أى علامتك أن تحبس لسانك عن تكليم الناس ثلاثة أيام لا عن غيره من الأذكار ، ووجه جعل الآية هذا ؛ لتخلص تلك الأيام لذكر الله سبحانه شكرا على ما أنعم به عليه. وقيل: بأن ذلك عقوبة من الله سبحانه له بسبب سؤاله الآية بعد مشافهة الملائكة إياه ، حكاه القرطبى عن أكثر المفسرين[1]. والرمز فى اللغة : **الإيماء** بالشفتين أو العينين أو الحاجبين أو اليدين [2] ، وأصله الحركة وهو استثناء منقطع ، لكون الرمز من غير جنس الكلام . وقيل : هو متصل على معنى أن الكلام ما حصل به الإفهام من لفظ أو إشارة أو كتابة وهو بعيد . والصواب الأول ، وبه قال الأخفش والكسائى . قوله : ﴿ **وسبح** ﴾ أى سبحه ﴿**بالعشى** ﴾ وهو جمع عشية . وقيل : هو واحد وهو من حين تزول الشمس إلى أن تغيب . وقيل : من العصر إلى ذهاب صدر الليل ، وهو ضعيف جدًا ﴿ **والإبكار** ﴾ من طلوع الفجر إلى وقت الضحى . وقيل : المراد بالتسبيح : الصلاة.

قوله : ﴿ **إذ قالت الملائكة يامريم** ﴾ الظرف متعلق بمحذوف كالظرف الأول ﴿ **إن الله اصطفاك** ﴾ : اختارك ﴿**وطهرك**﴾ من الكفر أو من الأدناس على عمومها . ﴿ **واصطفاك على نساء العالمين** ﴾ قيل : هذا الاصطفاء الآخر غير الاصطفاء الأول ، فالأول : هو حيث تقبلها بقبول حسن ، والآخر : لولادة عيسى . والمراد بالعالمين هنا قيل : نساء عالم زمانها وهو

---

(١) القرطبى ٢/ ١٣٢٢ .

(٢) وقد يقال للخفى من الكلام الذى هو مثل الهمس بخفض الصوت : « الرمز » ومنه قول جؤبة بن عائذ :

وكان تكلم الأطفال رمزًا ... وهمهمة لهم مثلَ الهدير

لسان ٥/ ٣٥٦ .

الحق. وقيل : نساء جميع العالم إلى يوم القيامة ، واختاره الزجاج . وقيل : الاصطفاء الآخر تأكيد للاصطفاء الأول والمراد بهما جميعًا واحد .

قوله : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك** ﴾ أى أطيلى القيام فى الصلاة أو أديميها ؛ وقد تقدم الكلام على معانى القنوت، وقدم السجود على الركوع لكونه أفضل ، أو لكون صلاتهم لا ترتيب فيها مع كون الواو لمجرد الجمع بلا ترتيب . وقوله : ﴿**واركعى مع الراكعين** ﴾ ظاهره أن ركوعها يكون مع ركوعهم ، فيدل على مشروعية صلاة الجماعة . وقيل : المعنى : أنها تفعل مثل فعلهم وإن لم تصل معهم .

والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما سبق من الأمور التى أخبره الله بها ، والوحى فى اللغة: الإعلام فى خفاء ، يقال: وحى وأوحى بمعنى . قال ابن فارس : الوحى : الإشارة والكتابة والرسالة ، وكل ما ألقيته إلى غيرك حتى تعلمه . قوله : ﴿**وما كنت لديهم** ﴾ تحضرنهم، يعنى المتنازعين فى تربية مريم ، وإنما نفى حضوره عندهم مع كونه معلومًا ؛ لأنهم أنكروا الوحى . فلو كان ذلك الإنكار صحيحًا لم يبق طريق للعلم به إلا المشاهدة والحضور ، وهم لا يدعون ذلك فثبت كونه وحيًا مع تسليمهم أنه ليس ممن يقرأ التوراة ولا ممن يلابس أهلها . والأقلام جمع قلم ، من قلمه : إذا قطعه ، أى أقلامهم التى يكتبون بها . وقيل : قداحهم ﴿ **أيهم يكفل مريم** ﴾ أى يحضنها ، أى يلقون أقلامهم ليعلموا أيهم يكفلها ، وذلك عند اختصامهم فى كفالتها ، فقال زكريا : هو أحق بها لكون خالتها عنده ، وهى أشيع أخت حنة أم مريم . وقال بنو إسرائيل : نحن أحق بها لكونها بنت عالمنا ، فاقترعوا وجعلوا أقلامهم فى الماء الجارى ، على أن من وقف قلمه ولم يجر مع الماء فهو صاحبها ، فجرت أقلامهم ووقف قلم زكريا ، وقد استدل بهذا من أثبت القرعة ، والخلاف فى ذلك معروف ، وقد ثبتت أحاديث صحيحة فى اعتبارها.

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : لما رأى زكريا ذلك ، يعنى فاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف عند مريم قال : إن الذى أتى بهذا مريم فى غير زمانه قادر على أن يرزقنى ولدًا ، فذلك حين دعا ربه [١] . وأخرج ابن عساكر عن الحسن نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى : ﴿ **ذرية طيبة** ﴾ يقول : سباركة .

وأخرج ابن جرير عن عبد الرحمن بن أبى حماد قال : فى قراءة ابن مسعود :« فناداه جبريل وهو قائم يصلى فى المحراب». وروى ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى أنه قال : ﴿**فنادته الملائكة** ﴾ أى جبريل . وأخرج ابن المنذر عن السدى قال : المحراب: المصلى . وقد أخرج الطبرانى والبيهقى عن ابن عمرو [٢]، أن النبى ﷺ قال : « اتقوا هذه المذابح » [٣] يعنى

---

(١) ابن جرير ٣/ ١٦٨ .

(٢) فى المخطوطة : « عن ابن عمر» والصحيح ما أثبتناه موافقا لما فى التخريج الآتى .

(٣) عزاه الهيثمى فى المجمع ٨/ ٦٣ للطبرانى وقال : « فيه عبد الله بن مغراء وثقه ابن حبان وغيره ، وضعفه ابن المدينى فى روايته عن الأعمش وليس هذا منها » وأخرجه البيهقى ٢/ ٤٣٩ عن عبد الله بن عمرو .

المحاريب . وأخرج ابن أبى شيبة فى المصنف عن موسى الجهنى قال : قال رسول الله ﷺ : «لا تزال أمتى بخير ما لم يتخذوا فى مساجدهم مذابح كمذابح النصارى » [١] وقد رويت كراهة ذلك عن جماعة من الصحابة . وأخرج عبد بن حميد وابن جريروابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ؛ قال : إنما سمى يحيى لأن الله أحياه بالإيمان . . وأخرجوا عن ابن عباس قال : ﴿**مصدقًا بكلمة من الله** ﴾ قال : عيسى ابن مريم هو الكلمة . وأخرج ابن جرير من طريق ابن جريج عنه قال : كان يحيى وعيسى ابنى الخالة وكانت أم يحيى تقول لمريم : إنى أجد الذى فى بطنى يسجد [٢] للذى فى بطنك ، فذلك تصديقه بعيسى سجوده فى بطن أمه ، وهو أول من صدق بعيسى [٣] . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير عن مجاهد نحوه قال : السيد : الكريم على الله [٤] . وأخرج ابن جرير عن ابن المسيب قال : السيد : الفقيه العالم . وأخرج عبد الرزاق وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وسيدًا وحصورا** ﴾ قال : السيد : الحليم ، والحصور : الذى لا يأتى النساء . وأخرج أحمد فى الزهد عن سعيد بن جبير فى الحصور مثله . وأخرج أحمد فى الزهد ، وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ، قال: الحصور الذى لا ينزل الماء . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ ؛ قال :«كان ذكره مثل هدبة الثوب » [٥].وأخرجه ابن أبى شيبة وأحمد فى الزهد من وجه آخر عن ابن عمرو موقوفًا ، وهو أقوى . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن شعيب الجبائى قال : اسم أم يحيى أشيع .

وأخرج ابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **اجعل لى آية** ﴾ قال : بالحمل به . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام** ﴾ قال: إنما عوقب بذلك؛ لأن الملائكة شافهته بذلك مشافهة فبشرته بيحيى ، فسأل الآية بعد كلام الملائكة إياه فأخذ عليه بلسانه [٦] . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **إلا رمزًا** ﴾ قال : الرمز بالشفتين . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : الرمز : الإشارة .وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وسبح بالعشى والإبكار** ﴾ قال : العشىّ : ميل الشمس إلى أن تغيب ، والإبكار : أول الفجر.

وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث على قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « خير نسائها مريم بنت عمران ، وخير نسائها خديجة بنت خويلد » [٧] . وأخرج الحاكم

---

(١) ابن أبى شيبة ٢/ ٥٩ .

(٢) السجود هنا: الخضوع والتطامن والخشوع لا سجود الصلاة والعبادة وانما سجود الصلاة مجاز من هذا الأصل

(٣، ٤) ابن جرير ٣/ ١٧٢ .

(٥) ابن جرير ٣/ ١٧٤ وقال ابن كثير ٢/ ٣٥ : «روى ابن أبى حاتم حديثًا غريبًا جدًا » وذكره .

(٦) ابن جرير ٣/ ١٧٧ .

(٧) أحمد ١/ ٨٤ ، ١١٦ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٣٢) ومسلم فى فضائل الصحابة (٦٩/٢٤٣٠) والترمذى فى المناقب (٣٨٧٧) وقال: «حسن صحيح » .

وصححه عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : « أفضل نساء العالمين خديجة وفاطمة ومريم وآسية امرأة فرعون » [١] . وأخرج ابن مردويه عن أنس مرفوعا نحوه . وأخرج نحوه أحمد ، والترمذى وصححه ، وابن المنذر وابن حبان والحاكم من حديثه مرفوعا [٢] وفى الصحيحين وغيرهما من حديث أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ : « كمل من الرجال كثير ، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران وآسية امرأة فرعون ، وفضل عائشة على النساء كفضل الثريد على الطعام» [٣] . وفى المعنى أحاديث كثيرة وكلها تفيد أن مريم عليها السلام سيدة نساء عالمها ، لا نساء جميع العالم ، ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن مقاتل عن الضحاك عن ابن عباس عن النبى ﷺ ؛ قال : « أربع نسوة سادات نساء عالمهن : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد ، وأفضلهن عالما فاطمة » .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **يا مريم اقنتى لربك** ﴾ قال : أطيلى الركود يعنى القيام . وأخرج ابن جرير عن سعيد بن جبير : ﴿ **اقنتى لربك** ﴾ قال : أخلصى . وأخرج عن قتادة قال : أطيعى ربك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم** ﴾ قال : إن مريم لما وضعت فى المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحى فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها . قال الله لمحمد : ﴿ **وما كنت لديهم** ﴾ الآية [٤] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة قال : ألقوا أقلامهم فى الماء فذهبت مع الجرية وصعد قلم زكريا فكفلها زكريا . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه . . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد ، وكذلك أخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج ؛ أن الأقلام هى التى يكتبون بها التوراة . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن عطاء أنها القداح .

﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى** ﴾

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٥ ووافقه الذهبى .

(٢) أحمد ١/ ٣٢٢ عن ابن عباس، والترمذى فى المناقب (٣٨٧٨) وقال : «صحيح » وابن حبان (٦٩١٢) وصححه الحاكم ولم يروه عن أنس وإنما رواه عن على ٢/ ٤٩٧ وقال : « رواه البخارى عن صدقة بن محمد ومسلم عن أبى خيثمة وأبى بكر بن أبى شيبة بهذه السياقة » وقال الذهبى :« فلماذا أوردته » .
وأخرج عن ابن عباس ٢/ ٥٩٤ وقال : «صحيح »ووافقه الذهبى .

(٣) أحمد ٤/ ٣٩٤ والبخارى فى فضائل الصحابة (٣٧٦٩) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٣١/ ٧٠) والترمذى فى الأطعمة (١٨٣٤) وقال : « حسن صحيح » .

(٤) ابن جرير ٣/ ١٨٤ .

أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ (٥١) ﴾ .

قوله : ﴿ **إذ قالت** ﴾ بدل من قوله : ﴿ **وإذ قالت** ﴾ المذكور قبله وما بينهما اعتراض . وقيل : بدل من ﴿**إذ يختصمون** ﴾ . وقيل :منصوب بفعل مقدر . وقيل : بقوله : ﴿**يختصمون** ﴾ : وقيل : بقوله : ﴿ **وما كنت لديهم**﴾. والمسيح اختلف فيه من ماذا أخذ ؟ فقيل : من المسح ؛ لأنه مسح الأرض ، أى ذهب فيها فلم يستكن بكن . وقيل : إنه كان لا يمسح ذا عاهة إلا برئ ، فسمى مسيحا ، فهو على هذين فعيل بمعنى فاعل . وقيل:لأنه كان يمسح بالدهن الذى كانت الأنبياء تمسح به . وقيل : لأنه كان ممسوح الأخمصين . وقيل : لأن الجمال مسحه . وقيل : لأنه مسح بالتطهير من الذنوب، وهو على هذه الأربعة الأقوال فعيل بمعنى مفعول . وقال أبو الهيثم : المسيح ضد المسيخ بالخاء المعجمة . وقال ابن الأعرابى : المسيح: الصديق . وقال أبو عبيد : أصله بالعبرانية : مشيخا ، بالمعجمتين ، فعرّب كما عرب موشى بموسى ، وأما الدجّال فسمى مسيحًا ؛ لأنه ممسوح إحدى العينين . وقيل : لأنه يمسح الأرض ، أى يطوف بلدانها إلا مكة والمدينة وبيت المقدس [١] .

وقوله : ﴿ **عيسى** ﴾ عطف بيان أو بدل ، وهو اسم أعجمى . وقيل : هو عربى مشتق من عاسه يعوسه : إذا ساسه . قال فى الكشاف : هو معرب من أيشوع .انتهى [٢] . والذى رأيناه فى الإنجيل فى مواضع أن اسمه : يشوع بدون همزة ، وإنما قيل : ابن مريم مع كون الخطاب معها ؛ تنبيها على أنه يولد من غير أب فنسب إلى أمه. والوجيه ذو الوجاهة ، وهى: القوة والمنعة ، ووجاهته فى الدنيا النبوّة ، وفى الآخرة الشفاعة وعلو الدرجة ، وهو منتصب على الحال من كلمة ، وإن كانت نكرة فهى موصوفة ، وكذلك قوله : ﴿ **ومن المقربين** ﴾ فى محل نصب على الحال . قال الأخفش : هو معطوف على ﴿**وجيها** ﴾ .

والمهد : مضجع الصبى فى رضاعه ، ومهدت الأمر : هيأته ووطأته . والكهل : هو من كان بين سن الشباب والشيخوخة ، أى يكلم الناس حال كونه رضيعًا فى المهد وحال كونه

---

(١) فى صحيح مسلم عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال إلا مكة والمدينة» الحديث، ووقع فى حديث عبد الله بن عمرو «إلا الكعبة وبيت المقدس» ذكره أبو جعفر الطبرى.

(٢) الكشاف ١/ ٣٦٣.

كهلا بالوحى والرسالة ، قاله الزجاج . وقال الأخفش والفراء : إن ﴿ **كهلا** ﴾ معطوف على﴿ **وجيها** ﴾ . قال الأخفش : ﴿ **ومن الصالحين** ﴾ : عطف على ﴿ **وجيها** ﴾ أى هو من العباد الصالحين .

قوله : ﴿ **أنى يكون لى ولد** ﴾ أى كيف يكون ؟ على طريقة الاستبعاد العادى ﴿ **ولم يمسسنى بشر** ﴾ جملة حالية، أى والحال أنه على حالة منافية للحالة المعتادة من كون له أب ﴿**قال كذلك الله يخلق ما يشاء** ﴾ هو من كلام الله سبحانه . وأصل القضاء : الإحكام ، وقد تقدم ، وهو هنا الإرادة ، أى إذا أراد أمرًا من الأمور ﴿**فإنما يقول له كن فيكون**﴾ من غير عمل ولا مزاولة ، وهو تمثيل لكمال قدرته .

قوله: ﴿**ويعلمه الكتاب**﴾ قيل: هو معطوف على ﴿**يبشرك**﴾ أى إن الله يبشرك وإن الله يعلمه. وقيل: على ﴿**يخلق**﴾ أى وكذلك يعلمه الله، أو كلام مبتدأ سيق تطييبًا لقلبها. والكتاب: الكتابة. والحكمة: العلم. وقيل: تهذيب الأخلاق. وانتصاب ﴿**رسولا**﴾ على تقدير: ويجعله رسولا، أو ويكلمهم رسولا، أو وأرسلت رسولا. وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿**وجيها**﴾ فيكون حالا؛ لأن فيه معنى النطق، أى وناطقًا. قال الأخفش: وإن شئت جعلت الواو فى قوله: ﴿**ورسولا**﴾ مقحمة، والرسول حالا. وقوله: ﴿**أنى قد جئتكم**﴾ معمول لرسول؛ لأن فيه معنى النطق كما مر. وقيل: أصله بأنى قد جئتكم فحذف الجار. وقيل: منصوب بمضمر، أى تقول أنى قد جئتكم. وقيل: معطوف على الأحوال السابقة. وقوله: ﴿**بآية**﴾ فى محل نصب على الحال، أى متلبسا بعلامة كائنة ﴿**من ربكم**﴾. وقوله: ﴿**أنّى أخلق**﴾ أى أصور وأقدر ﴿**لكم من الطين كهيئة الطير**﴾ وهذه الجملة بدل من الجملة الأولى، وهى: ﴿**أنى قد جئتكم**﴾ أوبدل من آية، أو خبر مبتدأ محذوف، أى هى أنى، وقرئ بكسر الهمزة على الاستئناف. وقرأ الأعرج وأبو جعفر: «كهيئة الطير» بالتشديد، والكاف فى قوله: ﴿**كهيئة الطير**﴾ نعت مصدر محذوف ، أى أخلق لكم خلقًا أو شيئًا مثل هيئة الطير .

وقوله : ﴿ **فأنفخ فيه** ﴾ أى فى ذلك الخلق أو ذلك الشىء ، فالضمير راجع إلى الكاف فى قوله : ﴿ **كهيئة الطير** ﴾ . وقيل: الضمير راجع إلى الطير ، أى لواحد منه . وقيل : إلى الطين ، وقرئ : « فيكون طائرًا وطيرًا » ، مثل تاجر وتجر .. وقيل: إنه لم يخلق غير الخفاش لما فيه من عجائب الصنعة ، فإن له ثديًا وأسنانًا وأذنًا ويحيض ويطهر. وقيل : إنهم طلبوا خلق الخفاش لما فيه من العجائب المذكورة ولكونه يطير بغير ريش ، ويلد كما يلد سائر الحيوانات مع كونه من الطير ، ولا يبيض كما يبيض سائر الطيور ، ولا يبصر فى ضوء النهار ولا فى ظلمة الليل وإنما يرى فى ساعتين : بعد غروب الشمس ساعة ، وبعد طلوع الفجر ساعة، وهو يضحك كما يضحك الإنسان . وقيل : إن سؤالهم له كان على وجه التعنت . وقيل : كان يطير مادام الناس ينظرونه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتاً ليتميز فعل الله من

فعل غيره .

وقوله : ﴿ **بإذن الله** ﴾ فيه دليل على أنه لولا الإذن من الله عز وجل لم يقدر على ذلك، وأن خلق ذلك كان بفعل الله سبحانه أجراه على يد عيسى عليه السلام . قيل : كانت تسوية الطين والنفخ من عيسى ، والخلق من الله عز وجل . قوله: ﴿**وأبرئ الأكمه** ﴾ الأكمه : الذى يولد أعمى ، كذا قال أبو عبيدة . وقال ابن فارس : الكمه : العمى يولد به الإنسان وقد يعرض، يقال : كمه يكمه كمها : إذا عمى ، وكمهت عينه : إذا أعميتها . وقيل : الأكمه : الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . وقيل : هو الممسوح العين . والبرص معروف وهو بياض يظهر فى الجلد . وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ من أمراض عدة كما اشتمل عليه الإنجيل ، وإنما خص الله سبحانه هذين المرضين بالذكر ؛ لأنهما لا يبرآن فى الغالب بالمداواة، وكذلك إحياء الموتى، قد اشتمل الإنجيل على قصص من ذلك. قوله: ﴿ **وأنبئكم بما تأكلون** ﴾ أى أخبركم بالذى تأكلونه وبالذى تدخرونه .

قوله : ﴿ **ومصدقا** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **ورسولا** ﴾ وقيل : المعنى : وجئتكم مصدقا. قوله : ﴿ **ولأحلّ**﴾ أى ولأجل أن أحل ، أى جئتكم بآية من ربكم ، وجئتكم لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم من الأطعمة فى التوراة كالشحوم وكل ذى ظفر . وقيل : إنما أحل لهم ما حرمته عليهم الأحبار ولم تحرمه التوراة . وقال أبو عبيدة : يجوز أن يكون ﴿**بعض**﴾ بمعنى كل، وأنشد :

تَرَاكُ أمكنَةٍ إذَا لَـم أرْضَـها أو يرْتَبِطْ بعضَ النفوسِ حِمامُها

قال القرطبى : وهذا القول غلط عند أهل النظر من أهل اللغة ؛ لأن البعض والجزء لا يكونان بمعنى الكل ؛ ولأن عيسى لم يحلل لهم جميع ما حرمته عليهم التوراة ، فإنه لم يحلل القتل ولا السرقة ولا الفاحشة وغير ذلك من المحرمات الثابتة فى الإنجيل مع كونها ثابتة فى التوراة وهى كثيرة يعرف ذلك من يعرف الكتابين ، ولكنه قد يقع البعض موقع الكل مع القرينة كقول الشاعر(١) :

أبَا مُنْذِرٍ أفْنَيتَ فاستبق بَعْضَنَا حَنَانَيْك بعضُ الشَّرِ أهْوَنُ مِن بَعْضِ

أى بعض الشر أهون من كله . قوله : ﴿ **بآية من ربكم** ﴾ هى قوله : ﴿ **إن الله ربى وربكم** ﴾ وإنما كان ذلك آية ؛ لأن من قبله من الرسل كانوا يقولون ذلك ، فمجيئه بما جاءت به الرسل يكون علامة على نبوته ، ويحتمل أن تكون هذه الآية هى الآية المتقدمة فتكون تكريرًا لقوله : ﴿ **أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين** . . . ﴾ الآية .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **بكلمة** ﴾

(١) الشاعر : هو طرفة بن العبد خاطب به عمرو بن هند الملك وكنيته أبو منذر حين أمر بقتله .

قال: عيسى هو الكلمة من الله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: المهد : مضجع الصبى فى رضاعه . وقد ثبت فى الصحيح أنه لم يتكلم فى المهد إلا ثلاثة: عيسى ، وكان فى بنى إسرائيل رجل يقال له : جريج ، كان يصلى فجاءته أمه فدعته فقال: أجيبها أو أصلى ؟ فقالت : اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات ، وكان جريج فى صومعة فتعرضت له امرأة وكلمته فأبى ، فأتت راعيا فأمكنته من نفسها فولدت غلاما ، فقالت: من جريج ، فأتوه فكسروا صومعته ، وأنزلوه وسبوه، فتوضأ وصلى ثم أتى الغلام فقال : من أبوك يا غلام ؟ قال : الراعى ، قالوا : نبنى صومعتك من ذهب ؟ قال : لا إلا من طين ، وكانت امرأة من بنى إسرائيل ترضع ابنا لها ، فمر بها رجل راكب ذو شارة ، فقالت : اللهم اجعل ابنى مثله ، فترك ثديها وأقبل على الراكب فقال : اللهم لا تجعلنى مثله، ثم أقبل على ثديها يمصه ، ثم مرّ بأمة تجرجر ويلعب بها فقالت: اللهم لا تجعل ابنى مثل هذه ، فترك ثديها فقال : اللهم اجعلنى مثلها ، فقالت : لم ذاك ؟ فقال : الراكب جبار من الجبابرة ، وهذه الأمة يقولون لها: زَنيت، وتقول : حسبى الله ونعم الوكيل. ويقولون : سرقت . وتقول : حَسبى الله[1] . وأخرج أبو الشيخ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «لم يتكلم فى المهد إلا عيسى ، وشاهد يوسف ، وصاحب جريج ، وابن ماشطة فرعون»[2].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ويكلم الناس فى المهد وكهلا** ﴾ قال : يكلمهم صغيرا وكبيراً . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : الكهل : هو من فى سن الكهولة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال: الكهل : الحليم . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويعلمه الكتاب**﴾ قال : الخط بالقلم . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج أبو الشيخ عن ابن عباس قال: إنما خلق عيسى طائرًا واحدًا وهو الخفاش . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس ؛ قال : الأكمه : الذى يولد أعمى . وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : الأكمه : الأعمى الممسوح العينين . و أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ قال : الأكمه : الذى يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل . وأخرجوا عن عكرمة قالوا: الأكمه : الأعمش . وأخرج أحمد فى الزهد عن خالد الحذاء قال : كان عيسى ابن مريم إذا سرح رمله يحيون الموتى يقول لهم : « قولوا كذا ، فإذا وجدتم قشعريرة ودمعة فادعوا عند ذلك»[3].

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وأنبئكم بما**

---

(١) حديث أبى هريرة عند أحمد ٢/ ٣٠٧ والبخارى فى الأنبياء (٣٤٣٦) ومسلم فى البر والصلة (٨/٢٥٥٠).
(٢) صححه الحاكم ٢/ ٥٩٥ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٣) أحمد فى الزهد (٣٣٤) .

تأكلون ﴾ قال : بما أكلتم البارحة من طعام وما خبأتم منه . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن عمار بن ياسر قال : ﴿**أنبئكم بما تأكلون** ﴾ من المائدة وما تدخرون منها، وكان أخذ عليهم فى المائدة حين نزلت أن يأكلوا ولا يدخروا ، فأكلوا وادخروا وخانوا ، فجعلوا قردة وخنازير [١] . وأخرج ابن جرير عن وهب أن عيسى كان على شريعة موسى ، وكان يسبت ويستقبل بيت المقدس ، وقال لبنى إسرائيل : إنى لم أدعكم إلى خلاف حرف مما فى التوراة ، إلا لأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وأضع عنكم من الآصار[٢] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع فى الآية قال : كان الذى جاء به عيسى ألين مما جاء به موسى، وكان قد حرم عليهم فيما جاء به موسى لحوم الإبل والثروب [٣] ، فأحلها لهم على لسان عيسى ، وحرم عليهم الشحوم فأحلت لهم فيما جاء به عيسى ، وفى أشياء من السمك ، وفى أشياء من الطير[٤] ، وفى أشياء أخر حرمها عليهم وشدد عليهم فيها ، فجاءهم عيسى بالتخفيف منه فى الإنجيل [٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله [٦] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿**وجئتكم بآية من ربكم** ﴾ قال : ما بين لهم عيسى من الأشياء كلها وما أعطاه ربه .

﴿ **فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَىٰ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَٰلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)** ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٣/ ١٩٤ . (٢) ابن جرير ٣/ ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٣) الثروب من (الثَّرْبُ) وهو شحم رقيق على الكرش والأمعاء . اللسان ١/ ٢٣٤ .

(٤) عند ابن جرير ٣/ ١٩٦ بزيادة: « مما لا صيصية له » وصيصية الديك بكسر الصاد الأولى والثانية وفتح الياء الأخيرة ، وجمعها الصياصى وهى الشوكة فى رجل الديك وقرون البقر .

(٥، ٦) ابن جرير ٣/ ١٩٦ .

قوله : ﴿ **فلما أحس** ﴾ أى علم ووجد ، قاله الزجاج ، وقال أبو عبيدة : معنى أحس عرف . وأصل ذلك وجود الشيء بالحاسة ، والإحساس : العلم بالشيء . قال الله تعالى : ﴿هل تحس منهم من أحد ﴾ [مريم : ٩٨] والمراد بالإحساس هنا : الإدراك القوى الجارى مجرى المشاهدة [١] وبالكفر: إصرارهم عليه . وقيل : سمع منهم كلمة الكفر . وقال الفراء : أرادوا قتله . وعلى هذا فمعنى الآية : فلما أدرك منهم عيسى إرادة قتله التى هى كفر قال : من أنصارى إلى الله. الأنصار جمع نصير . وقوله : ﴿ **إلى الله** ﴾ متعلق بمحذوف وقع حالا، أى متوجها إلى الله أو ملتجئاً إليه أو ذاهبا إليه . وقيل : إلى بمعنى مع، كقوله تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم ﴾ [النساء : ٢] . وقيل : المعنى : من أنصارى فى السبيل إلى الله . وقيل: المعنى : من يضم نصرته إلى نصرة الله . والحواريون : جمع حوارى وحوارىّ الرجل: صفوته وخلاصته ، وهو مأخوذ من الحور وهو البياض عند أهل اللغة ، حوّرت الثياب: بيضتها ، والحوارى من الطعام : ما حوّر ، أى بيض ، والحوارى أيضا : الناصر ، ومنه قوله ﷺ :« لكل نبى حوارىّ وحوارىّ الزبير » [٢] . وهو فى البخارى وغيره . وقد اختلف فى سبب تسميتهم بذلك، فقيل :لبياض ثيابهم . وقيل : لخلوص نياتهم . وقيل :لأنهم خاصة الأنبياء ، وكانوا اثنى عشر رجلا ، ومعنى أنصار الله: أنصار دينه ورسله. وقوله : ﴿**آمنا بالله**﴾ استئناف جار مجرى العلة لما قبله ، فإن الإيمان يبعث على النصرة . قوله : ﴿**واشهد بأنا مسلمون**﴾ أى اشهد لنا يوم القيامة بأنا مخلصون لإيماننا منقادون لما تريد منا .

ومعنى ﴿ **بما أنزلت** ﴾ : ما أنزله الله سبحانه فى كتبه ، والرسول عيسى . وحذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى اتبعناه فى كل ما يأتى به فاكتبنا مع الشاهدين لك بالوحدانية، ولرسولك بالرسالة ، أو اكتبنا مع الأنبياء الذين يشهدون لأممهم . وقيل : مع أمة محمد ﷺ . قوله : ﴿ **ومكروا** ﴾ أى الذين أحس عيسى منهم الكفر ، وهم كفار بنى إسرائيل ، ومكر الله: استدراجه للعباد من حيث لا يعلمون ، قاله الفراء وغيره . وقال الزجاج : مكر الله: مجازاتهم على مكرهم ، فسمى الجزاء باسم الابتداء كقوله تعالى: ﴿ الله يستهزئ بهم ﴾ [البقرة:١٥] ، ﴿وهو خادعهم ﴾ [النساء : ١٤٢] وأصل المكر فى اللغة : الاغتيال والخدع، حكاه ابن فارس ، وعلى هذا فلا يسند إلى الله سبحانه إلا على طريق المشاكلة . وقيل:مكر الله: إلقاء شبه عيسى على غيره، ورفع عيسى إليه.﴿ **والله خير الماكرين** ﴾أى أقواهم مكرا وأنفذهم كيدًا وأقواهم على إيصال الضرر بمن يريد إيصاله به من حيث لا يحتسب.

قوله : ﴿ **وإذ قال الله ياعيسى** ﴾ العامل فى إذ : مكروا ، أو قوله : ﴿ **خير الماكرين** ﴾ أو فعل مضمر تقديره: وقع ذلك . وقال الفراء : إن فى الكلام تقديمًا وتأخيرًا تقديره : إنى رافعك ومطهرك من الذين كفروا ومتوفيك بعد إنزالك من السماء . وقال أبو زيد :

---

(١) والحس أيضًا : العطف والرقة .

(٢) أحمد ١/١٠٢ ، ٣. ١ عن على بن أبى طالب، والبخارى فى الجهاد (٢٨٤٦) عن جابر .

متوفيك: قابضك . وقال فى الكشاف : مستوفى أجلك، ومعناه: إنى عاصمك من أن يقتلك الكفار، ومؤخر أجلك إلى أجل كتبته لك، ومُميتك حتف أنفك لا قتلا بأيديهم[١] . وإنما احتاج المفسرون إلى تأويل الوفاة بما ذكر؛ لأن الصحيح أن الله رفعه إلى السماء من غير وفاة، كما رجحه كثير من المفسرين ، واختاره ابن جرير الطبرى ، ووجه ذلك أنه قد صح فى الأخبار عن النبى ﷺ نزوله وقتله الدجال [٢] . وقيل : إن الله سبحانه توفاه ثلاث ساعات من نهار ثم رفعه إلى السماء ، وفيه ضعف [٣] .وقيل : المراد بالوفاة هنا النوم ، ومثله: ﴿وهو الذى يتوفاكم بالليل﴾ [الأنعام : ٦٠] أى ينيمكم، وبه قال كثيرون. قوله: **﴿ومطهرك من الذين كفروا﴾** أى من حيث جوازهم برفعه إلى السماء وبعده عنهم .

قوله : ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾ أى الذين اتبعوا ما جئت به وهم خلص أصحابه الذين لم يبلغوا فى الغلو فيه إلى ما بلغ من جعله إلهًا ، ومنهم المسلمون ، فإنهم اتبعوا ما جاء به عيسى عليه السلام، ووصفوه بما يستحقه من دون غلوّ ، فلم يفرطوا فى وصفه كما فرطت اليهود ، ولا أفرطوا كما أفرطت النصارى . وقد ذهب إلى هذا كثير من أهل العلم . وقيل : المراد بالآية أن النصارى الذين هم أتباع عيسى لا يزالون ظاهرين على اليهود غالبين لهم قاهرين لمن وجد منهم ، فيكون المراد بالذين كفروا :هم اليهود خاصة. وقيل : هم الروم ، لا يزالون ظاهرين على من خالفهم من الكافرين . وقيل: هم الحواريون ، لا يزالون ظاهرين على من كفر بالمسيح . وعلى كل حال فغلبة النصارى لطائفة من الكفار ، أو لكل طوائف الكفار لا ينافى كونهم مقهورين مغلوبين بطوائف المسلمين ، كما تفيده الآيات الكثيرة، بأن هذه الملة الإسلامية ظاهرة على كل الملل ، قاهرة لها مستعلية عليها . وقد أفردت هذه الآية بمؤلف سميته « وبل الغمامة فى تفسير ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة** ﴾»، فمن رام استيفاء ما فى المقام فليرجع إلى ذلك . والفوقية هنا : هى أعم من أن تكون بالسيف أو بالحجة . وقد ثبت فى الأحاديث الصحيحة أن عيسى عليه السلام ينزل فى آخر الزمان فيكسر الصليب ، ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ، ويحكم بين العباد بالشريعة المحمدية ، ويكون المسلمون أنصاره وأتباعه إذ ذاك [٤] ، فلا يبعد أن يكون فى هذه الآية إشارة إلى هذه الحالة . قوله : ﴿ **ثم إلى مرجعكم** ﴾ أى رجوعكم ، وتقديم الظرف للقصر ﴿ **فأحكم بينكم** ﴾ يومئذ **﴿فيما كنتم فيه تختلفون﴾** من أمور الدين .

---

(١) الكشاف ١/ ٣٦٦ .

(٢) حديث النواس بن سمعان وهو عند مسلم فى الفتن وأشراط الساعة (٢١٣٧/ ١١٠) وأبو داود فى الملاحم (٤٣٢١) والترمذى فى الفتن (٢٢٤٤) عن عبد الرحمن بن يزيد الأنصارى من بنى عمرو بن عوف وقال: «حسن صحيح » وقال : « وفى الباب من حديث النواس بن سمعان تحت هذا الرقم أيضًا » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٧٥) .

(٣) أورده ابن كثير ٢/ ٤٤ عن وهب بن منبه .

(٤) من حديث أبى هريرة عند أحمد ٢/ ٢٩٠ ، ٢٩١ والبخارى فى البيوع (٢٢٢٢) ، والترمذى فى الفتن (٢٢٣٣) وقال : « حسن صحيح».

قوله : ﴿ **فأما الذين كفروا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **والله لا يحب الظالمين** ﴾ تفسير للحكم . قوله: ﴿ **فى الدنيا والآخرة** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **فأعذبهم** ﴾ أما تعذيبهم فى الدنيا فبالقتل والسبى والجزية والصغار ، وأما فى الآخرة فبعذاب النار . قوله : ﴿ **فيوفيهم أجورهم** ﴾ أى يعطيهم إياها كاملة موفرة ، قرئ بالتحتية وبالنون. وقوله : ﴿ **لا يحب الظالمين** ﴾ كناية عن بغضهم ، وهى جملة تذييلية مقررة لما قبلها . قوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إشارة إلى ما سلف من نبأ عيسى وغيره وهو مبتدأ خبره ما بعده ، و ﴿ **من الآيات** ﴾ حال أوخبر بعد خبر . والحكيم: المشتمل على الحكم أو المحكم الذى لا خلل فيه .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **فلما أحس عيسى منهم الكفر** ﴾ قال: كفروا وأرادوا قتله ، فذلك حين استنصر قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : إنما سموا الحواريين لبياض ثيابهم ، كانوا صيادين . وأخرج عبد بن حميد عن الضحاك قال : الحواريون : قصارون مرّ بهم عيسى فآمنوا به . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة ، قال: الحواريون: هم الذين تصلح لهم الخلافة . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : هم أصفياء الأنبياء. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الضحاك مثله . وأخرج عبد الرزاق وابن أبى حاتم عن قتادة قال: الحوارى: الوزير. وأخرج ابن أبى حاتم عن سفيان بن عيينة قال: الحوارى: الناصر.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ والطبرانى وابن مردويه ، عن ابن عباس فى قوله: ﴿**فاكتبنا مع الشاهدين** ﴾ قال : مع محمد وأمته أنهم شهدوا له أنه قد بلغ، وشهدوا للرسل أنهم قد بلغوا . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر من طريق الكلبى عن أبى صالح عنه قال : ﴿ **مع الشاهدين** ﴾ مع أصحاب محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : إن بنى إسرائيل حصروا عيسى وتسعة عشر رجلا من الحواريين فى بيت ، فقال عيسى لأصحابه: من يأخذ صورتى فيقتل وله الجنة ، فأخذها رجل منهم وصعد بعيسى إلى السماء فذلك قوله : ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ (١) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **إنى متوفيك** ﴾ يقول : مميتك . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن قال : متوفيك من الأرض . وأخرج الآخران عنه قال : وفاة المنام . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة قال : هذا من المقدم والمؤخر ، أى رافعك إلىّ ومتوفيك . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مطر الوراق قال : متوفيك من الدنيا وليس بوفاة موت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن وهب قال :توفى الله عيسى ثلاث ساعات من النهار حتى رفعه إليه (٢) . وأخرج ابن عساكر عنه قال : أماته ثلاثة أيام ثم بعثه ورفعه . وأخرج الحاكم عنه قال : توفى الله عيسى سبع

(١) ابن جرير ٣/ ٢٠٢ .

(٢) ابن جرير ٣/ ٢٠٣ .

ساعات [١]. وأخرج ابن سعد، وأحمد فى الزهد، والحاكم عن سعيد بن المسيب قال: رفع عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[٢]. وأخرج ابن عساكر عن وهب مثله. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله تعالى: ﴿ **ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ قال: طهره من اليهود والنصارى والمجوس ومن كفار قومه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿**وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا** ﴾ قال: هم أهل الإسلام الذين اتبعوه على فطرته وملته وسنته. وأخرج ابن جرير عن ابن جريج نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن نحوه أيضا. وأخرج ابن أبى حاتم وابن عساكر عن النعمان بن بشير: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يبالون بمن خالفهم حتى يأتى أمر الله » قال النعمان: من قال: إنى أقول على رسول الله ما لم يقل فإن تصديق ذلك فى كتاب الله ، قال الله : ﴿ **وجاعل الذين اتبعوك** ﴾ الآية . وأخرج ابن عساكر عن معاوية مرفوعًا نحوه ثم قرأ معاوية الآية . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : النصارى فوق اليهود إلى يوم القيامة، وليس بلد فيه أحد من النصارى إلا وهم فوق اليهود فى شرق ولا غرب ، هم فى البلدان كلها مستذلون [٣] .

﴿ **إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)** ﴾ .

تشبيه عيسى بآدم فى كونه مخلوقًا من غير أب كآدم ، ولا يقدح فى التشبيه اشتمال المشبه به على زيادة وهو كونه لا أم له ، كما أنه لا أب له ، فذلك أمر خارج عن الأمر المراد بالتشبيه، وإن كان المشبه به أشد غرابة من المشبه وأعظم عجبا وأغرب أسلوبا. وقوله : ﴿**خلقه من تراب** ﴾ جملة مفسرة لما أبهم فى المثل ، أى إن آدم لم يكن له أب ولا أم بل خلقه الله من تراب . وفى ذلك دفع لإنكار من أنكر خلق عيسى من غير أب مع اعترافه بأن آدم خلق من غير أب وأم . قوله: ﴿ **ثم قال له كن فيكون**﴾ أى كن بشرًا فكان بشرًا. وقوله: ﴿ **فيكون** ﴾ حكاية حال ماضية ، وقد تقدم تفسير هذا .

وقوله : ﴿ **الحق من ربك** ﴾ قال الفراء : هو مرفوع بإضمار هو . وقال أبو عبيدة : هو استئناف كلام وخبره قوله : ﴿ **من ربك** ﴾ وقيل : هو فاعل فعل محذوف ، أى جاءك الحق من ربك . قوله : ﴿ **فلا تكن من الممترين**﴾ الخطاب إما لكل من يصلح له من الناس ، أى لا

---

(١) الحاكم ٢/ ٥٩٦ وقال الذهبى : « فيه عبد المنعم وهو ساقط » .

(٢) ابن سعد ٣/ ٥٩٠ والحاكم ٣/ ٢٦٩ وفيه زيادة ووافقه الذهبى . (٣) ابن جرير ٣/ ٢٠٥ .

يكن أحد منكم ممتريًا ، أو للرسول ﷺ ، ويكون النهى له لزيادة التثبيت ؛ لأنه لا يكون منه شك فى ذلك .

قوله : ﴿ **فمن حاجك فيه** ﴾ هذا وإن كان عامًا فالمراد به الخاص ، وهم النصارى الذين وفدوا إليه ﷺ من نجران ، كما سيأتى بيانه ، ويمكن أن يقال : هو على عمومه وإن كان السبب خاصًا ، فيدل على جواز المباهلة منه ﷺ لكل من حاجه فى عيسى عليه السلام ، وأمته أسوته، وضمير ﴿ **فيه** ﴾ لعيسى ؛ والمراد بمجىء العلم هنا: مجىء سببه، وهو الآيات البينات، والمحاجة: المخاصمة والمجادلة . وقوله : ﴿ **تعالوا** ﴾ أى هلموا وأقبلوا ، وأصله الطلب لإقبال الذوات ، ويستعمل فى الرأى إذا كان المخاطب حاضرا كما تقول لمن هو حاضر عندك : تعال ننظر فى هذا الأمر. قوله : ﴿ **ندع أبناءنا** ﴾ إلخ اكتفى بذكر البنين عن البنات ، إما لدخولهن فى النساء ، أو لكونهم الذين يحضرون مواقف الخصام دونهن، ومعنى الآية : ليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه ونفسه إلى المباهلة ، وفيه دليل على أن أبناء البنات يسمون أبناء لكونه ﷺ أراد بالأبناء الحسنين كما سيأتى . قوله : ﴿**نبتهل**﴾ أصل الابتهال : الاجتهاد فى الدعاء باللعن وغيره . يقال : بهله الله ، أى لعنه ، والبهل : اللعن . قال أبو عبيد والكسائى: نبتهل: نلتعن ، ويطلق على الاجتهاد فى الهلاك ، ومنه قول لبيد:

فِى كُهُولٍ سَادَةٍ مِنْ قَوْمِه نَظَرَالدَّهْرُ إِلَيْـهِم فابْتَهَلْ

أى فاجتهد فى هلاكهم ، قال فى الكشاف : ثم استعمل فى كل دعاء يجتهد فيه وإن لم يكن التعانا [(١)]. قوله : ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ عطف على نبتهل مبين لمعناه ﴿**إن هذا** ﴾ أى الذى قصه الله على رسوله من نبأ عيسى ﴿ **لهو القصص الحق** ﴾ القصص : التتابع، يقال : فلان يقص أثر فلان ، أى يتبعه ، فأطلق على الكلام الذى يتبع بعضه بعضا ، وضمير الفصل للحصر ، ودخول اللام عليه لزيادة تأكيده ، ويجوز أن يكون مبتدأ وما بعده خبره وزيادة «من » فى قوله : ﴿ **من إله** ﴾ لتأكيد العموم ، وهو ردّ على من قال بالتثليث من النصارى .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما من حديث حذيفة ؛ أن العاقب والسيد أتيا رسول الله ﷺ فأراد أن يلاعنهما ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تلاعنه ، فو الله لئن كان نبيًا فلاعننا لا نفلح أبدًا نحن ولا عقبنا من بعدنا ، فقالوا له : نعطيك ما سألت فابعث معنا رجلا أميناً ، فقال :« قم يا أبا عبيدة» ، فلما قام قال : « هذا أمين هذه الأمة » [(٢)]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس ؛ أن رهطًا من أهل نجران قدموا على النبى ﷺ

(١) الكشاف ١/ ٣٦٨ .

(٢) البخارى فى المغازى (٤٣٨٠) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٢٠/٥٥) والترمذى فى المناقب (٣٧٩٦) وقال: « حسن صحيح » .

وكان فيهم السيد والعاقب ، فقالوا: ما شأنك تذكر صاحبنا ؟ قال : من هو ؟ قالوا : عيسى، تزعم أنه عبد الله ، قالوا : فهل رأيت مثل عيسى وأنبئت به ؟ ثم خرجوا من عنده، فجاء جبريل فقال : قل لهم إذا أتوك : ﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم** ﴾ إلى آخر الآية [١]. وقد رويت هذه القصة على وجوه عن جماعة من التابعين .

وأخرج الحاكم وصححه ، وابن مردويه ، وأبو نعيم فى الدلائل عن جابر قال : قدم على النبى ﷺ العاقب والسيد فدعاهما إلى الإسلام ، فقالا : أسلمنا يا محمد ، فقال :« كذبتما إن شئتما أخبرتكما ما يمنعكما من الإسلام»، قالا: فهات. قال: « حب الصليب ، وشرب الخمر، وأكل لحم الخنزير » ، قال جابر : فدعاهما إلى الملاعنة فواعداه على الغد ، فغدا رسول الله ﷺ وأخذ بيد على وفاطمة والحسن والحسين، ثم أرسل إليهما فأبيا أن يجيباه وأقرا له، فقال: « والذى بعثنى بالحق لو فعلا لأمطر الوادى عليهما نارًا ». قال جابر: فيهم نزلت: ﴿ **تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم** ﴾ الآية [٢] . قال جابر : ﴿**أنفسنا وأنفسكم** ﴾ رسول الله ﷺ وعلىّ ، ﴿**وأبناءنا** ﴾ الحسن والحسين ﴿ **ونساءنا** ﴾ فاطمة . ورواه أيضا الحاكم من وجه آخر عن جابر وصححه، وفيه أنهم قالوا للنبى ﷺ : هل لك أن نلاعنك؟ [٣] وأخرج مسلم والترمذى وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن سعد بن أبى وقاص ، قال : لما نزلت هذه الآية : ﴿**قل تعالوا**﴾ دعا رسول الله ﷺ عليا وفاطمة وحسنا وحسينا ، فقال : « اللهم هؤلاء أهلى»[٤]. وأخرج ابن عساكر عن جعفر بن محمد عن أبيه : ﴿**تعالوا ندع أبناءنا** ﴾ الآية ، قال : فجاء بأبى بكر وولده ، وبعمر وولده ، وبعثمان وولده ، وبعلى وولده . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق ابن جريج عن ابن عباس : ﴿ **ثم نبتهل** ﴾ : نجتهد . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « هذا الإخلاص » يشير بأصبعه التى تلى الإبهام ، « وهذا الدعاء » فرفع يديه حذو منكبيه ، « وهذا الابتهال » فرفع يديه مدًا [٥] .

﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)** ﴾

قيل : الخطاب لأهل نجران ، بدليل ما تقدم قبل هذه الآية . وقيل : ليهود المدينة .

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٠٧ .

(٢) الحاكم ٢/ ٥٩٣ ، ٥٩٤ وأبو نعيم فى الدلائل ص ٢٩٧ كما روى عن ابن عباس ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٣) الحاكم ٢/ ٥٩٤ .

(٤) مسلم فى فضائل الصحابة (٢٤٠٤/ ٣٢) والترمذى فى تفسير القرآن (٢٩٩٩) وقال : « حسن غريب صحيح » وصححه الحاكم ٣/ ١٥٠ وقال : « على شرط الشيخين ولم يخرجاه » ووافقه الذهبى . وإيراد الحاكم له « وهم » رحمه الله ، والبيهقى فى النكاح ٧/ ٦٣ .

(٥) صححه الحاكم ٤/ ٣٢٠ وقال الذهبى : « منكر » .

وقيل: لليهود والنصارى جميعًا ، وهو ظاهر النظم القرآنى ، ولا وجه لتخصيصه بالبعض ؛ لأن هذه دعوة عامة لا تختص بأولئك الذين حاجوا رسول الله ﷺ . والسواء : العدل . قال الفراء: يقال فى المعنى العدل : سوى وسواء ، فإذا فتحت السين مددت ، وإذا ضممت أو كسرت قصرت . قال زهير :

أرونىَ خُطَّةً لا ضَيْمَ فِيها يسوَّىَ بيننا فيها السَّوَاءُ

وفى قراءة ابن مسعود : « إلى كلمة عدل بيننا وبينكم » (١) ، فالمعنى : أقبلوا إلى ما دعيتم إليه وهى الكلمة العادلة المستقيمة التى ليس فيها ميل عن الحق ، وقد فسرها بقوله : ﴿**ألا نعبد إلا الله**﴾ وهو فى موضع خفض على البدل من كلمة، أو رفع على إضمار مبتدأ ، أى هى ألا نعبد، ويجوز أن تكون « أن » مفسرة لا موضع للجملة التى دخلت عليها ، وفى قوله: ﴿**ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا**﴾ تبكيت لمن اعتقد ربوبية المسيح وعزير ، وإشارة إلى أن هؤلاء من جنس البشر وبعض منهم، وإزراء على من قلد الرجال فى دين الله فحلل ما حللوه له، وحرم ما حرموه عليه، فإن من فعل ذلك فقد اتخذ من قلده ربا، ومنه: ﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾ [التوبة: ٣١] وقد جوز الكسائى والفراء الجزم فى ﴿**ولا نشرك**﴾ ﴿**ولا يتخذ** ﴾ على التوهم. قوله: ﴿**فإن تولوا**﴾ أى أعرضوا عما دعوا إليه ﴿**فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**﴾ أى منقادون لأحكامه مرتضون به معترفون بما أنعم الله به علينا من هذا الدين القويم.

وقد أخرج البخارى ومسلم والنسائى عن ابن عباس قال : حدثنى أبو سفيان أن هرقل دعا بكتاب رسول الله ﷺ فقرأه ، فإذا فيه : « بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله ﷺ إلى هرقل عظيم الروم :سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد : فإنى أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين (٢) ، و﴿**يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم** ﴾ إلى قوله : ﴿ **بأنا مسلمون**﴾ » (٣) . وأخرج الطبرانى عن ابن عباس أن كتاب رسول الله ﷺ إلى الكفار : ﴿ **تعالوا إلى كلمة** ﴾ الآية(٤) . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج قال : بلغنى أن رسول الله ﷺ دعا يهود المدينة إلى ما فى هذه الآية فأبوا عليه ، فجاهدهم حتى أقروا بالجزية (٥) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن النبى ﷺ دعا يهود أهل المدينة إلى الكلمة السواء(٦) . وأخرج ابن جرير عن الربيع نحوه (٧) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة:

---

(١) هذه مقالة الفراء فى معانى القرآن ١/ ٢٢٠ .

(٢) اختلفوا فى المراد بهم على أقوال : أصحها وأشهرها : أنهم الأكارون ، أى الفلاحون والزارعون ، ومعناه إن عليك إثم رعاياك الذين يتبعونك وينقادون بانقيادك ونبه بهؤلاء على جميع الرعايا ؛ لأنهم الأغلب .

(٣) البخارى فى الجهاد (٢٩٣٦) ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٧٣/ ٧٤) والنسائى فى التفسير (٨٤) .

(٤) الطبرانى (١١١٠٣) .

(٥ ــ ٧) ابن جرير ٣/ ٢١٣ .

﴿ **إلى كلمة سواء** ﴾ قال: عدل. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله: ﴿**ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا**﴾ قال: لا يطيع بعضنا بعضا فى معصية الله، ويقال: إن تلك الربوبية، أن يطيع الناس سادتهم وقادتهم فى غير عبادة وإن لم يصلوا لهم. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن عكرمة فى قوله: ﴿ **ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا** ﴾ قال : سجود بعضهم لبعض .

﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالإِنجِيلُ إِلاَّ مِن بَعْدِهِ أَفَلا تَعْقِلُونَ (٦٥) هَا أَنتُمْ هَؤُلاءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)** ﴾ .

لما ادعت كل واحدة من طائفتى اليهود والنصارى أن إبراهيم عليه السلام كان على دينهم، ردّ الله سبحانه ذلك عليهم ، وأبان بأن الملة اليهودية والملة النصرانية إنما كانتا من بعده . قال الزجاج : هذه الآية أبين حجة على اليهود والنصارى، أن التوراة والإنجيل نزلا من بعده ، وليس فيهما اسم لواحد من الأديان واسم الإسلام فى كل كتاب . انتهى . وفيه نظر ، فإن الإنجيل مشحون بالآيات من التوراة ، وذكر شريعة موسى والاحتجاج بها على اليهود ، وكذلك الزبور فيه فى مواضع ذكر شريعة موسى ، وفى أوائله التبشير بعيسى ، ثم فى التوراة ذكر كثير من الشرائع المتقدمة ، يعرف هذا كل من عرف هذه الكتب المنزلة . وقد اختلف فى قدر المدة التى بين إبراهيم وموسى ، والمدة التى بين موسى وعيسى ، قال القرطبى: يقال : كان بين إبراهيم وموسى ألف سنة ، وبين موسى وعيسى ألفا سنة ، وكذا فى الكشاف (١) . قوله : ﴿**أفلا تعقلون** ﴾ أى تتفكرون فى دحوض حجتكم وبطلان قولكم .

قوله: ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم** ﴾ الأصل فى ها أنتم: أأنتم ، أبدلت الهمزة الأولى هاء؛ لأنها أختها ، كذا قال أبو عمرو بن العلاء والأخفش . قال النحاس : وهذا قول حسن . وقرأ قنبل : « هانتم » . وقيل: الهاء للتنبيه دخلت على الجملة التى بعدها ، أى ها أنتم هؤلاء الرجال الحمقى حاججتم . وفى : ﴿ **هؤلاء** ﴾ لغتان المد والقصر، والمراد بما لهم به علم : هو ما كان فى التوراة ، وإن خالفوا مقتضاه وجادلوا فيه بالباطل ، والذى لا علم لهم به هو زعمهم أن إبراهيم كان على دينهم لجهلهم بالزمن الذى كان فيه ، وفى الآية دليل على منع الجدال بالباطل ، بل ورد الترغيب فى ترك الجدال من المحق كما فى حديث : « من

---

(١) القرطبى ٢/ ١٣٤٩ والكشاف ١/ ٣٧١ .

ترك المراء ولو محقا فأنا ضمينه على الله ببيت فى ربض الجنة » [١] وقد ورد تسويغ الجدال بالتى هى أحسن لقوله تعالى : ﴿ وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ [النحل : ١٢٥]، ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن ﴾ [العنكبوت : ٤٦]ونحو ذلك فينبغى أن يقصر جوازه على المواطن التى تكون المصلحة فى فعله أكثر من المفسدة ، أو على المواطن التى المجادلة فيها بالمحاسنة لا بالمخاشنة . قوله :﴿ **والله يعلم** ﴾ أى كل شىء فيدخل فى ذلك ما حاججوا به . وقد تقدم تفسير الحنيف .

قوله : ﴿ **إن أولى الناس** ﴾ أى أحقهم به وأخصهم للذين اتبعوا ملته واقتدوا بدينه . ﴿**وهذا النبى** ﴾ يعنى محمدا ﷺ ، أفرده بالذكر تعظيمًا له وتشريفا ، وأولويته ﷺ بإبراهيم من جهة كونه من ذريته ، ومن جهة موافقته لدينه فى كثير من الشريعة المحمدية ﴿ **والذين آمنوا**﴾ من أمة محمد ﷺ .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فنزل فيهم :﴿ **يأهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم** ﴾ الآية [٢] . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف .

وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية ﴿**ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم**﴾ يقول: فيما شهدتم ورأيتم وعاينتم ﴿ **فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم** ﴾ يقول : فيما لم تشهدوا ولم تروا ولم تعاينوا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة مثله. وأخرج ابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال :أما الذى لهم به علم فما حرم عليهم وما أمروا به ، وأما الذى ليس لهم به علم فشأن إبراهيم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : يعذر من حاج بعلم، ولا يعذر من حاج بالجهل . وأخرج ابن جرير عنه ، عن الشعبى فى قوله : ﴿ **ماكان إبراهيم**﴾ قال : أكذبهم الله وأدحض حجتهم . وأخرج أيضا عن الربيع مثله . وأخرج ابن أبى حاتم ، عن مقاتل بن حيان نحوه .

وأخرج عبد بن حميد من طريق شهر بن حوشب حدثنى ابن غنم ؛ أنه لما خرج أصحاب رسول الله ﷺ إلى النجاشى ، فذكر قصتهم معه وما قالوه له لما قال له عمرو بن العاص : إنهم يشتمون عيسى ، وهى قصة مشهورة ؛ ثم قال : فأنزلت ذلك اليوم خصومتهم على رسول الله ﷺ وهو بالمدينة ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم**﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن مسعود أن

---

(١) الترمذى فى البر والصلة (١٩٩٣) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى المقدمة (٥١) .
(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤٤ وابن جرير ٣/ ٢١٦ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٣٨٤ .

رسول الله ﷺ قال: « إن لكل نبى ولاة من النبيين وإن وليى منهم أبى وخليل ربى » ثم قرأ : ﴿ **إن أولى الناس** ﴾ الآية [١] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحكم بن ميناء ؛ أن رسول الله ﷺ قال : « يامعشر قريش ، إن أولى الناس بالنبى المتقون ، فكونوا أنتم سبيل ذلك فانظروا ألا يلقانى الناس يحملون الأعمال ، وتلقونى بالدنيا تحملونها ، فأصد عنكم بوجهى » ثم قرأ عليهم: ﴿**إن أولى الناس بإبراهيم** ﴾ الآية . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال: كل مؤمن ولى إبراهيم ممن مضى وممن بقى .

﴿ **وَدَّت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ (٧١) وَقَالَت طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلا تُؤْمِنُوا إِلاَّ لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللَّهِ أَن يُؤْتَىٰ أَحَدٌ مِّثْلَ مَا أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)** ﴾ .

الطائفة من أهل الكتاب : هم يهود بنى النضير وقريظة وبنى قينقاع ، حين دعوا جماعة من المسلمين إلى دينهم ، وسيأتى . وقيل: هم جميع أهل الكتاب ، فتكون « من » لبيان الجنس . وقوله : ﴿ **وما يضلون إلا أنفسهم** ﴾ جملة حالية للدلالة على ثبوت قدم المؤمنين فى الإيمان ، فلا يعود وبال من أراد فتنتهم إلا عليه . والمراد بآيات الله : ما فى كتبهم من دلائل نبوة محمد ﷺ ﴿ **وأنتم تشهدون** ﴾ ما فى كتبكم من ذلك ، أو تشهدون بمثلها من آيات الأنبياء الذين تقرون بنبوتهم ، أو المراد : كتم كل الآيات عنادا وأنتم تعلمون أنها حق . ولبس الحق بالباطل: خلطه بما يتعمدونه من التحريف ﴿**وأنتم تعلمون** ﴾ جملة حالية .

قوله : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب** ﴾ هم رؤساؤهم وأشرافهم ، قالوا للسفلة من قومهم هذه المقالة. ووجه النهار : أوله ، وسمى وجهًا ؛ لأنه أحسنه . قال :

تُضِيءُ فى وَجْهِ النَّهار مُنِيرةً كجُمَانَة البحرى سُلَّ نظامُها

وهو منصوب على الظرف ، أمروهم بذلك لإدخال الشك على المؤمنين ، لكونهم يعتقدون أن أهل الكتاب لديهم علم، فإذا كفروا بعد الإيمان وقع الريب لغيرهم واعتراه الشك،

---

(١) أحمد ١/ ٤٠١ والترمذى (٢٩٩٥) وقال :«هذا أصح من حديث أبى الضحى عن مسروق» وأبو الضحى اسمه سلم بن صبيح ، وابن جرير: ٣/ ٢١٨ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٢ وقال : «على شرطيهما » ووافقه الذهبى .

وهم لا يعلمون أن الله قد ثبت قلوب المؤمنين ، ومكن أقدامهم ، فلا تزلزلهم أراجيف أعداء الله ، ولا تحركهم ريح المعاندين .

قوله : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾ هذا من كلام اليهود بعضهم لبعض ، أى قال ذلك الرؤساء للسفلة : لا تصدقوا تصديقاً صحيحًا إلا لمن تبع دينكم من أهل الملة التى أنتم عليها ، وأما غيرهم ممن قد أسلم فأظهروا لهم ذلك خداعًا ﴿ **وجه النهار واكفروا آخره** ﴾ ليفتتنوا ،ويكون قوله : ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ على هذا متعلقًا بمحذوف ، أى فعلتم ذلك لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، يعنى أن ما بكم من الحسد والبغى أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم من فضل العلم والكتاب دعاكم إلى أن قلتم ما قلتم ، وقوله : ﴿ **أو يحاجوكم** ﴾ معطوف على ﴿ **أن يؤتى** ﴾ أى لا تؤمنوا إيمانًا صحيحًا وتقروا بما فى صدوركم إقرارًا صادقًا لغير من تبع دينكم، فعلتم ذلك ودبرتموه أن المسلمين يحاجوكم يوم القيامة عند الله بالحق .

وقوله : ﴿ **إن الهدى هدى الله** ﴾ جملة اعتراضية . وقال الأخفش : المعنى : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم، ولا تؤمنوا أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، ولا تصدقوا أن يحاجوكم ، فذهب إلى أنه معطوف. وقيل: المراد : لا تؤمنوا وجه النهار وتكفروا آخره إلا لمن تبع دينكم، أى لمن دخل فى الإسلام وكان من أهل دينكم قبل إسلامه ؛ لأن إسلام من كان منهم هو الذى قتلهم غيظا ، وأماتهم حسرة وأسفًا ، ويكون قوله : ﴿ **أن يؤتى** ﴾ على هذا متعلقا بمحذوف كالأول. وقيل: إن قوله : ﴿ **أن يؤتى** ﴾ متعلق بقوله :﴿ **لا تؤمنوا** ﴾ أى لا تظهروا إيمانكم بـ ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ أى أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ولا تفشوه إلا لأتباع دينكم . وقيل : المعنى : ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، بالمد على الاستفهام تأكيدا للإنكار الذى قالوه أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، فتكون على هذا «أن» وما بعدها فى محل رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره : تصدقون بذلك، ويجوز أن تكون فى محل نصب على إضمار فعل تقديره : تقرون أن يؤتى . وقد قرأ : « آن يؤتى» بالمد ابن كثير وابن محيصن وحميد . وقال الخليل: « أن » فى موضع خفض والخافض محذوف. وقال ابن جريج : المعنى : و لا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم كراهية أن يؤتى . وقيل : المعنى: لا تخبروا بما فى كتابكم من صفة محمد ﷺ إلا من تبع دينكم ، لئلا يكون ذلك سببا لإيمان غيرهم بمحمد ﷺ . وقال الفراء: يجوز أن يكون قد انقطع كلام اليهود عند قوله : ﴿**إلا لمن تبع دينكم**﴾ ثم قال الله لمحمد ﷺ :﴿ **قل إن الهدى هدى الله** ﴾ أى إن البيان الحق بيان الله، بين ألا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم على تقدير « لا » كقوله تعالى : ﴿ يبين الله لكم أن تضلوا ﴾ [النساء : ١٧٦] أى لئلا تضلوا .

و « أو » فى قوله : ﴿ **أو يحاجوكم** ﴾ بمعنى حتى [١] ، وكذلك قال الكسائى ، وهى

---

(١) كما قال امرؤ القيس :

فقلت له لا تبك عينك إنما نحاول ملكًا أو نموت فنعذرا

عند الأخفش عاطفة ، كما تقدم . وقيل : إن هدى الله بدل من الهدى، وأن يؤتى خبر « إن» على معنى : قل إن هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وقد قيل : إن هذه الآية أعظم آى هذه السورة إشكالا وذلك صحيح. وقرأ الحسن :« يؤتى » بكسر التاء الفوقية . وقرأ سعيد بن جبير : « إن يؤتى » بكسر الهمزة على أنها النافية . وقوله : ﴿ **يختص برحمته من يشاء**﴾ قيل: هى النبوة . وقيل : أعم منها ، وهو ردّ عليهم ودفع لما قالوه ودبروه .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن سفيان قال : كل شىء فى آل عمران من ذكر أهل الكتاب فهو فى النصارى ، ويدفع هذا أن كثيرًا من خطابات أهل الكتاب المذكورة فى هذه السورة لا يصح حملها على النصارى البتة ، ومن ذلك هذه الآيات التى نحن بصدد تفسيرها ، فإن الطائفة التى ودت إضلال المسلمين ، وكذلك الطائفة القائلة : ﴿ **آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار** ﴾ هى من اليهود خاصة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى قوله : ﴿ **يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون** ﴾ قال : تشهدون أن نعت نبى الله محمد فى كتابكم ، ثم تكفرون به وتنكرونه ولا تؤمنون به وأنتم تجدونه مكتوبا عندكم فى التوراة والإنجيل النبى الأمى[1]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الربيع مثله . وأخرجا أيضا عن السدى نحوه. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن جريج: ﴿**وأنتم تشهدون**﴾ على أن الدين عند الله الإسلام ليس لله دين غيره . وأخرجا عن الربيع فى قوله: ﴿ **لم تلبسون الحق بالباطل** ﴾ يقول : لم تخلطون اليهودية والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذى لا يقبل من أحد غيره الإسلام ﴿ **وتكتمون الحق** ﴾ يقول : تكتمون شأن محمد ، وأنتم تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة والإنجيل . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة مثله .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن الصيف وعدىّ بن زيد والحارث بن عوف بعضهم لبعض : تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غدوة ، ونكفر به عشية ، حتى نلبس عليهم دينهم لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعون عن دينهم . فأنزل الله فيهم : ﴿ **يأهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل**﴾ إلى قوله : ﴿ **والله واسع عليم** ﴾ [2] . وقد روى نحو هذا عن جماعة من السلف . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه والضياء فى المختارة من طريق أبى ظبيان عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وقالت طائفة . . .**﴾ الآية . قال : كانوا يكونون معهم أول النهار ويجالسونهم ويكلمونهم ، فإذا أمسوا وحضرت الصلاة كفروا به وتركوه .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة فى قوله : ﴿ **ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم** ﴾

(١) ابن جرير ٣/ ٢٢٠ . (٢) ابن إسحاق ٢/ ١٤٤ ، ١٤٥ وابن جرير ٣/ ٢٢٠ .

قال: هذا قول بعضهم لبعض. وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج أيضا عن السدى نحوه. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد : ﴿ **أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ حسدًا من يهود أن تكون النبوة فى غيرهم ، وإرادة أن يتابعوا على دينهم . وأخرج عبد ابن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى مالك وسعيد بن جبير : ﴿**أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ قال : أمة محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى ؛ قال الله لمحمد ﷺ :﴿ **إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ يا أمة محمد ﴿ **أو يحاجوكم عند ربكم** ﴾ يقول اليهود: فعل الله بنا كذا وكذا من الكرامة حتى أنزل علينا المن والسلوى ، فإن الذى أعطيتكم أفضل فقولوا : ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء** ﴾ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، عن قتادة ﴿ **قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم** ﴾ يقول : لما أنزل الله كتابًا مثل كتابكم وبعث نبيا كنبيكم حسدتموه على ذلك ﴿ **قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله . وأخرج ابن جرير عن ابن جريج : ﴿ **قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ماأوتيتم** ﴾ يقول: هذا الأمر الذى أنعم الله عليه ﴿**أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم**﴾ قال : قال بعضهم لبعض :لا تخبروهم بما بين الله لكم فى كتابه لـ﴿**يحاجوكم**﴾ قال : ليخاصموكم به ﴿**عند ربكم**﴾ فتكون لهم حجة عليكم ﴿**قل إن الفضل بيد الله**﴾ قال: الإسلام ﴿**يختص برحمته من يشاء**﴾ قال : القرآن والإسلام . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **يختص برحمته من يشاء** ﴾ قال : النبوة . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال: رحمته : الإسلام يختص بها من يشاء .

﴿ **وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)** ﴾ .

هذا شروع فى بيان خيانة اليهود فى المال بعد بيان خيانتهم فى الدين . والجار والمجرور فى قوله : ﴿ **ومن أهل الكتاب** ﴾ فى محل رفع على الابتداء على مامر فى قوله: ﴿ ومن الناس من يقول ﴾ [البقرة : ٨] وقد تقدم تفسير القنطار. وقوله : ﴿ **تأمنه** ﴾ هذه قراءة الجمهور . وقرأ ابن وثاب والأشهب العقيلى : « تيمنه » ، بكسر التاء الفوقية على لغة بكر وتميم ، ومثله قراءة من قرأ : « نستعين » [الفاتحة : ٥] بكسر النون . وقرأ نافع والكسائى : ﴿ **يؤده** ﴾ بكسر الهاء فى الدرج. قال أبو عبيد : واتفق أبو عمرو والأعمش وحمزة وعاصم فى رواية أبى

بكر على إسكان الهاء . قال النحاس : إسكان الهاء لا يجوز إلا فى الشعر عند بعض النحويين. وبعضهم لا يجيزه البتة ، ويرى أنه غلط من قرأ به ، ويوهم أن الجزم يقع على الهاء ، وأبو عمرو أجلّ من أن يجوز عليه شيء من هذا ، والصحيح عنه أنه كان يكسر الهاء. وقال الفراء : مذهب بعض العرب بسكون الهاء إذا تحرك ما قبلها ، فيقولون : ضربته ضربًا شديدًا ، كما يسكنون ميم أنتم وقمتم ، وأنشد:

لما رأى أن لا دَعَــهْ وَلاشِبَعْ مال إلى أرْطاة [1] حِقْفٍ فاضْطجَع

وقرأ أبو المنذر سلام والزهرى « يؤده » بضم الهاء بغير واو . وقرأ قتادة وحمزه ومجاهد: « يؤدهو » بواو فى الإدراج[2] ، ومعنى الآية : أن أهل الكتاب فيهم الأمين الذى يؤدى أمانته وإن كانت كثيرة ، وفيهم الخائن الذى لا يؤدى أمانته وإن كانت حقيرة . ومن كان أمينًا فى الكثير فهو فى القليل أمين بالأولى . ومن كان خائنًا فى القليل فهو فى الكثير خائن بالأولى . وقوله : ﴿ **إلا مادمت عليه قائما** ﴾ استثناء مفرغ ، أى لا يؤده إليك فى حال من الأحوال إلا مادمت عليه قائما مطالبًا له مضيقًا عليه ، متقاضيًا لردّه ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ترك الأداء المدلول عليه بقوله : ﴿ **لا يؤده** ﴾. والأسيون هم العرب الذين ليسوا أهل كتاب ، أى ليس علينا فى ظلمهم حرج لمخالفتهم لنا فى ديننا ، وادّعوا، لعنهم الله ، أن ذلك فى كتابهم، فرد الله سبحانه عليهم بقوله : ﴿**ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون** ﴾.

﴿ **بلى** ﴾ أى بلى عليهم سبيل ؛ لكذبهم واستحلالهم أموال العرب ، فقوله : ﴿ **بلى** ﴾ « إثبات لما نفوه من السبيل». قال الزجاج : تم الكلام بقوله : ﴿ **بلى** ﴾ ثم قال : ﴿ **من أوفى بعهده واتقى** ﴾ وهذه جملة مستأنفة ، أى من أوفى بعهده واتقى فليس من الكاذبين ، أو فإن الله يحبه ، والضمير فى قوله : ﴿ **بعهده** ﴾ راجع إلى « من » ، أو إلى الله تعالى، وعموم المتقين قائم مقام العائد إلى « مَن » ، أى فإن الله يحبه .

قوله : ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله** ﴾ أى يستبدلون ، كما تقدم تحقيقه غير مرة ، وعهد الله : هو ما عاهدوه عليه من الإيمان بالنبى ﷺ ، والأيمان :هى التى كانوا يحلفون أنهم يؤمنون به وينصرونه ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية.﴿**أولئك** ﴾ أى الموصوفون بهذه الصفة ﴿ **لا خلاق لهم فى الآخرة** ﴾ أى لا نصيب ﴿ **ولا يكلمهم الله** ﴾ بشيء أصلا ، كما يفيده حذف المتعلق من التعميم أو لا يكلمهم بما يسرهم ﴿ **ولا ينظر إليهم يوم القيامة** ﴾ نظر رحمة ، بل يسخط عليهم ويعذبهم بذنوبهم كما يفيده قوله : ﴿ **ولهم عذاب أليم** ﴾ .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله : ﴿ **ومن أهل الكتاب من إن**

(١) الأرطاة : واحدة الأرطى ، وهو شجر من شجر الرمل ، والحقف ـ بالكسر: ما اعوج من الرمل . اللسان ٩/ ٥٢ .

(٢) القرطبى ٢/ ١٣٥٨ .

تأمنه بقنطار يؤده إليك ﴾ قال : هذا من النصارى ﴿ **ومنهم من إن تأمنه بدينار** ﴾ قال : هذا من اليهود ﴿ **إلا مادمت عليه قائمًا** ﴾ قال : إلا ما طالبته واتبعته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ قال : قالت اليهود: ليس علينا فيما أصبنا من مال العرب سبيل . وأخرج ابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله : ﴿ **ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ قال النبى ﷺ : « كذب أعداء الله ، ما من شىء كان فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر»[(١)]. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، عن صعصعة أنه سأل ابن عباس فقال : إنا نصيب فى الغزو من أموال أهل الذمة الدجاجة والشاة ، قال ابن عباس : فتقولون ماذا ؟ قال : نقول : ليس علينا فى ذلك من بأس ، قال : هذا كما قال أهل الكتاب : ﴿**ليس علينا فى الأميين سبيل** ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحل لكم أموالهم إلا بطيب نفوسهم [(٢)] . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس ﴿ **بلى من أوفى بعهده واتقى** ﴾ يقول: اتقى الشرك . ﴿ **فإن الله يحب المتقين** ﴾ يقول : الذين يتقون الشرك .

وأخرج البخارى ومسلم وأهل السنن وغيرهم عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ : «من حلف على يمين هو فيها فاجر ليقتطع بها مال امرئ مسلم لقى الله وهو عليه غضبان » فقال الأشعث بن قيس : فىّ والله كان ذلك ، كان بينى وبين رجل من اليهود أرض فجحدنى، فقدمته إلى النبى ﷺ ، فقال لى رسول الله ﷺ :« ألكَ بينة ؟» قلت : لا ، قال لليهودى : «احلف»، فقلت : إذن يحلف فيذهب مالى ، فأنزل الله: ﴿ **إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا**﴾ إلى آخر الآية [(٣)] . وقد روى أن سبب نزولها مخاصمة كانت بين الأشعث وامرئ القيس ورجل من حضر موت ، أخرجه النسائى وغيره [(٤)] .

﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** (٧٨) ﴾ .

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٢٧ . قال الشيخ أحمد شاكر : «هو حديث مرفوع ، ولكنه مرسل ؛ لأن سعيد بن جبير تابعى ، وإسناده إليه إسناد جيد » .

(٢) أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الأموال ص ١٤٩ رقم ٤١٥ والبيهقى ٩/ ١٩٨ وأورده ابن كثير فى التفسير ٢/ ٥٩ عن عبد الرزاق فى تفسيره .والدر المنثور ٢/ ٤٤ ونسبه لابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، وساقه الزمخشرى فى تفسيرالآية بنص أبى جعفر .

(٣) أحمد ١/ ٣٧٧، ٣٧٩، ٤١٦، ٤٢٦ ، ٥/ ٢١١ ـ ٢١٣ ، والبخارى فى المساقاة (٢٣٥٦، ٢٣٥٧) وفى المحصنات (٢٤١٦ ، ٢٤١٧) وفى الرهن (٢٥١٥ ، ٢٥١٦) ومسلم فى الإيمان (١٣٨ / ٢٢٠) وأبو داود فى الأيمان والنذور (٣٢٤٣) والترمذى فى التفسير (٢٩٩٦) وقال: «حسن صحيح» والنسائى فى التفسير (٥٧) وابن ماجة فى الأحكام (٢٣٢٣) .

(٤) النسائى فى التفسير (٨٣) والطبرانى (١٠٤٧٨) .

أى طائفة من اليهود﴿ **يلوون** ﴾ أى يحرفون ويعدلون به عن القصد . وأصل اللىّ : الميل، يقولون : لوى برأسه : إذا أماله. وقرئ: «يلوّون» بالتشديد، و: «**يلون**» بقلب الواو همزة، ثم تخفيفها بالحذف، والضمير فى قوله: ﴿**لتحسبوه**﴾: يعود إلى مادلّ عليه: ﴿**يلوون**﴾ وهو المحرف الذى جاؤوا به. قول: ﴿**وما هو من الكتاب**﴾ جملة حالية، وكذلك قوله: ﴿**وما هو من عند الله**﴾ وكذلك قوله: ﴿**وهم يعلمون**﴾ أى أنهم كاذبون مفترون.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإن منهم لفريقًا يلوون ألسنتهم** ﴾ قال : هم اليهود، كانو يزيدون فى الكتاب ما لم ينزل الله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ؛ قال : يحرفونه .

﴿ **مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ وَلَكِن كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ (٨٠)** ﴾ .

أى ما كان ينبغى ولا يستقيم لبشر أن يقول هذه المقالة وهو متصف بتلك الصفة ، وفيه بيان من الله سبحانه لعباده أن النصارى افتروا على عيسى عليه السلام مالم يصح عنه ، ولا ينبغى أن يقوله . والحكم : الفهم والعلم. قوله : ﴿ **ولكن كونوا** ﴾ أى ولكن يقول النبى : كونوا ربانيين . والربانى : منسوب إلى الرب بزيادة الألف والنون للمبالغة ، كما يقال لعظيم اللحية : لحيانى ، ولعظيم الجمة : جمانى ، ولغليظ الرقبة :رقبانى . قيل : الربانى : الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره، فكأنه يقتدى بالرب سبحانه فى تيسير الأمور . وقال المبرد: الربانيون: أرباب العلم ، واحدهم ربانى ، من قوله : ربه يربه فهو ربان : إذا دبره وأصلحه ، والياء للنسب ، فمعنى الربانى : العالم بدين الرب ، القوى التمسك بطاعة الله . وقيل : العالم الحكيم . قوله : ﴿ **بما كنتم تعلمون** ﴾ أى بسبب كونكم عالمين ، أى كونوا ربانيين بهذا السبب ، فإن حصول العلم للإنسان والدراسة له يتسبب عنهما الربانية التى هى التعليم للعلم وقوة التمسك بطاعة الله ، وقرأ ابن عباس وأهل الكوفة :« بما كنتم تعلمون » بالتشديد ، وقرأ أبو عمرو وأهل المدينة بالتخفيف ، واختار القراءة الأولى أبو عبيد قال : لأنها لجمع المعنيين . قال مكى : التشديد أبلغ ؛ لأن العالم قد يكون عالما بغير معلم ، فالتشديد يدل على العلم والتعليم ، والتخفيف إنما يدل على العلم فقط . واختار القراءة الثانية أبو حاتم. قال أبو عمرو : وتصديقها : ﴿ **تدرسون** ﴾ بالتخفيف دون التشديد . انتهى . والحاصل أن من قرأ بالتشديد لزمه أن يحمل الربانى على أمر زائد على العلم والتعليم ، وهو أن يكون مع ذلك مخلصًا أو حكيمًا أو حليما حتى تظهر السببية ؛ ومن قرأ بالتخفيف جاز له أن يحمل الربانى على العالم الذى يعلم الناس ، فيكون المعنى كونوا معلمين بسبب

كونكم علماء وبسبب كونكم تدرسون العلم . وفى هذه الآية أعظم باعث لمن علم على أن يعمل، وإن من أعظم العمل بالعلم تعليمه والإخلاص لله سبحانه .

قوله: ﴿ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا﴾ بالنصب عطفا على: ﴿ثم يقول﴾، «ولا» مزيدة لتأكيد النفى ، أى ليس له أن يأمر بعبادة نفسه ولا يأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابًا بل ينتهى عنه ، ويجوز عطفه على أن يؤتيه ، أى ما كان لبشر أن يأمركم بأن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا ؛ وبالنصب قرأ ابن عامر وعاصم وحمزة ، وقرأ الباقون بالرفع على الاستئناف والقطع من الكلام الأول ، أى ولا يأمركم الله أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا ، ويؤيده أن فى مصحف ابن مسعود : « ولن يأمركم » . والهمز فى قوله : ﴿ أيأمركم ﴾ لإنكار ما نفى عن البشر . وقوله : ﴿ بعد إذ أنتم مسلمون ﴾ استدل به من قال : إن سبب نزول الآية استئذان من استأذن النبى ﷺ من المسلمين فى أن يسجدوا له .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الدلائل ؛ عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القرظى ،حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام : أترِيد يامحمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ؟ فقال رسول الله ﷺ : « معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو أن نأمر بعبادة غيره ما بذلك بعثنى ولا بذلك أمرنى » فأنزل الله فى ذلك :﴿ ما كان لبشر ﴾ الآية[1] . وأخرج عبد بن حميد عن الحسن قال: بلغنى أن رجلا قال : يارسول الله ، نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض أفلا نسجد لك ؟ قال : « لا ، ولكن أكرموا نبيكم ، واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله » فأنزل الله : ﴿ ما كان لبشر . . .﴾ الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ ربانيين ﴾ قال : فقهاء علماء. وأخرج ابن أبى حاتم عنه قال : حكماء علماء حلماء . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : علماء فقهاء. وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود قال : حكماء علماء . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى رزين فى قوله : ﴿ وبما كنتم تدرسون ﴾ قال : مذاكرة الفقه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج فى قوله : ﴿ ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة ﴾ قال : ولا يأمرهم النبى .

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) ﴾ .

قد اختلف فى تفسير قوله تعالى : ﴿ وإذ أخذ الله ميثاق النبيين ﴾ فقال سعيد بن جبير

(١) ابن إسحاق ٢/ ١٤٥ وابن جرير ٣/ ٢٣٢ والبيهقى فى الدلائل ٥/ ٣٨٤ .

وقتادة وطاوس والحسن والسدى : إن أخذ الله ميثاق الأنبياء : أن يصدق بعضهم بعضًا بالإيمان، ويأمر بعضهم بعضا بذلك ، فهذا معنى النصرة له والإيمان به، وهو ظاهر الآية ، فحاصله : أن الله أخذ ميثاق الأول من الأنبياء أن يؤمن بما جاء به الآخر وينصره . وقال الكسائى : يجوز أن يكون معنى : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ بمعنى : وإذ أخذ الله ميثاق الذين مع النبيين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : « وإذ أخذ الله **ميثاق** الذين أوتوا الكتاب » . وقيل : فى الكلام حذف . والمعنى : وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتعلمن الناس لما جاءكم من كتاب وحكمة ولتأخذن على الناس أن يؤمنوا ، ودل على هذا الحذف قوله : ﴿ **وأخذتم على ذلكم إصرى** ﴾ . و «ما» فى قوله : ﴿ **لما آتيتكم** ﴾ بمعنى الذى . قال سيبويه : سألت الخليل عن قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم** ﴾ فقال : « ما » بمعنى الذى . قال النحاس : التقدير فى قول الخليل : الذى آتيتكموه ، ثم حذفت الهاء لطول الاسم ، واللام لام الابتداء ، وبهذا قال الأخفش ، وتكون « ما » فى محل رفع على الابتداء وخبرها من كتاب وحكمة .

وقوله : ﴿ **ثم جاءكم** ﴾ وما بعده جملة معطوفة على الصلة ، والعائد محذوف ، أى مصدق به . وقال المبرد والزجاج والكسائى : « ما » شرطية دخلت عليها لام التحقيق كما تدخل على « إن » ، و ﴿ **ولتؤمنن به** ﴾ جواب القسم الذى هو أخذ الميثاق ، إذ هو بمنزلة الاستحلاف كما تقول : أخذت ميثاقك لتفعلنّ كذا ، وهو سادّ مسادّ الجزاء . وقال الكسائى: إن الجزاء قوله : ﴿ **فمن تولى** ﴾ . وقال فى الكشاف : إن اللام فى قوله : ﴿ **لما آتيتكم** ﴾ لام التوطئة واللام فى قوله : ﴿ **لتؤمنن** ﴾ جواب القسم ، و « ما » يحتمل أن تكون المتضمنة لمعنى الشرط و﴿ **لتؤمنن** ﴾ سادّ مسدّ جواب القسم والشرط جميعا ، وأن تكون موصولة بمعنى الذى آتيتكموه لتؤمنّ به . انتهى [1] . وقرأ حمزة : « لماآتيتكم » بكسر اللام « وما » بمعنى الذى وهى متعلقة بأخذ . وقرأ أهل المدينة : « آتيناكم » على التعظيم . وقرأ الباقون : ﴿ **آتيتكم** ﴾ على التوحيد . وقيل : إن « ما » فى قراءة من قرأ بكسر اللام مصدرية ومعناه : لأجل إيتائى إياكم بعض الكتاب والحكمة ، ثم لمجىء رسول مصدق لما معكم ، واللام لام التعليل ، أى لأجل ذلك أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتؤمنن به .

قوله: ﴿ **أقررتم** ﴾ هو من الإقرار . والإصرار فى [2] اللغة : الثقل ، سمى العهد إصرًا؛ لما فيه من التشديد . والمعنى : وأخذتم على ذلك عهدى . قوله : ﴿ **قالوا أقررنا**﴾ جملة استئنافية، كأنه قيل : ماذا قالوا عند ذلك ؟ فقيل : قالوا : أقررنا ، وإنما لم يذكر أحدهم الإصر اكتفاء بذلك . قوله : ﴿ **قال فاشهدوا** ﴾ أى قال الله سبحانه فاشهدوا ، أى ليشهد

---

(١) الكشاف ١/ ٣٧٩ .

(٢) الإصرار : التعقد فى الذنب والتشدد فيه ، والامتناع من الإقلاع عنه ، وأصله من الصَّر ، أى الشد ، والإصرار : كل عزم شددت عليه ، يقال: هذا منى صرى وأصرى وأصرى ، والصرورة من الرجال والنساء : الذى لم يحج ، والذى لا يريد التزوج . وقيل : الصرة : الصيحة. اللسان ٤/ ٢٢ .

بعضهم على بعض ﴿ **وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ أى وأنا على إقرار كم وشهادة بعضكم على بعض من الشاهدين . قوله : ﴿ **فمن تولى** ﴾ أى أعرض عما ذكر بعد ذلك الميثاق ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ أى الخارجون عن الطاعة .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس : إن أصحاب عبد الله يقرؤون : « وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لما آتيتكم من كتاب وحكمة » ونحن نقرأ : ﴿ **ميثاق النبيين** ﴾ فقال ابن عباس : إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن طاوس فى الآية ؛ قال : ﴿ **أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ أن يصدق بعضهم بعضا [١] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين** ﴾ قال : هى خطأ من الكتاب ، وهى فى قراءة ابن مسعود : « ميثاق الذين أوتوا الكتاب » [٢] . وأخرج ابن جرير عن على قال : لم يبعث الله نبيًا آدم فمن بعده إلا أخذ عليه العهد فى محمد لئن بعث وهو حى ليؤمنن به ولينصرنه ويأمره فيأخذ العهد على قومه ، ثم تلا : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق النبيين...** ﴾ الآية [٣] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية نحوه [٤] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه فى قوله : ﴿**إصرى** ﴾ قال : عهدى. وأخرج ابن جرير عن على فى قوله : ﴿ **قال فاشهدوا** ﴾ يقول: فاشهدوا على أممكم بذلك ﴿ **وأنا معكم من الشاهدين** ﴾ عليكم وعليهم ﴿ **فمن تولى** ﴾ عنك يامحمد بعد هذا العهد من جميع الأمم ﴿ **فأولئك هم الفاسقون** ﴾ هم العاصون فى الكفر .

﴿ **أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣) قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٨٥)** ﴾ .

قوله : ﴿ **أفغير** ﴾ عطف على مقدر ، أى أتتولون فتبغون غير دين الله، وتقديم المفعول؛

(١) ابن جرير ٣/ ٢٣٦ .

(٢) ابن جرير ٣/ ٢٣٦ . وقال الشيخ أحمد شاكر :« بمثل هذا الأثر يستدل من يستدل من جهلة المستشرقين وأشياعهم على الخطأ والتحريف فى كتاب الله المحفوظ ، وهم لم يكونوا أول من قال به ، بل سبقَهم إليه أسلافهم من غلاة الرافضة وأشياعهم من الملحدة . ولم يقصر علماء الإسلام فى بيان ما قالوه ، وفى تعقب آرائهم وبيان فسادها ووهن حجيتها » تفسير الطبرى ٦/ ٥٥٣ ، ٥٥٤ هامش .

(٣) ابن جرير ٣/ ٢٣٦ .

(٤) المرجع السابق ٣/ ٢٣٧ .

لأنه المقصود بالإنكار . وقرأ أبو عمرو وحده : ﴿ **يبغون** ﴾ بالتحتية و « ترجعون » بالفوقية قال: لأن الأول خاص ، والثانى عام ، ففرق بينهما لافتراقهما فى المعنى . وقرأ حفص بالتحتية فى الموضعين . وقرأ الباقون بالفوقية فيهما ، وانتصب ﴿ **طوعًا وكرهاً** ﴾ على الحال ، أى طائعين ومكرهين . والطوع : الانقياد والاتباع بسهولة ، والكره ما فيه مشقة وهومن أسلم مخافة القتل ، وإسلامه استسلام منه .

قوله: ﴿ **آمنا** ﴾ إخبار منه ﷺ عن نفسه وعن أمته ﴿ **لا نفرق بين أحد منهم** ﴾ كما فرقت اليهود والنصارى ، فآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وقد تقدم تفسير هذه الآية . ﴿ **ونحن له مسلمون** ﴾ أى منقادون مخلصون . قوله: ﴿**دينا**﴾ مفعول للفعل ، أى يبتغ دينًا حال كونه غير الإسلام ، ويجوز أن ينتصب غير الإسلام على أنه مفعول الفعل ، ودينًا إما تمييز أو حال إذا أول بالمشتق ، أو بدل من غير . قوله : ﴿ **وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ إما فى محل نصب على الحال ، أو جملة مستأنفة ، أى من الواقعين فى الخسران يوم القيامة .

وقد أخرج الطبرانى بسند ضعيف عن النبى ﷺ ، فى قوله: ﴿ **وله أسلم من فى السموات والأرض** ﴾ قال: «أما من فى السموات فالملائكة،وأما من فى الأرض فمن ولد على الإسلام وأما كرهًا فمن أتى به من سبايا الأمم فى السلاسل والأغلال يقادون إلى الجنة وهم كارهون »(١). وأخرج الديلمى عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ فى الآية : « الملائكة أطاعوه فى السماء ، والأنصار وعبد القيس أطاعوه فى الأرض » (٢). وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال فى الآية: ﴿ **أسلم من فى السموات والأرض** ﴾ حين أخذ عليهم الميثاق. وأخرج ابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وله أسلم** ﴾ قال: المعرفة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : أما المؤمن فأسلم طائعا فنفعه ذلك وقبل منه ، وأما الكافر فأسلم حين رأى بأس الله فلم ينفعه ذلك ولم يقبل منه ﴿فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ﴾ [غافر:٨٥] . وأخرج الطبرانى فى الأوسط عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « من ساء خلقه من الرقيق والدواب والصبيان فاقرؤوا فى أذنه: ﴿ **أفغير دين الله يبغون** ﴾ » (٣). وأخرج ابن السنى فى عمل اليوم والليلة عن يونس بن عبيد قال : ليس رجل يكون على دابة صعبة فيقرأ فى أذنها: ﴿**أفغير دين الله يبغون** ﴾ الآية ، إلا ذلت بإذن الله عز وجل.

وأخرج أحمد والطبرانى فى الأوسط عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « تجىء الأعمال يوم القيامة فتجىء الصلاة ، فتقول : يارب ، أنا الصلاة ، فيقول : إنك على خير ، وتجىء الصدقة ، فتقول : يارب ، أنا الصدقة فيقول : إنك على خير ، ويجىء الصيام ،

---

(١) الطبرانى عن ابن عباس (١١٤٧٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٢٩: «فيه محمد بن محصن العكاشى، وهو متروك».

(٢) الديلمى فى الفردوس (٧١٨١) .

(٣) عزاه الهيثمى فى المجمع ٨/ ٢٩ للطبرانى فى الأوسط ، وقال : « وفيه محمد بن عبد الله بن عقيل بن عمير، وهو متروك » وأورده الألبانى فى سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٦٧٦) .

فيقول: أنا الصيام ، فيقول : إنك على خير ، ثم تجيء الأعمال ، كل ذلك يقول الله : إنك على خير ، ثم يجيء الإسلام ، فيقول : يارب أنت السلام وأنا الإسلام ، فيقول : إنك على خير ، بك اليوم آخذ ، وبك أعطى قال الله تعالى فى كتابه : ﴿ **ومن يبتغ غير الإسلام دينًا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين** ﴾ »[1] .

﴿ **كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ الأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَىٰ بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ (٩١)** ﴾ .

قوله : ﴿ **كيف يهدى الله قوما** ﴾ هذا الاستفهام معناه الجحد ، أى لا يهدى الله ، ونظيره قوله تعالى: ﴿ كيف يكون للمشركين عهد عند الله ﴾ [التوبة : ٧] أى لا عهد لهم، ومثله قول الشاعر :

كَيْفَ نَوْمِى عَلَى الفِراشِ ولما   تَشْمل الشَامَ غَارة شَعْواءُ

أى لا نوم لى . ومعنى الآية : لا يهدى الله قومًا إلى الحق كفروا بعد إيمانهم ، وبعد ما شهدوا أن الرسول حق، وبعد ماجاءتهم البينات من كتاب الله سبحانه ، ومعجزات رسول الله ﷺ . وقوله : ﴿ **والله لا يهدى القوم الظالمين** ﴾ جملة حالية ، أى كيف يهدى المرتدين ، والحال أنه لا يهدى من حصل منهم مجرد الظلم لأنفسهم ، ومنهم الباقون على الكفر ، ولا ريب أن ذنب المرتد أشد من ذنب من هو باق على الكفر ،لأن المرتد قد عرف الحق ثم أعرض عنادًا وتمردًا .

قوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إشارة إلى القوم المتصفين بتلك الصفات السابقة ، وهو مبتدأ خبره الجملة التى بعده . وقد تقدم تفسير اللعن . وقوله : ﴿ **ولا هم ينظرون** ﴾ معناه : يؤخرون ويمهلون ثم استثنى التائبين، فقال : ﴿ **إلا الذين تابوا من بعد ذلك** ﴾ أى من بعد الارتداد ﴿**وأصلحوا** ﴾ بالإسلام ما كان قد أفسدوه من دينهم بالردة ، وفيه دليل على قبول توبة المرتد إذا رجع إلى الإسلام مخلصًا ، ولا خلاف فى ذلك فيما أحفظ .

قوله : ﴿ **ثم ازدادوا كفراً** ﴾ قال قتادة وعطاء الخراسانى والحسن : نزلت فى اليهود

---

(١) أحمد ٢/٣٦٢ وقال الهيثمى فى المجمع ١٠ /٣٤٨ : « رواه أحمد وأبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وفيه عباد بن راشد وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه جماعة ، وبقية رجال أحمد رجال الصحيح ».

obeikandl.com

والنصارى كفروا بمحمد ﷺ بعد إيمانهم بنعته وصفته ﴿ **ثم ازدادوا كفراً** ﴾ بإقامتهم على كفرهم. وقيل : ازدادوا كفرا بالذنوب التى اكتسبوها ، ورجحه ابن جرير الطبرى وجعلها فى اليهود خاصة [١] . وقد استشكل جماعة من المفسرين قوله تعالى : ﴿ **فلن تقبل توبتهم** ﴾ مع كون التوبة مقبولة كما فى الآية الأولى ، وكما فى قوله تعالى : ﴿ وهو الذى يقبل التوبة عن عباده﴾ [الشورى: ٢٥] وغير ذلك ، فقيل المعنى : لن تقبل توبتهم عند الموت . قال النحاس: وهذا قول حسن كما فى قوله تعالى: ﴿ وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إنى تبت الآن ﴾ [النساء : ١٨] وبه قال الحسن وقتادة وعطاء ، ومنه الحديث : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر »[٢]. وقيل المعنى : لن تقبل توبتهم التى كانوا عليها قبل أن يكفروا ؛ لأن الكفر أحبطها [٣] . وقيل : لن تقبل توبتهم إذا تابوا من كفرهم إلى كفر آخر ، والأولى أن يحمل عدم قبولهم التوبة فى هذه الآية على من مات كافرًا غير تائب ، فكأنه عبر عن الموت على الكفر بعدم قبول التوبة ، وتكون الآية المذكورة بعد هذه الآية ، وهى قوله : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار** ﴾ فى حكم البيان لها .

قوله : ﴿ **ملء الأرض ذهبًا** ﴾ الملء بالكسر: مقدار[٤] ما يملأ الشىء . والملء بالفتح: مصدر ملأت الشىء ، و ﴿**ذهبًا** ﴾ تمييز ، قاله الفراء وغيره ، وقال الكسائى : نصب على إضمار من ذهب . كقوله : ﴿ أو عَدْل ذلك صياما ﴾ [المائدة : ٩٥] أى من صيام . وقرأ الأعمش : « ذهب » بالرفع على أنه بدل من ملء ، والواو فى قوله: ﴿ **ولو افتدى به** ﴾ قيل: هى مقحمة زائدة ، والمعنى : لو افتدى به . وقيل : فيه حمل على الغنى ، كأنه قيل : فلن يقبل من أحدهم فدية ولو افتدى بملء الأرض ذهبا . وقيل : هو عطف على مقدر ، أى لن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبًا لو تصدق به فى الدنيا ولو افتدى به من العذاب، أى بمثله .

وقد أخرج النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن حبان ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ؛ قال : كان رجل من الأنصار أسلم ثم ارتد ، ولحق بالمشركين ثم ندم ، فأرسل إلى قومه : أرسلوا إلى رسول الله ﷺ : هل لى من توبة ؟ فنزلت : ﴿ **كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم** ﴾ إلى قوله :﴿ **غفور رحيم** ﴾ فأرسل إليه قومه فأسلم[٥] . وأخرج عبد الرزاق وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد نحوه. وقال : هو الحارث بن سويد [٦].

---

(١) ابن جرير ٣/ ٢٤٣ .

(٢) فى المخطوطة :« يغرر» وهو تصحيف ، والحديث من رواية عبد الله بن عمر عند أحمد ٢/ ١٣٢ ، ١٥٣ والترمذى فى الدعوات (٣٥٣٧) وقال: « حسن غريب» وابن ماجة فى الزهد (٤٢٥٣) إلا أنه قال: «عن عبد الله بن عمرو ، وهو وهم منه »، قاله المزى فى تحفة الأشراف ٥/ ٣٢٨ .

(٣) فى المطبوعة: « أحبط» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٤) فى المطبوعة: « مقدارًا » والصحيح « مقدار» كما هو فى المخطوطة .

(٥) النسائى فى تحريم الدم ٧/ ١٠٧ وفى التفسير (٨٥) وابن جرير ٣/ ٢٤١ ، ٢٤٢ وابن حبان فى الردة (٤٤٦٠) وصححه الحاكم ٢/ ١٤٢، ٤/ ٣٦٦ ووافقه الذهبى فى الموضعين ، والبيهقى ٨/ ١٩٧ .

(٦) ابن جرير ٣/ ٢٤٢ .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن السدى نحوه . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن ابن عباس نحوه أيضا [١] . وقد روى عن جماعة نحوه أيضا. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿**كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم** ﴾ قال : هم أهل الكتاب من اليهود ، عرفوا محمدا ثم كفروا به [٢] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الحسن قال : هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى. وذكر نحو ما تقدم عنه[٣] . وأخرج البزار عن ابن عباس : أن قومًا أسلموا ثم ارتدوا ثم أسلموا ثم ارتدوا فأرسلوا إلى قومهم يسألون لهم ، فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فنزلت هذه الآية : ﴿ **إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا**﴾ قال السيوطى :هذا خطأ من البزار[٤] .

وأخرج ابن جرير عن الحسن فى الآية قال : اليهود والنصارى لن تقبل توبتهم عند الموت. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية قال : هم اليهود كفروا بالإنجيل وعيسى ثم ازدادوا كفرا بمحمد ﷺ والقرآن. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى الآية قال : إنما نزلت فى اليهود والنصارى كفروا بعد إيمانهم ، ثم ازدادوا كفرا بذنوب أذنبوها ، ثم ذهبوا يتوبون من تلك الذنوب فى كفرهم ، ولو كانوا على الهدى قبلت توبتهم ولكنهم على الضلالة [٥] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ثم ازدادوا كفرا** ﴾ قال : ثموا على كفرهم . وأخرج ابن جرير عن السدى فى قوله : ﴿ **ثم ازدادوا كفرا** ﴾ قال : ماتوا وهم كفار ﴿ **لن تقبل توبتهم** ﴾ قال : إذا تاب عند موته لم تقبل توبته . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى العالية فى قوله : ﴿**لن تقبل توبتهم** ﴾ قال : تابوا من الذنوب ولم يتوبوا من الأصل .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **وماتوا وهم كفار** ﴾ قال : هو كل كافر. وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس عن النبى ﷺ قال : « يجاء بالكافر يوم القيامة فيقال له : أرأيت لو كان لك ملء الأرض ذهبا أكنت مفتديًا به ؟» فيقول : نعم ، فيقال له :« لقد سئلت ما هو أيسر من ذلك فذلك قوله تعالى : ﴿ **إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار . . .** ﴾ » الآية [٦] .

﴿ **لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)** ﴾ .

هذا كلام مستأنف ، خطاب للمؤمنين عقب ذكر ما لا ينفع الكفار. قوله: ﴿**لن تنالوا البر**﴾ يقال : نالنى من فلان معروف ينالنى ، أى وصل إلى .والنوال : العطاء ، من قولك: نولته تنويلا : أعطيته . والبر : العمل الصالح . وقال ابن مسعود وابن عباس وعطاء ومجاهد

(١) ابن إسحاق ٣/ ٣٤ ، ٣٥ . (٢،٣) ابن جرير ٣/ ٢٤٢ .
(٤) السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٤٩ . (٥) ابن جرير ٣/ ٢٤٤ .
(٦) البخارى فى الأنبياء (٣٣٣٤) وفى الرقاق (٦٥٥٧) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٢٨٠٥) وأحمد ٣/ ٢١٨ .

وعمرو بن ميمون والسدى : هو الجنة ، فمعنى الآية : لن تنالوا العمل الصالح أو الجنة ، أى تصلوا إلى ذلك وتبلغوا إليه حتى تنفقوا مما تحبون ، أى حتى تكون نفقتكم من أموالكم التى تحبونها ، و « من » : تبعيضية، ويؤيده قراءة ابن مسعود : « حتى تنفقوا بعض ما تحبون » . وقيل : بيانية و« ما» موصولة أو موصوفة ، والمراد : النفقة فى سبيل الخير من صدقة أو غيرها من الطاعات . وقيل: المراد الزكاة المفروضة . وقوله : ﴿ **من شىء** ﴾ بيان لقوله : ﴿ **ما تنفقوا** ﴾ أى ما تنفقوا من أى شىء سواء كان طيبًا أو خبيثًا ﴿ **فإن الله به عليم** ﴾ و « **ما** » شرطية جازمة. وقوله : ﴿ **فإن الله به عليم** ﴾ تعليل لجواب الشرط واقع موقعه .

وقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس ؛ أن أبا طلحة لما نزلت هذه الآية أتى إلى رسول الله ﷺ فقال: يارسول الله ، إن أحب أموالى إلىّ بيرحاء [١] ، وإنها صدقة . الحديث. وقد روى بألفاظ [٢] . وأخرج عبد بن حميد والبزار عن ابن عمر قال : حضرتنى هذه الآية : ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ فذكرت ما أعطانى الله ، فلم أجد شيئًا أحب إلى من مرجانة جارية لى رومية ، فقلت : هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله لنكحتها، فأنكحتها نافعًا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عمر بن الخطاب ؛ أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى أن يبتاع له جارية من سبى جلولاء ، فدعا بها عمر فقال : إن الله يقول: ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ فأعتقها عمر [٣] . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم ؛ أنها لما نزلت الآية جاء زيد بن حارثة بفرس له يقال لها : سبل ، لم يكن له مال أحب إليه منها ، فقال: هى صدقة [٤] . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن مسعود فى قوله تعالى : ﴿ **لن تنالوا البر** ﴾ قال : الجنة. وأخرج ابن جرير عن عمرو بن ميمون والسدى مثله . وأخرج ابن المنذر عن مسروق مثله .

﴿ **كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٩٣) فَمَنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٩٤) قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٩٥)** ﴾ .

---

(١) بيرحاء : هى اسم مال وموضع بالمدينة وهى الأرض الظاهرة . النهاية فى غريب الحديث ١/ ١١٤ .

(٢) أحمد ٣/ ٢٨٥ والبخارى تعليقًا فى الوصايا (٥/ ٧٩) ومسلم فى الزكاة (٩٩٨/ ٤٢) وأبو داود فى الزكاة (١٦٨٩) والنسائى فى الأحباس ٦/ ٢٣١، ٢٣٢ .

(٣) ابن جرير ٣/ ٢٤٦ .

(٤) أشار إليه السيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٥٠ ولم يذكر لفظه ولم ينسبه لغير الطبرى وذكر قبله حديثًا مثله عن محمد بن المنكدر وهو حديث مرسل أيضًا ، ونسبه لسعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم . وابن جرير ٣/ ٢٤٧ وفيه زيادة .

قوله : ﴿ **كل الطعام** ﴾ أى المطعوم ، والحل مصدر يستوى فيه المفرد والجمع والمذكر والمؤنث وهو الحلال ، و﴿**إسرائيل** ﴾ هو يعقوب كما تقدم تحقيقه . ومعنى الآية : أن كل المطعومات كانت حلالا لبنى يعقوب لم يحرم عليهم شىء منها إلا ماحرم إسرائيل على نفسه ، وسيأتى بيان ما هو الذى حرمه على نفسه ، وهذا الاستثناء متصل من اسم كان . وقوله : ﴿**من قبل أن تنزل التوراة** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **كان حلا** ﴾ أى أن كل المطعومات كانت حلالا ﴿**من قبل أن تنزل التوراة** ﴾ مشتملة على تحريم ما حرمه عليهم لظلمهم ، وفيه ردّ على اليهود لما أنكروا ما قصه الله سبحانه على رسوله ﷺ من أن سبب ما حرمه الله عليهم هو ظلمهم وبغيهم كما فى قوله: ﴿فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم﴾ الآية[النساء: ١٦٠] . وقوله: ﴿ وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ﴾ إلى قوله : ﴿ ذلك جزيناهم ببغيهم ﴾ [الأنعام : ١٤٦] وقالوا إنها محرمة على من قبلهم من الأنبياء ، يريدون بذلك تكذيب ما قصه الله على نبينا ﷺ فى كتابه العزيز ، ثم أمره الله سبحانه بأن يحاجهم بكتابهم ، ويجعل بينه وبينهم حكمًا ما أنزله الله عليهم ، لا ما أنزله عليه فقال : ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ حتى تعلموا صدق ما قصه الله فى القرآن، من أنه لم يحرم على بنى إسرائيل شىء من قبل نزول التوراة إلا ماحرمه يعقوب على نفسه . وفى هذا من الإنصاف للخصوم ما لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه .

ثم قال : ﴿ **فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك** ﴾ أى من بعد إحضار التوراة وتلاوتها ﴿ **فأولئك هم الظالمون** ﴾ أى المفرطون فى الظلم المتبالغون فيه ، فإنه لا أظلم ممن حوكم إلى كتابه وما يعتقده شرعًا صحيحًا، ثم جادل من بعد ذلك مفتريًا على الله الكذب .

ثم لما كان ما يفترونه من الكذب بعد قيام الحجة عليهم بكتابهم باطلا مدفوعًا،وكان ما قصه الله سبحانه فى القرآن وصدقته التوراة صحيحًا صادقًا ، وكان ثبوت هذا الصدق بالبرهان الذى لا يستطيع الخصم دفعه ، أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بأن ينادى بصدق الله بعد أن سجل عليهم الكذب، فقال: ﴿ **قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم** ﴾ أى ملة الإسلام التى أنا عليها، وقد تقدم بيان معنى الحنيف، وكأنه قال لهم: إذا تبين لكم صدقى وصدق ما جئت به فادخلوا فى دينى، فإن من جملة ما أنزله الله على: ﴿ومَن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه﴾ [آل عمران: ٨٥].

وقد أخرج الترمذى وحسنه عن ابن عباس ؛ أن اليهود قالوا للنبى ﷺ : فأخبرنا ماحرم إسرائيل على نفسه ؟ قال : «كان يسكن البدو فاشتكى عرق النساء ، فلم يجد شيئًا يلائمه إلا تحريم الإبل وألبانها ، فلذلك حرمها » قالوا : صدقت وذكر الحديث [(١)] . وأخرجه أيضا أحمد والنسائى [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : العرق أجده عرق النساء ، فكان يبيت له زق يعنى

(١) الترمذى فى التفسير (٣١١٧) وقال :« حسن غريب» .
(٢) أحمد ١/ ٢٧٤ والنسائى فى الكبرى فى عشرة النساء (٩٠٧٢) .

صياح، فجعل لله عليه إن شفاه ألا يأكل لحمًا فيه عرق ، فحرمته اليهود [١] . وأخرج البخارى فى تاريخه ، وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس من قوله ، ما أخرجه الترمذى سابقا عنه مرفوعا [٢] . وأخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبى حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس ؛ أنه كان يقول : الذى حرم إسرائيل على نفسه زائدتا الكبد والكليتان والشحم إلا ما كان على الظهر[٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه قال : قالت اليهود للنبى ﷺ : نزلت التوراة بتحريم الذى حرم إسرائيل ، فقال الله لمحمد ﷺ : ﴿ **قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين** ﴾ وكذبوا ، ليس فى التوراة [٤] .

﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ (٩٦) فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ (٩٧)** ﴾ .

هذا شروع فى بيان شىء آخر مما جادلت فيه اليهود بالباطل ، وذلك أنهم قالوا : إن بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة لكونه مهاجر الأنبياء وفى الأرض المقدسة ، فردّ الله ذلك عليهم بقوله : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس . . .** ﴾ الآية ، فقوله : ﴿ **وضع** ﴾ صفة لبيت وخبر « إن » قوله : ﴿ **للذى ببكة مباركا** ﴾ فنبه تعالى بكونه أول متعبد على أنه أفضل من غيره، وقد اختلف فى البانى له فى الابتداء ، فقيل : الملائكة . وقيل : آدم . وقيل : إبراهيم، ويجمع بين ذلك بأول من بناه: الملائكة ، ثم جدده آدم ، ثم إبراهيم . وبكة : علم للبلد الحرام ، وكذا مكة وهما لغتان . وقيل : إن بكة؛ اسم لموضع البيت، ومكة اسم للبلد الحرام . وقيل : بكة للمسجد ، ومكة للحرم كله . قيل :سميت بكة لازدحام الناس فى الطواف . يقال : بك القوم: ازدحموا . وقيل : البك : دق العنق ، سميت بذلك ؛ لأنها كانت تدق أعناق الجبابرة . وأما تسميتها بمكة ، فقيل: سميت بذلك ؛ لقلة ما بها . وقيل : لأنها تمك المخ من العظم بما ينال ساكنها من المشقة ، ومنه مككت العظم: إذا أخرجت ما فيه، ومك الفصيل ضرع أمه وأمكته: إذا امتصه. وقيل: سميت بذلك؛ لأنها تمك من ظلم فيها، أى تهلكه. قوله: ﴿**مباركا**﴾ حال من الضمير فى :﴿ **وضع** ﴾ أو من متعلق الظرف ، لأن التقدير : للذى استقر ببكة مباركًا . والبركة : كثرة الخير الحاصل لمن يستقر فيه أو يقصده، أى الثواب المتضاعف .

والآيات البينات : الواضحات ، منها : الصفا والمروة ، ومنها : أثر القدم فى الصخرة الصماء ، ومنها: أن الغيث إذا كان بناحية الركن اليمانى كان الخصب فى اليمن . وإن كان بناحية الشامى كان الخصب بالشام ، وإذا عم البيت كان الخصب فى جميع البلدان ، ومنها

---

(١) ابن جرير ٤/ ٣ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٢على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .
(٢) البخارى فى تاريخه (١٨٧٨). (٣) ابن إسحاق ٢/ ١٣٨ . (٤) ابن جرير ٤/ ٣ .

انحراف الطيور عن أن تمر على هوائه فى جميع الأزمان ، ومنها : هلاك من يقصده من الجبابرة وغير ذلك . وقوله : ﴿ **مقام إبراهيم** ﴾ بدل من آيات ، قاله محمد بن يزيد المبرد . وقال فى الكشاف : إنه عطف بيان . وقال الأخفش :إنه مبتدأ ، وخبره محذوف ، والتقدير :منها مقام إبراهيم .وقيل: هوخبرمبتدأ محذوف ، أى هى مقام إبراهيم ، وقد استشكل صاحب الكشاف بيان الآيات وهى جمع بالمقام وهو فرد . وأجاب : بأن المقام جعل وحده بمنزلة آيات لقوة شأنه ، أو بأنه مشتمل على آيات ، قال : ويجوز أن يراد فيه آيات بينات مقام إبراهيم ، وأمن من دخله ؛ لأن الاثنين نوع من الجمع [١] .

قوله : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ جملة مستأنفة لبيان حكم من أحكام الحرم وهو أن من دخله كان آمنا ، وبه استدل من قال : إن من لجأ إلى الحرم وقد وجب عليه حد من الحدود فإنه لا يقام عليه الحد حتى يخرج منه ، وهو قول أبى حنيفة ومن تابعه [٢] ، وخالفه الجمهور ، فقالوا : تقام عليه الحدود فى الحرم . وقد قال جماعة : إن الآية خبر فى معنى الأمر ، أى ومن دخله فأمنوه كقوله : ﴿ فلا رفث ولا فسوق ولا جدال ﴾ [البقرة : ١٩٧] أى لا ترفثوا ولا تفسقوا ولا تجادلوا .

قوله : ﴿ **ولله على الناس حج البيت** ﴾ اللام فى قوله :﴿ **لله** ﴾ هى التى يقال لها : لام الإيجاب والإلزام ، ثم زاد هذا المعنى تأكيداً حرف « على » فإنه من أوضح الدلالات على الوجوب عند العرب ، كما إذا قال القائل لفلان : على كذا، فذكر الله سبحانه الحج بأبلغ ما يدل على الوجوب تأكيدًا لحقه وتعظيمًا لحرمته ، وهذا الخطاب شامل لجميع الناس لا يخرج عنه إلا من خصصه الدليل كالصبى والعبد . وقوله : ﴿ من **استطاع إليه سبيلا** ﴾ فى محل جر على أنه بدل بعض من الناس، وبه قال أكثر النحويين ، وأجاز الكسائى أن يكون فى موضع رفع بحج . والتقدير : أن يحج البيت من استطاع إليه سبيلا . وقيل : إن « من » حرف شرط والجزاء محذوف ، أى من استطاع إليه سبيلا فعليه الحج .

وقد اختلف أهل العلم فى الاستطاعة ماذا هى ؟ فقيل : الزاد والراحلة ، وإليه ذهب جماعة من الصحابة ، وحكاه الترمذى عن أكثر أهل العلم وهو الحق . قال مالك : إن الرجل إذا وثق بقوته لزمه الحج وإن لم يكن له زاد وراحلة إذا كان يقدر على التكسب ، وبه قال عبد الله بن الزبيروالشعبى وعكرمة . وقال الضحاك : إن كان شابًا قويًا صحيحًا وليس له مال فعليه أن يؤاجر نفسه حتى يقضى حجه ، ومن جملة ما يدخل فى الاستطاعة دخولا أوليًا أن تكون الطريق إلى الحج آمنة، بحيث يأمن الحاج على نفسه وماله الذى لا يجد زاداً غيره ، أما لو كانت غير آمنة فلا استطاعة ؛ لأن الله سبحانه يقول : ﴿ **من استطاع إليه سبيلا** ﴾ وهذا الخائف على نفسه أو ماله لم يستطع إليه سبيلا بلا شك ولا شبهة .

---

(١) الكشاف ١/ ٣٨٨ .

(٢)وحجته فى ذلك قول الله تعالى : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ فأوجب الله سبحانه وتعالى الأمن لمن دخله .

وقد اختلف أهل العلم إذا كان فى الطريق من الظلَمة من يأخذ بعض الأموال على وجه لا يجحف بزاد الحاج . فقال الشافعى : لا يعطى حبة ويسقط عنه فرض الحج ، ووافقه جماعة وخالفه آخرون ، والظاهر أن من تمكن من الزاد والراحلة وكانت الطريق آمنة بحيث يتمكن من مرورها ولو بمصانعة بعض الظلمة بدفع (١) شىء من المال يتمكن منه الحاج ولا ينقص من زاده ولا يجحف به فالحج غير ساقط عنه بل واجب عليه ؛ لأنه قد استطاع السبيل بدفع شىء من المال ولكنه يكون هذا المال المدفوع فى الطريق من جملة ما تتوقف عليه الاستطاعة ، فلو وجد الرجل زادًا وراحلة ولم يجد ما يدفعه لمن يأخذ المكس فى الطريق لم يجب عليه الحج ؛ لأنه لم يستطع إليه سبيلا وهذا لابد منه ولا ينافى تفسير الاستطاعة بالزاد والراحلة ، فإنه قد تعذر المرور فى طريق الحج لمن وجد الزاد والراحلة إلا بذلك القدر الذى يأخذه المكاسون ، ولعل وجه قول الشافعى : إنه سقط الحج ، أن أخذ هذا المكس منكر، فلا يجب على الحاج أن يدخل فى منكر وأنه بذلك غير مستطيع . ومن جملة ما يدخل فى الاستطاعة أن يكون الحاج صحيح البدن على وجه يمكنه الركوب ، فلو كان زمِنًا بحيث لا يقدر على المشى ولا على الركوب ، فهذا وإن وجد الزاد والراحلة فهو لم يستطع السبيل .

قوله : ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ قيل : إنه عبر بلفظ الكفر عن ترك الحج؛ تأكيدًا لوجوبه وتشديدًا على تاركه . وقيل : المعنى : ومن كفر بفرض الحج ولم يره واجبًا . وقيل: إن من ترك الحج وهو قادر عليه فهو كافر. وفى قوله: ﴿ **فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ من الدلالة على مقت تارك الحج مع الاستطاعة وخذلانه وبعده من الله سبحانه ما يتعاظمه سامعه ويرجف له قلبه ، فإن الله سبحانه إنما شرع لعباده هذه الشرائع لنفعهم ومصلحتهم وهو تعالى شأنه ، وتقدس سلطانه ، غنى لا تعود إليه طاعات عباده بأسرها بنفع .

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن على بن أبى طالب فى قوله : ﴿ **إن أول بيت...**﴾ الآية ، قال: كانت البيوت قبله ، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى ذر قال : قلت : يارسول الله ، أى مسجد وضع أول ؟ قال: « المسجد الحرام » قلت : ثم أى ؟ قال : « المسجد الأقصى » قلت : كم بينهما ؟ قال : «أربعون سنة » (٢) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمرو ، قال : خلق الله البيت قبل الأرض بألفى سنة . وكان إذ كان عرشه على الماء زَبَدةً بَيْضاءَ ، وكانت الأرض تحته كأنها حشفة فدحيت الأرض من تحته (٣). وأخرج نحوه ابن المنذر

(١) فى المطبوعة : «لدفع» والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) أحمد ٥/ ١٥٠ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ، ١٦٦ ، ١٦٧ والبخارى فى الأنبياء (٣٣٦٦) ومسلم فى المساجد ومواضع الصلاة (١/٥٢٠) وفيه زيادة ، والنسائى ٢/ ٣٢ وفى التفسير (٨٩) وابن ماجة فى المساجد والجماعات (٧٥٣) وابن حبان فى الصلاة (١٥٩٦) والبيهقى ٢/ ٤٣٣ وفى الدلائل ٢/ ٤٣ .

(٣) الحديث فى المخطوطة : « عن ابن عمر» ، والصواب ما أثبتناه ، وقد أخرجه ابن جرير ٤/ ٧ وعزاه الهيثمى فى المجمع للطبرانى فى الكبير ٣/ ٢٩١ وقال : «رجاله رجال الصحيح »والبيهقى فى الشعب (٣٦٩٧) وفى دلائل النبوة له ٢/ ٤٤ وصححه الحاكم ٢/ ٥١٨ وقال :«على شرط الشيخين »ووافقه الذهبى مختصرًا وكلهم عن عبد الله بن عمرو .

عن أبى هريرة .

وأخرج ابن المنذر والأزرقى عن ابن جريج قال : بلغنا أن اليهود قالت : بيت المقدس أعظم من الكعبة ؛ لأنه مهاجر الأنبياء ؛ ولأنه فى الأرض المقدسة ، فقال المسلمون : بل الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبى ﷺ ، فنزلت : ﴿ **إن أول بيت** ﴾ الآية إلى قوله : ﴿ **فيه آيات بينات مقام إبراهيم** ﴾ وليس ذلك فى بيت المقدس ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ وليس ذلك فى بيت المقدس ﴿ **ولله على الناس حج البيت** ﴾ وليس ذلك فى بيت المقدس [(١)] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الزبير ؛ قال : إنما سميت بكة ؛ لأن الناس يجيئون إليها من كل جانب حجاجًا . وروى سعيد بن منصور وابن جرير والبيهقى عن مجاهد: إنما سميت بكة ؛ لأن الناس يتباكون فيها ، أى يزدحمون . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان فى قوله : ﴿ **مباركا** ﴾ قال : جعل فيه الخير والبركة ﴿ **وهدى للعالمين** ﴾ يعنى بالهدى : قبلتهم .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس :﴿ **فيه آيات بينات** ﴾ فمنهن مقام إبراهيم والمشعر . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **فيه آيات بينات** ﴾ قال : مقام إبراهيم ﴿ **ومن دخله كان آمنا ولله على الناس حج البيت** ﴾. وأخرج الأزرقى عن زيد بن أسلم نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ قال : كان هذا فى الجاهلية ، كان الرجل لو جرَّ كلَّ جريرة على نفسه ثم لجأ إلى الحرم لم يتناول ولم يطلب ، فأما فى الإسلام فإنه لا يمنع من حدود الله ، من سرق فيه قطع ، ومن زنى فيه أقيم عليه الحد ، ومن قتل فيه قتل [(٢)] . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر والأزرقى عن عمر بن الخطاب ؛ قال : لو وجدت فيه قاتل الخطاب مامسسته حتى يخرج منه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ومن دخله كان آمنا** ﴾ قال : من عاذ بالبيت أعاذه البيت ولكن لا يؤوى ولا يطعم و لا يسقى ، فإذا خرج أخذ بذنبه . وقد روى عنه هذا المعنى من طرق . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن ابن عمر قال : لو وجدت قاتل أبى فى الحرم ماهِجْتُه . وأخرج الشيخان وغيرهما عن أبى شريح العدوى قال : قام النبى ﷺ الغد من يوم الفتح فقال : « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس ، فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ، ولا يعضد بها شجرة ، فإن أحد ترخص لقتال رسول الله ﷺ فقولوا : إن الله قد أذن لرسوله ولم يأذن لكم،وإنما أذن لى ساعة من نهار ثم عادت حرمتها اليوم كحرمتها أمس»[(٣)].

أخرج الدارقطنى ، والحاكم وصححه عن أنس ؛ أن رسول الله ﷺ سئل عن قوله :

---

(١) الأزرقى فى أخبار مكة ١/ ٧٥ .
(٢) ابن جرير ٤/ ٩ .
(٣) أحمد ٤/ ٣١ ، ٣٢ ، ٦/ ٣٨٥ والبخارى فى العلم (١٠٤) ومسلم فى الحج (١٣٥٤ /٤٤٦) والترمذى فى الحج (٨٠٩) وقال : «حسن صحيح » والنسائى ٥/ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

﴿**من استطاع إليه سبيلا** ﴾ فقيل : ما السبيل ؟ قال : « الزاد والراحلة » (١) . وأخرج الشافعى وعبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد والترمذى وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن عدى وابن مردويه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عمر مرفوعًا ؛ أنه قام رجل فقال : ما السبيل ؟ فقال :« الزاد والراحلة » (٢) . وأخرج الدارقطنى والبيهقى فى سننهما من طريق الحسن عن أمه عن عائشة قالت : سئل رسول الله ﷺ : ما السبيل إلى الحج ؟ قال : « الزاد والراحلة » (٣). وأخرج الدارقطنى فى سننه عن ابن مسعود مرفوعًا مثله(٤) . وأخرج الدارقطنى عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ، مرفوعًا مثله (٥) . وأخرج الدارقطنى عن جابر مرفوعًا مثله (٦) . وقد روى هذا الحديث من طرق أقل أحواله أن يكون حسنًا لغيره فلا يضره ماوقع من الكلام على بعض طرقه كما هو معروف .

وأخرج الدارقطنى عن على مرفوعًا فى الآية ؛ أنه سئل النبى ﷺ فقال : « تجد ظهر بعير» (٧) . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير عن عمر بن الخطاب فى قوله : ﴿ **من استطاع إليه سبيلا** ﴾ قال : الزاد والراحلة . وأخرجا عن ابن عباس مثله(٨) . وأخرجه عنه مرفوعًا ابن ماجة والطبرانى وابن مردويه (٩) . وأخرج ابن جرير وابن المنذر والبيهقى عنه قال : السبيل أن يصح بدن العبد ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد عنه قال: ﴿ **سبيلا** ﴾ من وجد إليه سعة ولم يحل بينه وبينه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عبد الله بن الزبير ؛ قال : الاستطاعة : القوة. وأخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن النخعى قال : إن المحرم للمرأة من السبيل الذى قال الله. وقد ثبت عنه ﷺ النهى للمرأة أن تسافر بغير محرم، واختلفت الأحاديث فى قدر المدة، ففى لفظ ثلاثة أيام (١٠) ، وفى لفظ يوم وليلة (١١) ، وفى لفظ بريد (١٢) .

---

(١) الدارقطنى فى الحج (١٥) وصححه الحاكم ١/ ٤٤٢ على شرط مسلم ومن طريق آخر عن أنس على شرط الشيخين ووافقه الذهبى فيهما .

(٢) الشافعى فى الحج (٧٤٤) وابن أبى شيبة ٤/ ٨٩ والترمذى فى الحج (٨١٣) وقال : « حسن صحيح » وابن ماجة فى المناسك (٢٨٩٦) وابن جرير ٤/ ١٢ وذكره ابن كثير فى تفسيره ١/ ٢٢٧عن ابن أبى حاتم وأشار إلى رواية ابن مردويه وذكر أنه روى من طرق أخرى ثم قال : « ولكن فى أسانيدها مقال » وابن عدى فى الكامل ١/ ٢٢٧ والبيهقى ٤/ ٣٢٧ .

(٣) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٧ والبيهقى ٤/ ٣٢٧ .

(٤) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٦ .

(٥) الدارقطنى فى الحج (٢ـ٤) .

(٦) الدارقطنى فى الحج (١) .

(٧) الدارقطنى فى الحج ٢/ ٢١٨ .

(٨) ابن أبى شيبة ٤/ ٩٠ وابن جرير ٤/ ١١ .

(٩) ابن ماجة فى الحج (٢٨٩٧) .

(١٠) البخارى فى تقصير الصلاة (١٠٨٦ ، ١٠٨٧) ومسلم فى الحج (١٣٣٨ / ٤١٣ ، ٤١٤) وأبو داود فى المناسك (١٧٢٧) وكلهم عن ابن عمر .

(١١) البخارى فى تقصير الصلاة (١٠٨٨) ومسلم فى الحج (١٣٣٩/ ٤٢١) وأبو داود فى المناسك (١٧٢٣، ١٧٢٤) وابن ماجة فى المناسك (٢٨٩٩) وكلهم عن أبى هريرة .

(١٢) أبو داود فى المناسك (١٧٢٥) والبيهقى ٣/ ١٣٩ وكلهم عن أبى هريرة

وقد وردت أحاديث فى تشديد الوعيد على من ملك زادًا وراحلة ولم يحج . فأخرج الترمذى وابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه ، والبيهقى فى الشعب عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله ﷺ : « من ملك زادا وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج بيت الله ، فلا عليه بأن يموت يهوديًا أو نصرانيًا » وذلك بأن الله يقول : ﴿ **ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ (١) . وفى إسناده هلال الخراسانى أبوهاشم . قال البخارى : منكر الحديث . وقيل : مجهول (٢) . وقال ابن عدى : هذا الحديث ليس بمحفوظ وفى إسناده أيضًا الحارث الأعور وفيه ضعف (٣). وأخرج سعيد بن منصور ، وأحمد فى كتاب الإيمان، وأبو يعلى والبيهقى عن أبى أمامة ، قال : قال رسول الله ﷺ : «من مات ولم يحج حجة الإسلام لم يمنعه مرض حابس ، أو سلطان جائر أو حاجة ظاهرة ، فليمت على أى حال شاء يهوديًا أو نصرانيًا » (٤) . وأخرج ابن أبى شيبة عن عبد الرحمن بن سابط مرفوعًا مرسلا مثله .

وأخرج سعيد بن منصور . قال السيوطى بسند صحيح عن عمر بن الخطاب قال : لقد هممت أن أبعث رجالا إلى هذه الأمصار فلينظروا كل من كان له جدة ولم يحج فيضربوا عليهم الجزية ماهم بمسلمين ماهم بمسلمين (٥) . وأخرج الإسماعيلى عنه يقول : من أطاق الحج ولم يحج فسواء عليه يهوديا مات أو نصرانيا . قال ابن كثير بعد أن ساق إسناده : وهذا إسناد صحيح(٦) . وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة عنه نحوه . وأخرج ابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن أبى حاتم عن ابن عمر: من مات وهو موسر ولم يحج جاء يوم القيامة وبين عينيه مكتوب كافر. وأخرج سعيد بن منصور عنه: من وجد إلى الحج سبيلا سنة ثم سنة ثم سنة ثم مات ولم يحج لم يصلّ عليه ولا يدرى مات يهوديا أو نصرانيا . وأخرج سعيد بن منصور عن عمر بن الخطاب قال : لو ترك الناس الحج لقاتلتهم عليه كما نقاتلهم على الصلاة والزكاة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ قال : من زعم أنه ليس بفرض عليه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والبيهقى فى سننه عن ابن عباس فى الآية قال : من كفر بالحج فلم ير حجه برًا ولا تركه مأثماً.

---

(١) الترمذى فى الحج (٨١٢) وقال: «غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه وفى إسناده مقال. وهلال بن عبد الله مجهول والحارث يُضَعَّف فى الحديث » وابن جرير ٤/ ١٢ والبيهقى فى الشعب (٣٦٩٢) .

(٢) ذكره ابن حجر فى تهذيب التهذيب . (٣) ابن عدى فى الكامل ٧/ ١٢٠ .

(٤) لم أعثر عليه فى مطبوعة أبى يعلى ، ولكن عزاه ابن حجر إليه فى تلخيص الحبير ٢/ ٢٢٣ (٩٥٧) وذكره ابن الجوزى فى الموضوعات بطريقين، وقال :« هذا حديث لا يصح » ٢/ ٢١٠ وعزاه أيضا الزيلعى إلى أبى يعلى فى نصب الراية لأحاديث الهداية . والبيهقى ٤/ ٣٣٤ .

(٥) قال ابن جرير ٤/ ١٣ : فأما الأخبار التى رويت عن رسول الله ﷺ فى ذلك بأنه : « الزاد والراحلة » فإنها أخبار فى أسانيدها نظر لا يجوز الاحتجاج بمثلها فى الدين .

(٦) ابن كثير ٢/ ٨٠ .

وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر ، والبيهقى فى سننه عن عكرمة قال : لما نزلت ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا ﴾ [آل عمران : ٨٥] قالت اليهود : فنحن مسلمون . فقال لهم النبى ﷺ : « إن الله فرض على المسلمين حج البيت » . فقالوا: لم يكتب علينا ، وأبوا أن يحجوا قال الله : ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾[١] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة نحوه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن الضحاك ، قال : لما نزلت آية الحج ﴿**ولله على الناس حج البيت** ﴾ الآية . جمع رسول الله ﷺ أهل الملل ، مشركى العرب والنصارى واليهود والمجوس والصابئين فقال : « إن الله فرض عليكم الحج فحجوا البيت » فلم يقبله إلا المسلمون ، وكفرت به خمس ملل ، قالوا : لا نؤمن به ولا نصلى إليه ، ولا نستقبله فأنزل الله: ﴿ **ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين** ﴾ [٢] .

وأخرج عبد بن حميد والبيهقى فى سننه عن مجاهد نحوه [٣]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبى داود نفيع[٤] قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ولله على الناس حج البيت** ﴾ الآية. فقام رجل من هذيل فقال : يارسول الله ، من تركه كفر ؟ فقال :« من تركه لا يخاف عقوبته ، ومن حج لا يرجو ثوابه فهو ذاك » [٥]. وأخرج ابن جرير عن عطاء بن أبى رباح فى الآية قال : من كفر بالبيت . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن ابن عمر عن النبى ﷺ فى قول الله : ﴿ **ومن كفر** ﴾ قال :« من كفر بالله واليوم الآخر»[٦] . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد مثله من قوله . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد أنه سئل عن ذلك ، فقرأ : ﴿ **إن أول بيت وضع للناس** ﴾ إلى قوله : ﴿ **سبيلا** ﴾ ثم قال : ﴿ **ومن كفر** ﴾ بهذه الآيات . وأخرج ابن المنذر عن ابن مسعود فى الآية قال : ﴿ **ومن كفر** ﴾ فلم يؤمن به فهو الكافر .

﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ (٩٨) قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ (١٠٠) وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ** ﴾

(١) ابن جرير ٤/ ١٥ والبيهقى ٤/ ٣٢٤ . (٢) ابن جرير ٤/ ١٤ . (٣) البيهقى ٤/ ٣٢٤ .

(٤) أبو داود نفيع هو نفيع بن الحارث أبو داود الأعمى الهمدانى القاضى، روى عن عمران بن حصين ومعقل بن يسار وابن عباس وابن عمر ، وروى عنه أبو إسحاق ، والأعمش والثورى ، قال أبو حاتم :« منكر الحديث ضعيف الحديث » ، وقال النسائى : « ليس بثقة ولا يكتب حديثه» وقال ابن حبان :« يروى عن الثقات الموضوعات توهمًا ولا يجوز الاحتجاج به » ، وقال ابن عبد البر: «أجمعوا على ضعفه ، وكذبه بعضهم وأجمعوا على ترك الرواية عنه » ، مترجم فى التهذيب .

(٥) ابن جرير ٤/ ١٤ . (٦) ابن جرير ٤/ ١٥٠ والبيهقى فى الشعب فى (٣٦٨٩) .

فَقَدْ هُدِيَ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٠١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٠٢) وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) ﴾ .

قوله : ﴿ **قل يا أهل الكتاب** ﴾ خطاب لليهود والنصارى ، والاستفهام فى قوله : ﴿ **لم تكفرون** ﴾ للإنكار والتوبيخ . وقوله : ﴿ **والله شهيد على ما تعملون** ﴾ جملة حالية مؤكدة للتوبيخ والإنكار ، وهكذا المجىء بصيغة المبالغة فى شهيد يفيد مزيد التشديد والتهويل . والاستفهام فى قوله : ﴿ **لم تصدون** ﴾ يفيد ما أفاده الاستفهام الأول . وقرأ الحسن: ﴿**تصدون**﴾ من أصد وهما لغتان : مثل صد اللحم وأصد . إذا تغير وأنتن ، وسبيل الله : دينه الذى ارتضاه لعباده، وهو دين الإسلام ، والعوج : الميل والزيغ ، يقال : عوج بالكسر إذا كان فى الدين والقول والعمل ، وبالفتح فى الأجسام كالجدار ونحوه ، روى ذلك عن أبى عبيدة وغيره ، ومحل قوله : ﴿ **تبغونها عوجا** ﴾ : النصب على الحال ، والمعنى : تطلبون لها اعوجاجًا وميلاً عن القصد والاستقامة بإبهامكم على الناس بأنها كذلك تثقيفا لتحريفكم وتقويمًا لدعاويكم الباطلة . وقوله : ﴿ **وأنتم شهداء** ﴾ جملة حالية ، أى :كيف تطلبون ذلك بملة الإسلام والحال أنكم تشهدون أنها دين الله الذى لا يقبل غيره كما عرفتم ذلك من كتبكم المنزلة على أنبيائكم ، قيل : إن فى التوراة أن دين الله الذى لا يقبل غيره : الإسلام ، وأن فيه نعت محمد ﷺ ؛ وقيل : المراد ﴿ **وأنتم شهداء** ﴾ أى عقلاء . وقيل المعنى : وأنتم شهداء بين أهل دينكم مقبولون عندهم ، فكيف تأتون بالباطل الذى يخالف ما أنتم عليه بين أهل دينكم ؛ ثم توعدهم الله سبحانه بقوله : ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ . ثم خاطب سبحانه المؤمنين محذرًا لهم عن طاعة اليهود والنصارى مبينًا لهم أن تلك الطاعة تفضى إلى أن يردوهم بعد إيمانهم كافرين ، وسيأتى بيان سبب نزول الآية .

والاستفهام فى قوله : ﴿ **وكيف تكفرون** ﴾ للإنكار ، أى من أين يأتيكم ذلك ولديكم ما يمنع منه ويقطع أثره ، وهو تلاوة آيات الله عليكم وكون رسول الله ﷺ بين أظهركم ؟ ومحل قوله : ﴿ **وأنتم** ﴾ وما بعده النصب على الحال . ثم أرشدهم إلى الاعتصام بالله ليحصل لهم بذلك الهداية إلى الصراط المستقيم الذى هو الإسلام ، وفى وصف الصراط بالاستقامة رد على ما ادَّعوه من العوج . قال الزجاج : يجوز أن يكون هذا الخطاب لأصحاب محمد ﷺ خاصة ؛ لأن رسول الله ﷺ كان فيهم وهم يشاهدونه ، ويجوز أن يكون هذا الخطاب لجميع الأمة ، لأن آثاره وعلامته والقرآن الذى أوتيه فينا ، فكأن رسول الله ﷺ فينا وإن لم نشاهده . انتهى ومعنى الاعتصام بالله : التمسك بدينه وطاعته . وقيل : بالقرآن ، يقال: اعتصم به واستعصم وتمسك واستمسك: إذا امتنع به من غيره ، وعصمه الطعام : منع الجوع منه .

قوله : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته** ﴾ أى التقوى التى تحق له ، وهى ألا يترك العبد شيئًا مما يلزمه فعله ولا يفعل شيئًا مما يلزمه تركه، ويبذل فى ذلك جهده ومستطاعه . قال القرطبى : ذكر المفسرون أنها لما نزلت هذه الآية قالوا : يارسول الله ، من يقوى على هذا ؟ وشق عليهم ذلك ، فأنزل الله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [التغابن : ١٦] فنسخت هذه الآية . روى ذلك عن قتادة والربيع وابن زيد ، قال مقاتل : وليس فى آل عمران من المنسوخ شىء إلا هذا. وقيل : إن قوله : ﴿**اتقوا الله حق تقاته** ﴾ مبين بقوله : ﴿ فاتقوا الله ما استطعتم ﴾ [1] . والمعنى : اتقوا الله حق تقاته ما استطعتم قال : وهذا أصوب ؛ لأن النسخ إنما يكون عند عدم الجمع والجمع ممكن فهو أولى . قوله : ﴿ **ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون** ﴾ أى لا تكونن على حال سوى حال الإسلام فالاستثناء مفرغ ، ومحل الجملة ، أعنى قوله : ﴿ **وأنتم مسلمون** ﴾ النصب على الحال ، وقد تقدم فى البقرة تفسير مثل هذه الآية .

قوله : ﴿ **واعتصموا بحبل الله جميعا** ﴾ الحبل لفظ مشترك ، وأصله فى اللغة : السبب الذى يتوصل به إلى البغية ، وهو إما تمثيل أو استعارة . أمرهم سبحانه بأن يجتمعوا على التمسك بدين الإسلام ، أو بالقرآن ، ونهاهم عن التفرق الناشئ عن الاختلاف فى الدين ، ثم أمرهم بأن يذكروا نعمة الله عليهم ، وبين لهم من هذه النعمة ما يناسب المقام ، وهو أنهم كانوا أعداء مختلفين يقتل بعضهم بعضًا ، وينهب بعضهم بعضا ، فأصبحوا بسبب هذه النعمة إخوانًا، وكانوا على شفا حفرة من النار بما كانوا عليه من الكفر ، فأنقذهم الله من هذه الحفرة بالإسلام. ومعنى قوله : ﴿ **أصبحتم** ﴾ عمرتم ، وليس المراد به معناه الأصلى ؛ وهو الدخول فى وقت الصباح ، وشفا كل شىء : حرفه ، وكذلك شفيره ، وأشفى على الشىء : أشرف عليه ، وهو تمثيل للحالة التى كانوا عليها فى الجاهلية . وقوله : ﴿ **كذلك** ﴾ إشارة إلى مصدر الفعل الذى بعده ، أى مثل ذلك البيان البليغ يبين الله لكم . وقوله : ﴿ **لعلكم تهتدون** ﴾ : إرشاد لهم إلى الثبات على الهدى والازدياد منه .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وأبو الشيخ عن زيد بن أسلم ؛ قال : مَر شاس بن قيس ــ وكان شيخاً قد عسى فى الجاهلية [2] ،عظيم الكفر ، شديد الطعن على المسلمين ، شديد الحسد لهم ــ على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج ، فى مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه ، فغاظه ما رأى من ألفتهم وجماعتهم ، وصلاح ذات بينهم على الإسلام ، بعد الذى كان بينهم من العداوة فى الجاهلية فقال : قد اجتمع ملأ بنى قيلة[3] بهذه البلاد ، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار ، فأمر

---

(١) القرطبى ٤ / ١٠١ ، ١٠٢ وابن جرير ٤ / ٢٠ .

(٢) عسا الشيخ يعسو عسوا وعسيا : كبر وأسن .

(٣) الملأ : الرؤساء وأشراف القوم ووجوههم ومقدموهم الذين يرجع إلى قولهم ، وبنو قيلة هم : الأنصار من الأوس والخزرج .

فتى شابًا معه من يهود فقال : اعمد إليهم فاجلس معهم ثم ذكرهم يوم بعاث وما كان قبله ، وأنشدهم بعض ما كانوا يتقاولون فيه من الأشعار ـ وكان يوم بعاث يومًا اقتتلت فيه الأوس والخزرج ، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج ـ ففعل . فتكلم القوم عند ذلك وتنازعوا ، وتفاخروا ، حتى تواثب رجلان من الحيين على الركب ، أوس بن قيظى أحد بنى حارثة من الأوس ، وجبار بن صخر أحد بنى سلمة من الخزرج فتقاولا ، ثم قال أحدهما لصاحبه : إن شئتم والله رددناها الآن جذعة[1] . وغضب الفريقان جميعًا وقالوا : قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة ـ والظاهرة : الحرة ـ فخرجوا إليها ، وانضمت الأوس بعضها إلى بعض ، والخزرج بعضها إلى بعض على دعواهم التى كانوا عليها فى الجاهلية . فبلغ ذلك رسول الله ﷺ ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه ، حتى جاءهم فقال : « يامعشر المسلمين ، الله الله ، أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟ بعد إذ هداكم الله إلى الإسلام وأكرمكم به ، وقطع به عنكم أمر الجاهلية ، واستنقذكم به من الكفر وألف به بينكم ، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا ؟ » فعرف القوم أنها نزغة من الشيطان وكيد من عدوهم لهم، فألقوا السلاح من أيديهم وبكوا ، وعانق الرجال بعضهم بعضًا، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين ، قد أطفأ الله عنهم كيد عدو الله شاس ، وأنزل الله فى شأن شاس بن قيس وما صنع : ﴿ **قل يأهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون** ﴾ إلى قوله : ﴿ **وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ ، وأنزل فى أوس بن قيظى ، وجبار بن صخر ، ومن كان معهما من قومهما الذين صنعوا ما صنعوا : ﴿ **يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقًا من الذين أوتوا الكتاب** ﴾ إلى قوله : ﴿**وأولئك لهم عذاب عظيم** ﴾ وقد رويت هذه القصة مختصرة ومطولة من طرق [2] .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **لم تصدون عن سبيل الله** ﴾ قال : كانوا إذا سألهم أحد تجدون محمدًا ؟ قالوا : لا ، قال : فصدوا الناس عنه ، وبغوا محمداً عوجًا هلاكًا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : لم تصدون عن الإسلام وعن نبى الله من آمن بالله وأنتم شهداء فيما تقرؤون من كتاب الله أن محمدًا رسول الله وأن الإسلام دين الله الذى لا يقبل غيره ، ولا يجزى إلا به ، يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ومن يعتصم بالله** ﴾ قال: يؤمن به . وأخرجوا عن أبى العالية قال : الاعتصام : الثقة بالله .

وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه، وابن مردويه عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **اتقوا الله حق تقاته**﴾ قال : أن يطاع فلا يعصى، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وقد رواه الحاكم وصححه ،

---

(١) ردها جذعة: أى جديدة كما بدأت، والجذع والجذعة: الصغير السن من الأنعام يعنى: أعدناها شابة فتية.
(٢) ابن إسحاق ٢/١٩٦ ـ ١٩٨ وابن جرير ٤/ ٢٠ .

وابن مردويه من وجه آخر عنه مرفوعًا بدون قوله : ويشكر فلا يكفر [١] . وأخرج ابن مردويه عن ابن عباس قال : حق تقاته أن يطاع فلا يعصى فلن تستطيعوا ، فأنزل الله بعد ذلك : ﴿فاتقوا الله ما استطعتم﴾ [التغابن : ١٦] . وأخرج عبد بن حميد عنه نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير نحوه . وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود نحوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **حق تقاته** ﴾ قال: لم تنسخ ؛ ولكن حق تقاته أن يجاهدوا فى الله حق جهاده ، ولا يأخذهم فى الله لومة لائم ، ويقوموا لله بالقسط ، ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم [٢].

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والطبرانى ، قال السيوطى: بسند صحيح عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **واعتصموا بحبل الله** ﴾ قال : حبل الله: القرآن . وقد وردت أحاديث أن كتاب الله هو حبل الله الممدود [٣] ، وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى العالية قال ﴿ **واعتصموا بحبل الله** ﴾ : بالإخلاص لله وحده . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : بطاعته . وأخرج أيضًا عن قتادة قال : بعهده وأمره. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد قال : بالإسلام . وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **إذ كنتم أعداء** ﴾ قال : ما كان بين الأوس والخزرج فى شأن عائشة ، وأخرج ابن إسحاق قال : كانت الحرب بين الأوس والخزرج عشرين ومائة سنة ، حتى قام الإسلام فأطفأ الله ذلك وألف بينهم . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿ **وكنتم على شفا حفرة من النار** ﴾ يقول: كنتم على طرف النار، من مات منكم وقع فى النار، فبعث الله محمدًا ﷺ واستنقذكم به من تلك الحفرة.

﴿ **وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ (١٠٨) وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (١٠٩)** ﴾ .

---

(١) صححه الحاكم ٢/ ٢٩٤ على شرط الشيخين ، ووافقه الذهبى لكن موقوفا لا مرفوعا ، وعقب ابن كثير على رواية ابن مردويه بأن الأصح أنه موقوف .

(٢) ابن جرير ٤ / ٢٠ .

(٣) أحمد ٣/ ١٤ ، ١٧ ، ٢٦ ، ٥٩ عن أبى سعيد الخدرى ، وعزاه الهيثمى (٩/ ١٦٦) إلى الطبرانى فى : الأوسط وفى إسناده رجال مختلف فيهم ، والترمذى فى : المناقب (٣٧٨٨) عن زيد بن أرقم وقال: «حسن غريب» ، وابن حبان ـ مختصرا ـ فى الوحى (١٢٣) عن زيد بن أرقم.

قوله: ﴿ **ولتكن** ﴾ قرأه الجمهور بإسكان اللام ، وقرئ بكسر اللام على الأصل، و« من » فى قوله : ﴿**منكم** ﴾ للتبعيض . وقيل : لبيان الجنس . ورجح الأول بأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر من فروض الكفايات يختص بأهل العلم الذين يعرفون كون ما يأمرون به معروفًا وينهون عنه منكرًا . قال القرطبى : الأول أصح ، فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عينهم الله سبحانه بقوله : ﴿ الذين إن مكناهم فى الأرض ﴾ الآية [الحج : ٤١] . وقرأ ابن الزبير : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويستعينون بالله على ما أصابهم » . قال أبو بكر بن الأنبارى [١] : وهذه الزيادة تفسير من ابن الزبير ، وكلام من كلامه ، غلط فيه بعض الناقلين فألحقه بألفاظ القرآن . وقد روى أن عثمان قرأها كذلك ، ولكن لم يكتبها فى مصحفه، فدل على أنها ليست بقرآن[٢] . وفى الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة . وأصل عظيم من أصولها ، وركن مشيد من أركانها ، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها . وقوله : ﴿ **يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ من باب عطف الخاص على العام إظهارًا لشرفهما ، وأنهما الفردان الكاملان من الخير الذى أمر الله عباده بالدعاء إليه . كما قيل فى عطف جبريل وميكائيل على الملائكة ، وحذف متعلق الأفعال الثلاثة ، أى يدعون ويأمرون وينهون ، لقصد التعميم ، أى كل من وقع منه سبب يقتضى ذلك . والإشارة فى قوله : ﴿ **وأولئك** ﴾ ترجع إلى الأمة باعتبار اتصافها بما ذكر بعدها ﴿ **هم المفلحون** ﴾ أى المختصون بالفلاح ، وتعريف المفلحين للعهد أو للحقيقة التى يعرفها كل أحد .

قوله : ﴿ **ولا تكونوا كالذين تفرقوا** ﴾ هم اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين . وقيل: هم المبتدعة من هذه الأمة . وقيل : الحرورية [٣] ، والظاهر الأول . والبينات : الآيات الواضحة المبينة للحق ، الموجبة لعدم الاختلاف . قيل : وهذا النهى عن التفرق والاختلاف يختص بالمسائل الأصولية ، وأما المسائل الفروعية الاجتهادية فالاختلاف فيها جائز ، ومازال الصحابة فمن بعدهم من التابعين وتابعيهم مختلفين فى أحكام الحوادث ، وفيه نظر، فإنه مازال فى تلك العصور المنكر للاختلاف موجودًا . وتخصيص بعض مسائل الدين بجواز الاختلاف فيها دون البعض الآخر ليس بصواب ، فالمسائل الشرعية متساوية [٤] الأقدام فى انتسابها إلى

---

(١) هومحمد القاسم بن محمد بن بشار ولد فى الأنبار (على الفرات) سنة ٢٧١ هـ ، وكان من أعلم أهل زمانه بالأدب واللغة ، ومن أكثر الناس حفظًا للشعر والأخبار، قيل : كان يحفظ ثلثمائة ألف شاهد فى القرآن، وكان يتردد إلى أولاد الخليفة الراضى بالله يعلمهم ، توفى ببغداد سنة ٣٢٨ هـ .

(٢) القرطبى ٢/ ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ .

(٣) الحرورية : هم الخوارج ، اجتمعوا بحروراء بظاهر الكوفة فكان هناك أول اجتماعهم بها ، وتحكيمهم حين خالفوا عليا .

(٤) فى المطبوعة : «المساوية» ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

الشرع .

وقوله : ﴿ **يوم تبيض وجوه** ﴾ منتصب بفعل مضمر ، أى اذكر . وقيل : بما يدل عليه قوله : ﴿ **لهم عذاب عظيم**﴾ فإن تقديره : استقر لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه ، أى يوم القيامة حين يبعثون من قبورهم، تكون وجوه المؤمنين مبيضة ، ووجوه الكافرين مسودة. ويقال: إن ذلك عند قراءة الكتاب إذا قرأ المؤمن كتابه رأى حسناته فاستبشر وابيض وجهه، وإذا قرأ الكافر كتابه رأى سيئاته فحزن واسودّ وجهه ، والتنكير فى وجوه للتكثير ، أى وجوه كثيرة. وقرأ يحيى ابن وثاب : « تبيض » و : « تسود » بكسر التاءين ، وقرأ الزهرى : « تبياض » و «تسواد» . قوله : ﴿ **أكفرتم** ﴾ أى فيقال لهم : أكفرتم ، والهمزة للتوبيخ والتعجيب من حالهم، وهذا تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإجمال، وقدم بيان حال الكافرين لكون المقام مقام تحذير وترهيب. قيل : هم أهل الكتاب . وقيل : المرتدون . وقيل : المنافقون . وقيل : المبتدعون .

قوله : ﴿ **ففى رحمة الله** ﴾ أى فى جنته ودار كرامته ، عبر عن ذلك بالرحمة إشارة إلى أن العمل لايستقل بدخول صاحبه الجنة ؛ بل لابد من الرحمة ومنه حديث : « لن يدخل أحد الجنة بعمله » وهو فى الصحيح [1] . وقوله : ﴿ **هم فيها خالدون** ﴾ جملة استئنافية جواب سؤال مقدر ، وتلك إشارة إلى ما تقدم من تعذيب الكافرين وتنعيم المؤمنين .

وقوله : ﴿ **نتلوها عليك بالحق** ﴾ جملة حالية ، وبالحق متعلق بمحذوف ، أى متلبسة بالحق وهو العدل. وقوله : ﴿ **وما الله يريد ظلما للعالمين** ﴾ جملة تذييلية مقررة لمضمون ما قبلها ، وفى توجه النفى إلى الإرادة الواقعة على النكرة دليل على أنه سبحانه لا يريد فردًا من أفراد الظلم الواقعة على فرد من أفراد العالم . والمراد بمافى السموات وما فى الأرض: مخلوقاته سبحانه ، أى له ذلك ، يتصرف فيه كيف يشاء وعلى ما يريد ، وعبر بـ« ما» تغليبًا لغير العقلاء على العقلاء لكثرتهم ، أو لتنزيل العقلاء منزلة غيرهم . قال المهدوى : وجه اتصال هذا بما قبله أنه لما ذكر أحوال المؤمنين والكافرين ، وأنه لا يريد ظلمًا للعالمين وصله بذكر اتساع قدرته ، وغناه عن الظلم، لكون ما فى السموات وما فى والأرض فى قبضته . وقيل : هو ابتداء كلام يتضمن البيان لعباده بأن جميع ما فى السموات وما فى الأرض له حتى يسألوه ويعبدوه ولا يعبدوا غيره . وقوله: ﴿ **وإلى الله ترجع الأمور** ﴾ أى لا إلى غيره لا شركة ولا استقلالا .

وقد أخرج ابن مردويه عن أبى جعفر الباقر قال : قرأ رسول الله ﷺ : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير**﴾ قال: «الخير اتباع القرآن وسنتى » . وأخرج ابن أبى حاتم عن أبى العالية قال : كل آية ذكرها الله فى القرآن فى الأمر بالمعروف فهو الإسلام ، والنهى عن المنكر

---

(١) الحديث عن أبى هريرة عند أحمد ٢/ ٢٦٤ وعن أبى سعيد الخدرى أيضا ٣/ ٥٢ وعن أبى هريرة عند مسلم فى صفات المنافقين (٢٨١٦/ ٧١ـ ٧٦) وعن جابر وعائشة أيضا (٢٨١٧/ ٧٦ ، ٢٨١٨ / ٧٨) .

فهو عبادة الأوثان والشيطان . انتهى . وهو تخصيص بغير مخصص ، فليس فى لغة العرب ولا فى عرف الشرع ما يدل على ذلك . وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل بن حيان قال : ﴿**يدعون إلى الخير**﴾ أى الإسلام ، ﴿ **ويأمرون بالمعروف** ﴾ : بطاعة ربهم ﴿ **وينهون عن المنكر**﴾ : عن معصية ربهم . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن الضحاك فى الآية قال : هم أصحاب محمد ﷺ خاصة ، وهم الرواة . انتهى . ولا أدرى ما وجه هذا التخصيص ، فالخطاب فى هذه الآية كالخطاب بسائر الأمور التى شرعها الله لعباده ، وكلفهم بها . انتهى .

وأخرج أبو داود والترمذى وابن ماجة ، والحاكم وصححه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : «افترقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة ، وتفرقت النصارى على ثنتين وسبعين فرقة ، وتفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة» (١) . وأخرج أحمد وأبو داود والحاكم عن معاوية مرفوعًا نحوه ، وزاد : « كلها فى النار إلا واحدة ، وهى الجماعة » (٢) . وأخرج الحاكم عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا نحوه أيضًا ، وزاد : « كلها فى النار إلا ملة واحدة » ، فقيل له : ما الواحدة ؟ قال : «ما أنا عليه اليوم وأصحابى » (٣) . وأخرج ابن ماجة عن عوف بن مالك مرفوعًا نحوه . ، وفيه : « فواحدة فى الجنة، وثنتان وسبعون فى النار » قيل : يارسول الله ، من هم ؟ قال : « الجماعة » (٤) . وقد وردت آيات وأحاديث كثيرة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفى الأمر بالكون فى الجماعة والنهى عن الفرقة.

وأخرج ابن أبى حاتم والخطيب عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **يوم تبيض وجوه** ﴾ قال : تبيض وجوه أهل السنة والجماعة ، وتسود وجوه أهل البدع والضلالة.وأخرج الخطيب والديلمى عن ابن عمر مرفوعًا (٥) . وأخرجه أيضًا مرفوعًا أبو نصر السَّجْزى فى الإبانة عن أبى سعيد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن أبى بن كعب فى الآية، قال : صاروا فرقتين يوم القيامة ، يقال لمن اسودّ وجهه : أكفرتم بعد إيمانكم ؟ فهو الإيمان الذى كان فى صلب آدم حيث كانوا أمة واحدة ، وأما الذين ابيضت وجوههم فهم الذين استقاموا على إيمانهم وأخلصوا له الدين فبيض الله وجوههم ، وأدخلهم فى رضوانه وجنته ، وقد روى غير ذلك .

﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ (١١٠) لَن يَضُرُّوكُمْ**

(١) أبو داود فى السنة (٤٥٩٦) والترمذى فى الإيمان (٢٦٤٠) وقال : «حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٣٩٩١) وصححه الحاكم ١/ ٦ على شرط مسلم وخالفه الذهبى فقال : « احتج مسلم بمحمد بن عمرو منفردا بل بانضمامه إلى غيره » .

(٢) أحمد ٤/ ١٠٢ وأبو داود فى السنة (٤٥٩٧) وصححه الحاكم ١/ ١٢٨ ووافقه الذهبى .

(٣) الحاكم ١/ ١٢٨ ، ١٢٩ وقال قبل إيراده :« تفرد به عبد الرحمن بن زياد الإفريقى ولا تقوم به الحجة » ووافقه الذهبى .

(٤) ابن ماجة فى الفتن (٣٩٩٢) .

(٥) الديلمى فى مسنده (٨٩٨٦) .

إِلاَّ أَذًى وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ (١١١) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (١١٢) ﴾ .

قوله : ﴿ **كنتم خير أمة** ﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن بيان حال هذه الأمة فى الفضل على غيرها من الأمم ، و « كان» قيل : هى التامة ، أى وجدتم وخلقتم خير أمة ، ومثله ما أنشده سيبويه :

وَجِيرانٍ لَنا كَانُوا كرام [١]

ومنه قوله تعالى : ﴿ كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ﴾ [مريم : ٢٩] وقوله : ﴿واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم﴾ [الأعراف : ٨٦] . وقال الأخفش : يريد أهل أمة ، أى خير أهل دين ، وأنشد :

حلفتُ فلم أترُكْ لِنَفْسِك رِيبةً وَهَلْ يأْثَمَنْ ذُو أمَّةٍ وَهُو طَائِعُ [٢]

وقيل : معناه : كنتم فى اللوح المحفوظ . وقيل : كنتم منذ آمنتم ، وفيه دليل على أن هذه الأمة الإسلامية خير الأمم على الإطلاق ، وأن هذه الخيرية مشتركة ما بين أول هذه الأمة وآخرها بالنسبة إلى غيرها من الأمم ، وإن كانت متفاضلة فى ذات بينها . كما ورد فى فضل الصحابة على غيرهم . قوله : ﴿ **أخرجت للناس** ﴾ أى أظهرت لهم . وقوله : ﴿ **تأمرون بالمعروف** ﴾ إلخ كلام مستأنف ، يتضمن بيان كونهم خير أمة ، مع ما يشتمل عليه من أنهم خير أمة ما أقاموا على ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر زال عنهم ذلك ، ولهذا قال مجاهد : إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة فى الآية ، وهذا يقتضى أن يكون تأمرون وما بعده فى محل نصب على الحال، أى كنتم خير أمة حال كونكم آمرين ناهين مؤمنين بالله ، وبما يجب عليكم الإيمان به من كتابه ورسوله ، وما شرعه لعباده ، فإنه لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور. قوله : ﴿ **ولو آمن أهل الكتاب** ﴾ أى اليهود إيمانا كإيمان المسلمين بالله ورسله وكتبه ﴿**لكان خيرا لهم**﴾ ولكنهم لم يفعلوا ذلك ؛ بل قالوا: نؤمن ببعض الكتاب ونكفر ببعض ، ثم بين حال أهل الكتاب بقوله : ﴿ **منهم المؤمنون** ﴾ وهم الذين آمنوا برسول الله ﷺ منهم، فإنهم آمنوا بما أنزل عليه وما أنزل من قبله. ﴿**وأكثرهم الفاسقون** ﴾ أى الخارجون عن طريق الحق، المتمردون فى باطلهم، المكذبون لرسول الله ﷺ ولما جاء به ، فيكون هذا التفصيل على هذا كلامًا مستأنفاً جوابا عن سؤال مقدر ، كأنه قيل :

---

(١) هذا البيت للفرزدق ، وصدره :

فكيف إذا رأيت ديار قوم

(٢) البيت للنابغة الذبيانى ، والأمة : بالضم والكسر ، ذو أمة : ذو دين واستقامة ، والأمة : النعمة .

هل منهم من آمن فاستحق موعده الله ؟

قوله : ﴿ **لن يضروكم إلا أذى** ﴾ أى لن يضروكم بنوع من أنواع الضرر إلا بنوع الأذى، وهو الكذب ، والتحريف، والبهت . ولا يقدرون على الضرر الذى هو الضرر فى الحقيقة بالحرب ، والنهب ونحوهما ، فالاستثناء مفرغ ، وهذا وعد من الله لرسوله وللمؤمنين أن أهل الكتاب لايغلبونهم وأنهم منصورون عليهم . وقيل : الاستثناء منقطع ، والمعنى : لن يضروكم البتة لكنى يؤذونكم ، ثم بين سبحانه ما نفاه من الضرر بقوله : ﴿ **وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار**﴾[1] أى ينهزمون ولا يقدرون على مقاومتكم ، فضلا عن أن يضروكم . وقوله : ﴿**ثم لا ينصرون** ﴾ عطف على الجملة الشرطية ، أى ثم لا يوجد لهم نصر ولا يثبت لهم غلب فى حال من الأحوال؛ بل شأنهم الخذلان مادامو ا . وقد وجدنا ما وعدنا سبحانه حقًا فإن اليهود لم تخفق لهم راية نصر ، ولا اجتمع لهم جيش غلب بعد نزول هذه الآية . فهى من معجزات النبوة.

قوله : ﴿ **ضربت عليهم الذلة** ﴾ قد تقدم فى البقرة معنى هذا التركيب ، والمعنى : صارت الذلة محيطة بهم فى كل حال ، وعلى كل تقدير فى أى مكان وجدوا ﴿ **إلا بحبل من الله** ﴾ أى، إلا أن يعتصموا بحبل من الله ، قاله الفراء ، أى بذمة الله أو بكتابه . ﴿ **وحبل من الناس** ﴾ أى بذمة من الناس وهم المسلمون . وقيل : المراد بالناس : النبى ﷺ ﴿**وباؤوا**﴾ أى رجعوا ﴿**بغضب من الله**﴾ وقيل : احتملوا ، وأصل معناه فى اللغة : اللزوم والاستحقاق ، أى لزمهم غضب من الله هم مستحقون له ، ومعنى ضرب المسكنة : إحاطتها بهم من جميع الجوانب ، وهكذا حال اليهود فإنهم تحت الفقر المدقع والمسكنة الشديدة إلا النادر الشاذ منهم ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى ما تقدم من ضرب الذلة والمسكنة والغضب ، أى وقع عليهم ذلك بسبب أنهم كانوا يكفرون بآيات الله ، ويقتلون الأنبياء بغير حق ، والإشارة بقوله : ﴿ **ذلك** ﴾ إلى الكفر وقتل الأنبياء، بسبب عصيانهم لله، واعتدائهم لحدوده. ومعنى الآية : أن الله ضرب عليهم الذلة والمسكنة ، وباءوا بالغضب منه ، لكونهم كفروا بآياته ، وقتلوا أنبياءه ، بسبب عصيانهم واعتدائهم .

وقد أخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وعبد بن حميد وأحمد والنسائى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **كنتم خير أمة** ﴾ قال . هم الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية قال : قال عمر بن الخطاب : لو شاء الله لقال : أنتم ، فكنا كلنا ولكن قال : ﴿ **كنتم**﴾ فى خاصة أصحاب محمد ومن صنع مثل صنعهم كانوا خير أمة أخرجت للناس ، وفى لفظ عنه أنه قال : يكون لاولنا ولا يكون لآخرنا . وأخرج ابن جرير عن قتادة قال : ذكر لنا أن

---

(١) الأدبار : جمع دبر ، والدبر : يقال للمتأخر والتابع اما باعتبار المكان، أو باعتبار الزمان، أو باعتبار المرتبة، وأدبر : أعرض وولى ظهره. اللسان ٤/٢٦٨ . قال تعالى ﴿ ثم أدبر واستكبر ﴾ [المدثر : ٢٣].

عمر بن الخطاب قرأ هذه الآية ، ثم قال : يأيها الناس ، من سره أن يكون من تلك الأمة فليؤد شرط الله منها . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة فى الآية قال : نزلت فى ابن مسعود وعمار بن ياسر وسالم مولى أبى حذيفة وأبى بن كعب ومعاذ بن جبل [١]. وأخرج البخارى وغيره عن أبى هريرة فى الآية قال: خير الناس للناس يأتون بهم فى السلاسل فى أعناقهم حتى يدخلوا فى الإسلام [٢]. وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وأحمد،والترمذى وحسنه،وابن ماجة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى،والحاكم وصححه عن معاوية بن حيدة[٣] ؛ أنه سمع النبى ﷺ يقول فى الآية: «إنكم تتمون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها» [٤]. وروى من حديث معاذ وأبى سعيد نحوه [٥]. وقد وردت أحاديث كثيرة فى الصحيحين وغيرهما أنه يدخل من هذه الأمة الجنة سبعون ألفًا بغير حساب ولا عذاب [٦] ، وهذا من فوائد كونها خير الأمم.

وأخرج ابن جرير عن الحسن ﴿ **لن يضروكم إلا أذى** ﴾ قال : تسمعون منهم كذبًا على الله بدعوتكم إلى الضلالة . وأخرج أيضًا عن ابن جرير قال : إشراكهم فى عزير وعيسى والصليب . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن وقتادة ﴿ **ضربت عليهم الذلة** ﴾ قالا : يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون . وروى ابن المنذر عن الضحاك نحوه. وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **إلا بحبل من الله وحبل من الناس** ﴾ قال : بعهد من الله وعهد من الناس .

﴿ **لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ (١١٤) وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ** ﴾

---

(١) ابن جرير٤/ ٢٩ .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٥٧) وصححه الحاكم ٤/ ٨٤ ووافقه الذهبى وقد وهم الحاكم فقد رواه البخارى بنفس الطريق ، والنسائى فى التفسير (٩١) .

(٣) هومعاوية بن حيدة بن معاوية بن قشير بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة القشيرى من أهل البصرة ، غزا خراسان ومات بها وهو جد بهز بن حكيم بن معاوية ، روى عن النبى ﷺ . انظر : أسد الغابة ٤/ ٣٨٥ والإصابة ٣/ ٤٣٢ وتهذيب التهذيب ١٠/ ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

(٤) أحمد ٥/ ٣ ، ٥ والترمذى فى التفسير (٣٠٠١) وقال :« حسن » وابن ماجة فى الزهد (٤٢٨٧) وابن جرير ٤/ ٣٠ والطبرانى (١٠١٢) وقال الهيثمى ١٠/ ٤٠٦ : « وفى إسناده حماد بن عيسى الجهنى وهو ضعيف » كما رواه الطبرانى مختصرا فى (١٠٢٣ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣٦) وصححه الحاكم ٤/ ٨٤ ووافقه الذهبى ، والدارمى فى الرقاق ٢/ ٣١٣ .

(٥) أحمد ٣/ ٦١ عن أبى سعيد الخدرى وهو جزء من حديث طويل .

(٦) الحديث عن سيدنا عبد الله بن عباس عند أحمد ١/ ٣٢١ والبخارى فى الرقاق (٦٥٤١، ٦٤٧٢) وفى الطب (٥٧٥٢) ومسلم فى الإيمان (٢٢٠/ ٣٧٤) والترمذى فى صفة القيامة (٢٤٤٦) وقال: «حسن صحيح » والنسائى فى الكبرى فى الطب (٧٦٠٤) والبيهقى ٩/ ٣٤١ .

(١١٥) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١٦) مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٧) ﴾ .

قوله : ﴿ **ليسوا سواء** ﴾ أى أهل الكتاب غير مستوين بل مختلفين ، والجملة مستأنفة سيقت لبيان التفاوت بين أهل الكتاب . وقوله : ﴿ **أمة قائمة** ﴾ هو استئناف أيضًا يتضمن بيان الجهة التى تفاوتوا فيها من كون بعضهم أمة قائمة إلى قوله : ﴿ **من الصالحين** ﴾ قال الأخفش : التقدير : من أهل الكتاب ذو أمة ، أى ذو طريقة حسنة وأنشد :

وهل يأثمن ذو أمة وهو طائع

وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : من أهل الكتاب أمة قائمة ، وأخرى غير قائمة ، فترك الأخرى اكتفاء بالأولى ، كقول أبى ذؤيب :

عَصَيْتُ إِلَيْها القَلْب إنِّىَ لأمْرِهَا مُطيعٌ فَما أدرى أرُشْدٌ طِلابُها

أراد: أرشد أم غىّ . قال الفراء : أمة رفع بسواء ، والتقدير : ليس يستوى أمة من أهل الكتاب قائمة يتلون آيات الله وأمة كافرة. قال النحاس : وهذا القول خطأ من جهات : أحدها: أنه يرفع أمة بسواء فلا يعود على اسم ليس شىء ، ويرفع بما ليس جاريًا على الفعل ، ويضمر ما لايحتاج إليه ؛ لأنه قد تقدم ذكر الكافرة ، فليس لإضمار هذا وجه . وقال أبو عبيدة: هذا مثل قولهم : أكلونى البراغيث ، وذهبوا أصحابك . قال النحاس : وهذا غلط ؛ لأنه قد تقدم ذكرهم ، وأكلونى البراغيث لم يتقدم لهم ذكر. انتهى . وعندى أن ما قاله الفراء قوى قويم ، وحاصله : أن معنى الآية : لا يستوى أمة من أهل الكتاب شأنها كذا وأمة أخرى شأنها كذا ، وليس تقدير هذا المحذوف من باب تقدير ما لا حاجة إليه كما قال النحاس ، فإن تقدم ذكر الكافرة لا يفيد مفاد تقدير ذكرها هنا . وأما قوله : إنه لا يعود على اسم ليس شىء ، فيرده أن تقدير العائد شائع مشتهر عند أهل الفن، وأما قوله : ويرفع بما ليس جاريًا على الفعل ، فغير مسلم . والقائمة : المستقيمة العادلة ، من قولهم : أقمت العود فقام ، أى استقام .

وقوله : ﴿ **يتلون** ﴾ فى محل رفع على أنه صفة ثانية لأمة ، ويجوز أن يكون فى محل نصب على الحال ﴿**وآناء الليل**﴾ ساعاته [1] وهو منصوب على الظرفية . وقوله : ﴿ **وهم يسجدون** ﴾ ظاهره أن التلاوة كائنة منهم فى حال السجود ، ولا يصح ذلك إذا كان المراد بهذه

---

(١) وآناء : واحدها : « إنى » كما قال الشاعر :

حُلو ومُر كعطف القدح مرَّتُهُ فى كل إنى حَذَاه الليل ينتعل

راجع : ديوان الهذليين ٢/ ٣٥ ومجاز القرآن ١/ ١٠٢ وسيرة ابن هشام ٢/ ٢٠٦ .

الأمة الموصوفة فى الآية هم من قد أسلم من أهل الكتاب ؛ لأنه قد صح عن النبى ﷺ النهى عن قراءة القرآن فى السجود [١] . فلابد من تأويل هذا الظاهر بأن المراد بقوله : ﴿ **وهم يسجدون** ﴾ وهم يصلون كما قاله الفراء والزجاج، وإنما عبر بالسجود عن مجموع الصلاة ، لما فيه من الخضوع والتذلل وظاهر هذا أنهم يتلون آيات الله فى صلاتهم من غير تخصيص لتلك الصلاة بصلاة معينة. وقيل : المراد بها : الصلاة بين العشاءين . وقيل : صلاة الليل مطلقا .

قوله : ﴿ **يؤمنون بالله** ﴾ صفة أخرى لأمة ، أى يؤمنون بالله وكتبه ورسله ، ورأس ذلك الإيمان بما جاء به محمد ﷺ . وقوله ﴿ **ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾ صفتان أيضا لأمة ، أى إن هذا من شأنهم وصفتهم. وظاهره يفيد أنهم يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر على العموم . وقيل : المراد بالأمر بالمعروف هنا: أمرهم باتباع النبى ﷺ ، والنهى عن المنكر : نهيهم عن مخالفته . وقوله : ﴿ **ويسارعون فى الخيرات** ﴾ من جملة الصفات أيضا ، أى يبادرون بها غير متثاقلين عن تأديتها لمعرفتهم بقدر ثوابها وقوله : ﴿ **وأولئك من الصالحين** ﴾ أى من جملتهم . وقيل : " من " بمعنى: مع أى مع الصالحين وهم الصحابة رضى الله عنهم ، والظاهر أن المراد :كل صالح ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى الأمة الموصوفة بتلك الصفات.

قوله : ﴿ **وما يفعلوا من خير** ﴾ أىّ خير كان ﴿ **فلن يكفروه** ﴾ أى لن تعدموا ثوابه ، وعداه إلى المفعولين وهو لا يتعدى إلا إلى واحد ؛ لأنه ضمنه معنى الحرمان ، كأنه قيل : فلن تحرموه كما قاله صاحب الكشاف [٢] . قرأ الأعمش وابن وثاب وحفص [٣] ونافع والكسائى وخلف بالياء التحتية فى الفعلين ، وهى قراءة ابن عباس واختارها أبو عبيد ، وقرأ الباقون بالمثناة من فوق فيهما ، وكان أبو عمرو يرى القراءتين جميعا . والمراد بالمتقين : كل من ثبت له صفة التقوى . وقيل : المراد : من تقدم ذكره وهم الأمة الموصوفة بتلك الصفة ، ووضع الظاهر موضع المضمر مدحا لهم ، ورفعا من شأنهم.

وقوله : ﴿ **إن الذين كفروا** ﴾ قيل : هم بنو قريظة والنضير . قال مقاتل : لما ذكر تعالى مؤمنى أهل الكتاب ذكر كفارهم فى هذه الآية . والظاهر أن المراد بذلك :كل من كفر

---

(١) الحديث عن ابن عباس رضى الله عنه عند مسلم فى الصلاة (٤٧٩/ ٢٠٧ ، ٢٠٨) والدارمى فى الصلاة ١/ ٣٠٤ . والحديث عن سيدنا على بن أبى طالب عند مسلم فى الصلاة (٤٨/ ٢٠٩ ـ ٢١٣) وأبو داود فى اللباس (٤٠٤٥) والترمذى فى اللباس (١٧٣٧) وقال . "حسن صحيح" .

(٢) الكشاف ١/ ٤٠٣.

(٣) هو حفص بن سليمان أبو عمر الأسدى مولاهم الغاضرى الكوفى المقرئ الإمام صاحب عاصم وابن زوجة عاصم ، ولد سنه ٩٠ هـ . قال أبو عمرو الدانى : " قرأ عليه عرضا وسماعا " : عمرو بن الصباح ، وأخوه عبيد بن الصباح ، وأبو شعيب القواس ، وحمزة بن القاسم وغيرهم ، وروى عنه الكثيرون ، وكان فى القراءة ثقة ، ثبتا ، ضابطا لها بخلاف حاله فى الحديث ، وكانت القراءة التى أخذها عن عاصم ترتفع إلى على رضى الله عنه ، وتوفى سنة ١٨٠ هـ . انظر : معرفة القراء الكبار ١/ ١٤٠، ١٤١ .

بما يجب الإيمان به . ومعنى : ﴿ **لن تغنى** ﴾ لن تدفع ، وخص الأولاد ؛ لأنهم أحب القرابة وأرجاهم لدفع ما ينوبه .

وقوله : ﴿ **مثل ما ينفقون** ﴾ بيان لعدم إغناء أموالهم التى كانوا يعوّلون عليها . والصرّ : البرد الشديد، أصله من الصرير الذى هو الصوت ، فهو صوت الريح الشديد . وقال الزجاج: صوت لهب النار التى فى تلك الريح . ومعنى الآية : مثل نفقة الكافرين فى بطلانها وذهابها، وعدم منفعتها ، كمثل زرع أصابه ريح باردة ، أو نار فأحرقته ، أو أهلكته ، فلم ينتفع أصحابه بشىء منه ، بعد أن كانوا على طمع من نفعه وفائدته . وعلى هذا فلابد من تقدير فى جانب المشبه به ، فيقال: كمثل زرع أصابته ريح فيها صر ، أو مثل إهلاك ما ينفقون كمثل إهلاك ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم ﴿ **وما ظلمهم الله** ﴾ أى المنفقين من الكافرين ﴿ **ولكن أنفسهم يظلمون**﴾ بالكفر المانع من قبول النفقة التى أنفقوها ، وتقديم المفعول لرعاية الفواصل لا للتخصيص ؛ لأن الكلام فى الفعل باعتبار تعلقه بالفاعل لا بالمفعول.

وقد آخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن منده ، وأبو نعيم فى المعرفة ، والبيهقى فى الدلائل ، وابن عساكر عن ابن عباس ؛ قال : لما أسلم عبد الله بن سلام ، وثعلبة بن سعية ، وأسيد بن سعية [1] ، ومن أسلم من يهود معهم فآمنوا وصدقوا ورغبوا فى الإسلام ، قالت أحبار يهود وأهل الكفر منهم : ما آمن بمحمد وتبعه إلا شرارنا . ولو كانوا خيارنا ما تركوا دين آبائهم وذهبوا إلى غيره ، فأنزل الله : ﴿ **ليسوا سواء..**﴾ الآية [2] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه ﴿ **أمة قائمة** ﴾ يقول : مهتدية قائمة على أمر الله لم تنزع عنه ولم تتركه كما تركه الآخرون وضيعوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم قال : ﴿**أمة قائمة** ﴾ عادلة . وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد وابن المنذر ، وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **آناء الليل** ﴾ قال : جوف الليل . وأخرج ابن جرير عن الربيع قال : ساعات الليل . وأخرج عبد بن حميد ، والبخارى فى تاريخه ، وابن جرير وابن المنذر عن ابن أبى حاتم وابن مسعود فى قوله : ﴿ **ليسوا سواء** ﴾ قال : لا يستوى أهل الكتاب وأمة محمد ﴿ **يتلون آيات الله آناء الليل** ﴾ قال : صلاة العتمة هم يصلونها ، ومن سواهم من أهل الكتاب لا يصلونها . وأخرج أحمد والنسائى والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى . قال السيوطى : بسند حسن عن ابن مسعود ؛ قال : أخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء ليلة ، ثم خرج إلى المسجد فإذا الناس ينتظرون الصلاة ، فقال : « أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة

(١) فى المطبوعة : «سعيد » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة . انظر: الإصابة ١/ ٤٩ ، ١٩٩ .

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٩٨، ١٩٩ وابن جرير ٤/ ٣٥ والبيهقى فى الدلائل ٢/ ٥٣٣ ، ٥٣٤ وعزاه الهيثمى ٦/ ٣٣٠ إلى الطبرانى وقال : «ورجاله ثقات» .

غيركم» ولفظ ابن جرير والطبرانى فقال : « إنه لا يصلى هذه الصلاة أحد من أهل الكتاب » قال : وأنزلت هذه الآية: ﴿ **ليسوا سواء** ﴾ (١) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن منصور ؛ قال : بلغنى أنها نزلت هذه الآية : ﴿**يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون** ﴾ فيما بين المغرب والعشاء (٢) .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة : ﴿ **فلن تكفروه** ﴾ قال : لن يضل عنكم . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن ﴿ **فلن تكفروه** ﴾ قال : لن تظلموه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى الآية يقول : ﴿ **مثل ما ينفقون** ﴾ أى المشركون ولا يتقبل منهم كمثل هذا الزرع إذا زرعه القوم الظالمون فأصابه ريح فيها صرّ فأهلكته ، فكذلك أنفقوا فأهلكهم شركهم . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **فيها صر** ﴾ قال : برد شديد .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لا يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (١١٨) هَا أَنْتُمْ أُولاءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُوتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (١١٩) إِنْ تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (١٢٠)** ﴾ .

البطانة : مصدر يسمى به الواحد والجمع ، وبطانة الرجل : خاصته الذين يستبطنون أمره، وأصله البطن الذى هو خلاف الظهر ، وبطن فلان بفلان يبطن بطونًا وبطانة إذا كان خاصًا به ، ومنه قول الشاعر :

وهم خُلْصائى كلهم وَبِطَـانَتِـى ... وهم عَيْبَتِى مِنْ دُونِ كلّ قَرِيبِ

قوله : ﴿ **من دونكم** ﴾ أى من سواكم ، قاله الفراء ، أى من دون المسلمين وهم الكفار، أى بطانة كائنة من دونكم، ويجوز أن يتعلق بقوله : ﴿ **لا تتخذوا** ﴾ . وقوله : ﴿ **لا يألونكم خبالا** ﴾ فى محل نصب صفة لبطانة. يقال: لا آلوك جهدًا ، أى لا أقصر. قال امرؤ القيس:

وَمَا المرء مَادَامت حشَاشَةُ نفْسِه ... بِمُدْرِكِ أطْرافِ الخُطُوبِ وَلا آلِ

---

(١) أحمد ١/ ٣٩٦ والنسائى فى التفسير (٩٣) والبزار فى الصلاة (٣٧٥) وأبو يعلى (٥٣٠٦) وابن جرير ٤/ ٣٦ والطبرانى (١٠٢٠٩) وقال الهيثمى فى المجمع ١/ ٣١٧ : « ورجال أحمد ثقات ليس فيهم غير عاصم بن أبى النجود وهو مختلف فى الاحتجاج به ، وفى إسناد الطبرانى عبيد الله بن زحر وهو ضعيف » .

(٢) ابن جرير٤/ ٣٦ .

والمراد: لا يقصرون فيما فيه الفساد عليكم، وإنما عدى إلى مفعولين لكونه مضمنًا معنى المنع، أى لايمنعونكم خبالا، والخبال والخبل: الفساد فى الأفعال، والأبدان، والعقول، قال أوس:

أبَنِـى لُبْنَـى لَسْتُم بَيِدٍ إلا يـدًا مَخْـبُولَـةَ الـعَضد

أى فاسدة العضد . قوله : ﴿ **ودوا ما عنتُّم** ﴾ : « **ما** » مصدرية ، أى ودوا عنتكم،والعنت : المشقة وشدة الضرر ، والجملة مستأنفة مؤكدة للنهى . قوله : ﴿ **قد بدت البغضاء** ﴾ هى شدة البغض كالضراء لشدة الضر ، والأفواه : جمع فم ، والمعنى : أنها قد ظهرت البغضاء فى كلامهم لأنهم لما خامرهم من شدة البغض والحسد ؛ أظهرت ألسنتهم ما فى صدورهم فتركوا التقية وصرحوا بالتكذيب . أما اليهود فالأمر فى ذلك واضح ، وأما المنافقون فكان يظهر من فلتات ألسنتهم ما يكشف عن خبث طويتهم ، وهذه الجملة مستأنفة لبيان حالهم ﴿ **وما تخفى صدورهم أكبر** ﴾ لأن فلتات اللسان أقل مما تجنه الصدور ؛ بل تلك الفلتات بالنسبة إلى ما فى الصدور قليلة جدًا . ثم إنه سبحانه امتن عليهم ببيان الآيات الدالة على وجوب الإخلاص إن كانوا من أهل العقول المدركة لذلك البيان .

قوله : ﴿ **ها أنتم أولاء** ﴾ جملة مصدرة بحرف التنبيه ، أى أنتم أولاء الخاطئون فى موالاتهم، ثم بين خطأهم بتلك الموالاة بهذه الجملة التذييلية فقال: ﴿ **تحبونهم ولا يحبونكم** ﴾. وقيل : إن قوله ﴿ **تحبونهم** ﴾ خبر ثان لقوله : ﴿ **أنتم** ﴾ وقيل : إن ﴿ **أولاء** ﴾ موصول و﴿ **تحبونهم** ﴾ صلته ، أى تحبونهم لما أظهروا لكم الإيمانَ ، أو لما بينكم وبينهم من القرابة ﴿ **ولا يحبونكم** ﴾ لما قد استحكم فى صدورهم من الغيظ والحسد. قوله : ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أى بجنس الكتاب جميعًا ، ومحل الجملة النصب على الحال ، أى لا يحبونكم ، والحال أنكم مؤمنون بكتب الله سبحانه التى من جملتها كتابهم ، فما بالكم تحبونهم وهم لا يؤمنون بكتابكم ؟ وفيه توبيخ لهم شديد؛ لأن من بيده الحق أحق بالصلابة والشدة ممن هو على الباطل ﴿ **وإذا لقوكم قالوا آمنا** ﴾ نفاقًا وتقية ﴿ **وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ** ﴾ تأسفًا وتحسرًا ، حيث عجزوا عن الانتقام منكم ، والعرب تصف المغتاظ والنادم بعض الأنامل والبنان ، ثم أمره الله سبحانه بأن يدعو عليهم ، فقال: ﴿ **قل موتوا بغيظكم** ﴾ وهو يتضمن استمرار غيظهم ماداموا فى الحياة حتى يأتيهم الموت وهم عليه ، ثم قال : ﴿ **إن الله عليم بذات الصدور** ﴾ فهو يعلم ما فى صدوركم وصدورهم ، والمراد بذات الصدور : الخواطر القائمة بها ، وهو كلام داخل تحت قوله : ﴿ **قل** ﴾ فهو من جملة المقول .

قوله : ﴿ **إن تمسسكم حسنة تسؤهم** ﴾ هذه الجملة مستأنفة لبيان تناهى عداوتهم ، وحسنة وسيئة يعمان كل ما يحسن وما يسوء . وعبر بالمس فى الحسنة ، وبالإصابة فى السيئة ؛ للدلالة على أن مجرد مس الحسنة يحصل به المساءة ، ولا يفرحون إلا بإصابة السيئة . وقيل : إن المس مستعار لمعنى الإصابة ، ومعنى الآية : أن من كانت هذه حالته لم يكن أهلا لأن يتخذ

بطانة ﴿ **وإن تصبروا** ﴾ على عداوتهم أو على التكاليف الشاقة ﴿**وتتقوا**﴾ موالاتهم ، أو ماحرمه الله عليكم ﴿ **لا يضركم كيدهم شيئا** ﴾ يقال : ضاره يضوره ويضيره ضيرًا وضيورا ، بمعنى: ضره يضره، وبه قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ؛ وقرأ الكوفيون وابن عامر: ﴿ **لا يضركم** ﴾ بضم الراء وتشديدها من ضرّ يضر فهو على القراءة الأولى مجزوم على أنه جواب الشرط ، وعلى القراءة الثانية مرفوع على تقدير إضمار الفاء كما فى قول الشاعر :

من يفعل الحسنات الله يشكرها [1]

قاله الكسائى والفراء . وقال سيبويه : إنه مرفوع على نية التقديم ، أى لا يضركم أن تصبروا . وحكى أبوزيد عن المفضل عن عاصم :« لا يـضركم » بفتح الراء ، و ﴿ **شيئا** ﴾ صفة مصدر محذوف .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : كان رجال من المسلمين يواصلون رجالا من يهود لما كان بينهم من الجوار والحلف فى الجاهلية ، فأنزل الله فيهم ينهاهم عن مباطنتهم لخوف الفتنة عليهم منهم: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم** . . .﴾ الآية [2] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه قال : هم المنافقون . وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد نحوه . وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى عن أبى أمامة عن رسول الله ﷺ ؛ قال: « هم الخوارج » . قال السيوطى : وسنده جيد [3] . وأخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتؤمنون بالكتاب كله** ﴾ أى بكتابكم وكتابهم وبما مضى من الكتب قبل ذلك، وهم يكفرون بكتابكم ، فأنتم أحق بالبغضاء لهم منهم لكم. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل ﴿ **إن تمسسكم حسنة** ﴾ يعنى : النصر على العدو والرزق والخير ﴿ **تسؤهم وإن تصبكم سيئة** ﴾ يعنى : القتل والهزيمة والجهد.

﴿ **وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٢١) إِذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٢٢) وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢٣) إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ (١٢٤) بَلَى إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ (١٢٥) وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (١٢٦) لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِنَ الَّذِينَ**

(١) الشاعر هو : حسان بن ثابت ، شاعر الرسول ﷺ وهذا مقدم بيت عجزه :
والشر بالشر عند الله سيان

(٢) ابن إسحاق ٢/ ١٩٩ ، ٢٠٠ وابن جرير ٤/ ٤٠ .

(٣) الطبرانى (٨٠٤٧) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٢٣٦: «ورجاله ثقات» والسيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٦٦ .

كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين (١٢٧) ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون (١٢٨) ولله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم (١٢٩) ﴾ .

العامل فى : « إذ » فعل محذوف ، أى واذكر إذ غدوت من منزل أهلك ، أى من المنزل الذى فيه أهلك . وقد ذهب الجمهور إلى أن هذه الآية نزلت فى غزوة أحد ، وقال الحسن : فى يوم بدر ، وقال مجاهد ومقاتل والكلبى : فى غزوة الخندق [1] . قوله : ﴿ تبوئ ﴾ أى تتخذ لهم مقاعد للقتال ، وأصل التبوؤ : اتخاذ المنزل ، يقال : بوأته منزلا : إذا أسكنته إياه ، والفعل فى محل نصب على الحال ، ومعنى الآية : واذكر إذ خرجت من منزل أهلك تتخذ للمؤمنين مقاعد للقتال ، أى أماكن يقعدون فيها ، وعبر عن الخروج بالغدو الذى هو الخروج غدوة مع كونه ﷺ خرج بعد صلاة الجمعة كما سيأتى ؛ لأنه قد يعبر بالغدو والرواح عن الخروج والدخول من غير اعتبار أصل معناهما ، كما يقال : أضحى وإن لم يكن فى وقت الضحى .

قوله : ﴿ إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا ﴾ هو بدل من ﴿ إذ غدوت ﴾ أو متعلق بقوله : ﴿ تبوئ ﴾ أو بقوله : ﴿ سميع عليم ﴾ والطائفتان : بنو سلمة من الخزرج ، وبنو حارثة من الأوس ، وكانا جناحى العسكر يوم أحد ، والفشل : الجبن ، والهم من الطائفتين كان بعد الخروج ، لما رجع عبد الله بن أبى بمن معه من المنافقين ، فحفظ الله قلوب المؤمنين فلم يرجعوا ، وذلك قوله : ﴿ والله وليهما ﴾ .

قوله : ﴿ ولقد نصركم الله ببدر ﴾ جملة مستأنفة ، سيقت لتصبيرهم بتذكير ما يترتب على الصبر من النصر ، وبدر : اسم لماء كان فى موضع الوقعة . وقيل : هو اسم الموضع نفسه ، وسيأتى سياق قصة بدر فى الأنفال إن شاء الله ، وأذلة : جمع قلة ، ومعناه : أنهم كانوا بسبب قلتهم أذلة ، وهو جمع ذليل استعير للقلة ، إذ لم يكونوا فى أنفسهم أذلة ؛ بل كانوا أعزة . والنصر : العون ، وقد شرح أهل التواريخ والسير غزوة بدر وأحد ، بأتم شرح فلا حاجة لنا فى سياق ذلك ها هنا .

قوله : ﴿ إذ تقول ﴾ متعلق بقوله : ﴿ نصركم ﴾ والهمزة فى قوله : ﴿ ألن يكفيكم ﴾ للإنكار منه ﷺ عدم اكتفائهم بذلك المدد من الملائكة ، ومعنى الكفاية : سد الخلة والقيام بالأمر ، والإمداد فى الأصل : إعطاء الشىء حالا بعد حال ، والمجىء بـ« لن » لتأكيد النفى ، وأصل الفور : القصد إلى الشىء والأخذ فيه بجد ، وهو من قولهم : فارت القدر تفور فورًا وفورانًا : إذا غلت ، والفور : الغليان ، وفار غضبه : إذا جاش ، وفعله من فوره ، أى قبل أن يسكن ، والفوارة ما يفور من القدر ، استعير للسرعة ، أى إن يأتوكم من ساعتهم هذه يمددكم

(١) ابن إسحاق ٣/ ٧٠ وابن جرير ٤/ ٤٥ ، ٤٦ وحكم ابن كثير ٢/ ١٠٤ على هذا الرأى بأنه : «غريب لا يعول عليه » .

ربكم بالملائكة فى حال إتيانهم لا يتأخر عن ذلك.

قوله : ﴿ **مسومين** ﴾ بفتح الواو اسم مفعول ، وهى قراءة ابن عامر وحمزة والكسائى ونافع ، أى معلمين بعلامات . وقرأ أبو عمرو ، وابن كثير ، وعاصم ﴿ **مسومين** ﴾ بكسر الواو اسم فاعل ، أى معلمين أنفسهم بعلامة ، ورجح ابن جرير هذه القراءة ، والتسويم : إظهار سيما الشىء ، قال كثير من المفسرين : ﴿ **مسومين** ﴾ أى مرسلين خيلهم فى الغارة . وقيل : إن الملائكة اعتمت بعمائم بيض . وقيل : حمر . وقيل : خضر . وقيل : صفر ، فهذه هى العلامة التى علموا بها أنفسهم حكى ذلك عن الزجاج . وقيل : كانوا على خيل بلق . وقيل غير ذلك.

قوله : ﴿ **وما جعله الله إلا بشرى لكم** ﴾ كلام مبتدأ غير داخل فى مقول القول ، والضمير فى قوله : ﴿ **جعله** ﴾ للإمداد المدلول عليه بالفعل، أو للتسويم ، أو للإنزال ، ورجح الأول الزجاج وصاحب الكشاف [١] . وقوله : ﴿ **إلا بشرى** ﴾ استثناء مفرغ من أعم العام ، والبشرى: اسم من البشارة ، أى إلا لتبشروا بأنكم تنصرون ولتطمئن قلوبكم به ، أى بالإمداد ، واللام لام كى ، جعل الله ذلك الإمداد بشرى بالنصر وطمأنينة للقلوب ، وفى قصر الإمداد عليهما إشارة إلى عدم مباشرة الملائكة للقتال يومئذ . ﴿ **وما النصر إلا من عند الله** ﴾ لا من عند غيره ، فلا تنفع كثرة المقاتلة ووجود العدة .

قوله : ﴿ **ليقطع طرفًا من الذين كفروا** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر** ﴾ . وقيل : متعلق بقوله : ﴿**وما النصر إلا من عند الله** ﴾ . وقيل : متعلق بقوله : ﴿ **يمددكم** ﴾ والطرف : الطائفة . والمعنى : نصركم الله ببدر ليقطع طائفة من الكفار ، وهم الذين قتلوا يوم بدر ، أو وما النصر إلا من عند الله ليقطع تلك الطائفة ، أو يمددكم ليقطع . ومعنى ﴿**يكبتهم**﴾: يحزنهم ، والمكبوت : المحزون . وقال بعض أهل اللغة : معناه: يكبِدهم[٢] ، أى يصيبهم بالحزن والغيظ فى أكبادهم ، وهو غير صحيح ، فإن معنى كبت : أحزن وأغاظ وأذل ، ومعنى كبد : أصاب الكبد ﴿ **فينقلبوا خائبين** ﴾ أى غير ظافرين بمطلبهم .

قوله : ﴿ **ليس لك من الأمرشىء** ﴾ جملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه ، أى إن الله مالك أمرهم يصنع بهم مايشاء من الإهلاك أو الهزيمة أو التوبة إن أسلموا أو العذاب . فقوله: ﴿ **أو يتوب عليهم أو يعذبهم** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **أو يكبتهم** ﴾ وقال الفراء : إن «أو» بمعنى « إلا أن » بمعنى : ليس لك من الأمر شىء إلا أن يتوب عليهم فتفرح بذلك أو يعذبهم فتتشفى [٣] بهم .

---

(١) الكشاف ١/ ٤١٢.

(٢) فى المطبوعة : «يكيدهم » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة ، ومن القرطبى ٢/ ١٤٤٠ .

(٣) فى المطبوعة :«فتشفى » بتاء واحدة، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة .

قوله : ﴿ **ولله ما فى السموات وما فى الأرض** ﴾ كلام مستأنف لبيان سعة ملكه ﴿ **يغفر لمن يشاء** ﴾ أن يغفر له ﴿ **ويعذب من يشاء** ﴾ أن يعذبه يفعل فى ملكه مايشاء ويحكم ما يريد ﴿ لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴾ [الأنبياء : ٢٣] . وفى قوله : ﴿ **والله غفور رحيم** ﴾ إشارة إلى أن رحمته سبقت غضبه ، وتبشير لعباده بأنه المتصف بالمغفرة والرحمة على وجه المبالغة ، وما أوقع هذا التذييل الجليل ، وأحبه إلى قلوب العارفين بأسرار التنزيل.

وقد أخرج ابن إسحاق، والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب، وعاصم بن عمر بن قتادة، ومحمد بن يحيى بن حبان، والحصين بن عبد الرحمن بن أسعد بن معاذ [١] قالوا : كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص،واختبر الله به المؤمنين ومحق به المنافقين، ممن كان يظهر الإسلام بلسانه وهو مستخف بالكفر،ويوم أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته،وكان مما نزل من القرآن فى يوم أحد ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان فى يومه ذلك ، ومعاتبة من عاتب منهم، يقول الله لنبيه: ﴿ **وإذ غدوت من أهلك** . . . ﴾ الآية [٢]. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس ﴿ **وإذ غدوت من أهلك** . . . ﴾ الآية قال : يوم أحد. وأخرج ابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى قوله: ﴿ **تبوئ المؤمنين** ﴾ قال : توطن. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن أن الآية فى يوم الأحزاب . وقد ورد فى كتب السير والتاريخ ، كيفية الاختلاف فى المشورة على النبى ﷺ فى يوم أحد ، فمن قائل : نخرج إليهم ، ومن قائل : نبقى فى المدينة ، فخرج وكان من جملة المشيرين عبد الله بن أبىّ ابن سلول رأس المنافقين ، كان رأيه البقاء فى المدينة والمقاتلة فيها ، ثم لما خولف فى رأيه انخذل بمن معه من المنافقين ، وهم قدر الثلث من القوم الذين خرج بهم النبى ﷺ .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن جابر ؛ قال : فينا نزلت فى بنى حارثة وبنى سلمة: ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله : ﴿ **والله وليهما** ﴾ [٣]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة فى قوله : ﴿ **إذ همت طائفتان** ﴾ قال : ذلك يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : هم بنو حارثة وبنو سلمة .

وأخرج عبد بن حميد عن مجاهد : ﴿ **ولقد نصركم الله ببدر** ﴾ إلى ﴿ **ثلاثة آلاف من الملائكة منزلين** ﴾ فى قصة بدر . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿**وأنتم أذلة** ﴾ يقول : وأنتم قليل وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الشعبى ؛ أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن

---

(١) كذا فى المخطوطة، والصحيح «حصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ، ويقال: إنه حصين بن عبد الرحمن بن أسعد بن زرارة، وهوثقة».

(٢) ابن إسحاق ٣/ ٦٩ ، ٧٠ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٢٤.

(٣) البخارى فى المغازى (٤٠٥١) وفى التفسير (٤٥٥٨) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٥٠٥/ ١٧١) وابن حبان فى فضائل الصحابة والتابعين (٧٢٤٤).

جابر المحاربى يمد المشركين فشق ذلك عليهم فأنزل الله : ﴿ **ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف** ﴾ إلى قوله : ﴿ **مسومين** ﴾ قال : فبلغت كرزًا فلم يمد المشركين ، ولم يمد المسلمين بالخمسة[١].

وأخرج ابن جرير عن الشعبى : لما كان يوم بدر بلغ رسول الله ﷺ ثم ذكر نحوه إلا أنه قال : ﴿ **ويأتوكم من فورهم هذا** ﴾ يعنى : كرزًا وأصحابه ﴿ **يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين** ﴾ فبلغ كرزا وأصحابه الهزيمة فلم يمدهم ، ولم ينزل الخمسة ، وأمدوا بعد ذلك بألف فهم أربعة آلاف [٢]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن قتادة فى الآية قال : أمدوا بألف ، ثم صاروا ثلاثة آلاف ، ثم صاروا خمسة آلاف وذلك يوم بدر .

وأخرج ابن جرير عن عكرمة فى قوله : ﴿ **بلى إن تصبروا وتتقوا . . .** ﴾ الآية ، قال : هذا يوم أحد فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد ، ولو أمدوا لم ينهزموا يومئذ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويأتوكم من فورهم هذا** ﴾ يقول : من سفرهم هذا . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن عكرمة ﴿ **من فورهم** ﴾ قال : من وجههم . وأخرج ابن جرير عن الحسن والربيع وقتادة والسدى مثله. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد ﴿**من فورهم**﴾ قال: من غضبهم . وأخرجا عن أبى صالح ، مولى أم هانئ ، مثله . وأخرج الطبرانى وابن مردويه بسند ضعيف عن ابن عباس ؛ قال : قال رسول الله ﷺ فى قوله : ﴿**مسومين** ﴾ قال : « معلّمين ، وكانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم سوداء ويوم أحد عمائم حمراء » [٣] . وأخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن عبد الله بن الزبير؛ أن الزبير كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرًا بها فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر[٤] . وأخرج ابن إسحاق والطبرانى عن ابن عباس قال : كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضاء ، قد أرسلوها فى ظهورهم ، ويوم حنين عمائم حمراء ، ولم تضرب الملائكة فى يوم سوى يوم بدر ، وكانوا يكونون عددًا ومددًا لايضربون [٥] . وفى بيان التسويم عن السلف اختلاف كثير لا يتعلق به كثير فائدة .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله: ﴿ **ليقطع طرفًا من الذين كفروا** ﴾ قال : قطع الله يوم بدر طرفًا من الكفار ، وقتل صناديدهم ، ورؤوسهم ، وقادتهم فى الشر. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم فى قوله : ﴿ **ليقطع طرفا** ﴾

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥١٧) وابن جرير ٤/ ٥٠ .
(٢) ابن جرير ٤/ ٥٠ .
(٣) الطبرانى (١١٦٩) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٣٠ : «وفيه عبد القدوس بن حبيب ، وهو متروك » .
(٤) ابن أبى شيبة فى الجهاد (١٢٧٧٠) وابن جرير ٤/ ٥٥ .
(٥) ابن إسحاق ٢/ ٢٧٥ والطبرانى (١٢٠٨٤) وفى بعض رواته ضعف .

قال : هذا يوم بدر قطع الله طائفة منهم وبقيت طائفة . وأخرج ابن جرير عن السدى قال: ذكر الله قتلى المشركين بأحد،وكانوا ثمانية عشر رجلا فقال : ﴿ **ليقطع طرفًا من الذين كفروا** ﴾ ثم ذكر الله الشهداء فقال: ﴿ ولا تحسبنّ الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ﴾ [آل عمران : ١٦٩]. وأخرج ابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **أويكبتهم** ﴾ قال : يحزنهم .

وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع مثله . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أنس : أن النبى ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد ، وشج فى وجهه حتى سال الدم ، فقال : « كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ » فأنزل الله: ﴿ **ليس لك من الأمر شىء** ...﴾ الآية . وقد روى هذا المعنى فى روايات كثيرة [١] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن ابن عمر : قال : قال رسول الله ﷺ يوم أحد : « اللهم العن أبا سفيان ، اللهم العن الحارث بن هشام ، اللهم العن سهيل بن عمرو ، اللهم العن صفوان بن أمية » فنزلت هذه الآية: ﴿ **ليس لك من الأمر شىء** ﴾ [٢] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما أيضًا من حديث أبى هريرة: أن رسول الله ﷺ كان إذا أراد أن يدعو على أحد أو يدعو لأحد قنت بعد الركوع : « اللهم أنج الوليد بن الوليد ، وسلمة بن هشام ، وعياش بن أبى ربيعة ، والمستضعفين من المؤمنين ، اللهم اشدد وطأتك [٣] على مضر ، واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف » يجهر بذلك .وكان يقول فى بعض صلاته فى صلاة الفجر: « اللهم العن فلانًا وفلانًا » لأحياء من أحياء العرب ، حتى أنزل الله : ﴿ **ليس لك من الأمر شىء** ﴾ وفى لفظ : « اللهم العن لحيان ، ورعلا ، وذكوان ، وعصية عصت الله ورسوله » ثم بلغنا أنه ترك ذلك لما نزل قوله : ﴿ **ليس لك من الأمر شىء** ...﴾ الآية[٤] .

﴿ **يا أيُّها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافًا مُضَاعَفَةً واتَّقوا اللَّه لعلَّكُمْ تُفْلحُونَ (١٣٠) واتقُوا النَّار الَّتي أُعدَّت للْكافرين (١٣١) وأطيعُوا اللَّه والرَّسُول لعلَّكُمْ تُرْحمُونَ (١٣٢) وسارعُوا إلى مغفرة منْ ربِّكُم وجنَّة عرضُهَا السَّمَوَاتُ والأَرْض أُعدَّت للْمُتَّقين (١٣٣) الَّذين ينفقُون في السَّرَّاء والضَّرَّاء والكَاظمين الغَيْظَ والعافين عَن النَّاس واللَّهُ يُحبُّ الْمُحْسنين (١٣٤) والَّذين إذا فعلُوا فاحشة أوْ ظلمُوا أنفُسهُمْ ذكَرُوا اللَّه فاستَغْفرُوا لذُنُوبهمْ ومَن يغْفرُ الذُّنُوب**

(١) أحمد ٣/ ٩٩، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠١، ٢٠٦ والبخارى فى المغازى معلقا ٧/ ٣٦٥ ومسلم فى الجهاد والسير (١٧٩١ / ١٠٤) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٢) وقال: «حسن صحيح » وابن ماجة فى الفتن (٤٠٢٧).

(٢) البخارى فى المغازى (٤٠٦٩) وفى التفسير(٤٥٥٩) وفى الاعتصام (٧٣٤٦) والنسائى فى التفسير (٩٥، ٩٦) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٤) وقال: «حسن غريب» والطبرانى (١٣١١٣) والبيهقى ٢/ ١٩٨، ٢٠٧ .

(٣) الوطأة : الضغطة والأخذة الشديدة . اللسان ١/ ١٩٧ .

(٤) البخارى فى المغازى (٤٥٦٠) ومسلم فى المساجد (٦٧٥/ ٢٩٤، ٢٩٥) والبيهقى ٢/ ٢٠٧ وابن حبان فى القنوت (١٩٨٣) .

إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٣٥) أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ (١٣٦) ﴾.

قوله: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا** ﴾ قيل : هو كلام مبتدأ للترهيب والترغيب فيما ذكر. وقيل: هو اعتراض بين أثناء قصة أحد . وقوله : ﴿ **أضعافا مضاعفة** ﴾ ليس لتقييد النهى لما هو معلوم من تحريم الربا على كل حال ؛ ولكنه جيء به باعتبار ما كانوا عليه من العادة التى يعتادونها فى الربا ، فإنهم كانوا يربون إلى أجل ، فإذا حل الأجل زادوا فى المال مقدارًا يتراضون عليه ، ثم يزيدون فى أجل الدين ، فكانوا يفعلون ذلك مرة بعد مرة ، حتى يأخذ[1] المربى أضعاف دينه الذى كان له فى الابتداء ، وأضعاف حال ، ومضاعفة نعت له ، وفيه إشارة إلى تكرار التضعيف عامًا بعد عام ، والمبالغة فى هذه العبارة تفيد تأكيد التوبيخ . قوله : ﴿ **واتقوا النار التى أعدت للكافرين** ﴾ فيه الإرشاد إلى تجنب ما يفعله الكفار فى معاملاتهم ، قال كثير من المفسرين : وفيه أنه يكفر من استحل الربا . وقيل معناه : اتقوا الربا الذى ينزع منكم الإيمان فتستوجبون النار ، وإنما خص الربا فى هذه الآية؛ لأنه الذى توعد الله عليه بالحرب منه لفاعله .

وقوله : ﴿ **وأطيعوا الله والرسول** ﴾ حذف المتعلق مشعر بالتعميم ، أى فى كل أمر ونهى ﴿ **لعلكم ترحمون** ﴾ أى راجين الرحمة من الله عز وجل .

وقوله : ﴿ **وسارعوا** ﴾ عطف على أطيعوا ، وقرأ نافع وابن عامر : « سارعوا » بغير واو، وكذلك فى مصاحف أهل المدينة وأهل الشام ، وقرأ الباقون بالواو . قال أبو على : كلا الأمرين سائغ مستقيم . والمسارعة : المبادرة ، وفى الآية حذف، أى سارعوا إلى مايوجب المغفرة من الطاعات . وقوله : ﴿ **عرضها السموات والأرض** ﴾ أى عرضها كعرض السموات والأرض ، و مثله الآية الأخرى : ﴿عرضها كعرض السماء والأرض ﴾ [الحديد : ٢١] وقد اختلف فى معنى ذلك ، فذهب الجمهور إلى أنها تقرن السموات والأرض بعضها إلى بعض كما تبسط الثياب ويوصل بعضها إلى بعض فذلك عرض الجنة، ونبه بالعرض على الطول ؛ لأن الغالب أن الطول يكون أكثر من العرض . وقيل : إن هذا الكلام جاء على نهج كلام العرب من الاستعارة دون الحقيقة ، وذلك أنها ما كانت الجنة من الاتساع والانفساح فى غاية قصوى حسن التعبير عنها بعرض السموات والأرض مبالغة ؛ لأنهما أوسع مخلوقات الله سبحانه فيما يعلمه عباده ، ولم يقصد بذلك التحديد . والسراء : اليسر ، والضراء : العسر ، وقد تقدم تفسيرهما . وقيل : السراء : الرخاء ، والضراء : الشدة ، وهو مثل الأول . وقيل: السراء فى الحياة ، والضراء بعد الموت .

قوله : ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ يقال : كظم غيظه ، أى سكت عليه ولم يظهره ، ومنه

---

(١) فى المطبوعة : « يأخذوا » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

كظمت السقاء ، أى ملأته . والكظامة : ما يسد به مجرى الماء ، وكظم البعير جرته : إذا ردّها فى جوفه ، وهو عطف على الموصول الذى قبله . قوله : ﴿ **والعافين عن الناس** ﴾ أى التاركين عقوبة من أذنب إليهم واستحق المؤاخذة ، وذلك من أجل ضروب الخير وظاهره العفو عن الناس سواء كانوا من المماليك أم لا . وقال الزجاج وغيره : المراد بهم : المماليك ، واللام فى : ﴿ **المحسنين** ﴾ يجوز أن تكون للجنس فيدخل فيه كل محسن من هؤلاء وغيرهم ، ويجوز أن تكون للعهد فيخفض بهؤلاء ، والأول أولى اعتباراً بعموم اللفظ لا بخصوص السياق فيدخل تحته كل من صدر منه مسمى الإحسان ، أى إحسان كان .

قوله : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ﴾ هذا مبتدأ وخبره ﴿ **أولئك** ﴾ وقيل : معطوف على المتقين ، والأول أولى ، وهؤلاء هم صنف دون الصنف الأول ، ملحقين بهم وهم التوابون ، وسيأتى ذكر سبب نزولها ، والفاحشة وصف لموصوف محذوف ، أى فعله فاحشة وهى تطلق على كل معصية ، وقد ذكر اختصاصها بالزنا . وقوله : ﴿ **أوظلموا أنفسهم** ﴾ أى باقتراف ذنب من الذنوب . وقيل : « أو » بمعنى الواو ، والمراد ما ذكر . وقيل : الفاحشة : الكبيرة، وظلم النفس : الصغيرة . وقيل غير ذلك . قوله : ﴿ **ذكروا الله** ﴾ أى بألسنتهم ، أو أخطروه فى قلوبهم ، أو ذكروا وعده ووعيده . ﴿ **فاستغفروا لذنوبهم** ﴾ أى طلبوا المغفرة لها من الله سبحانه . وتفسيره بالتوبة خلاف معناه لغة ، وفى الاستفهام بقوله : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله** ﴾ من الإنكار ما يتضمنه من الدلالة على أنه المختص بذلك سبحانه دون غيره، أى لا يغفر جنس الذنوب أحد إلا الله ، وفيه ترغيب لطلب المغفرة منه سبحانه ، وتنشيط للمذنبين أن يقفوا فى مواقف الخضوع والتذلل ، وهذه الجملة اعتراضية بين المعطوف والمعطوف عليه .

وقوله : ﴿ **ولم يصروا على ما فعلوا** ﴾ عطف على فاستغفروا ، أى لم يقيموا على قبيح فعلهم ، وقد تقدم تفسير الإصرار . والمراد به هنا : العزم على معاودة الذنب وعدم الإقلاع عنه بالتوبة منه . وقوله : ﴿ **وهم يعلمون**﴾ جملة حالية، أى لم يصروا على فعلهم عالمين بقبحه.

قوله : ﴿ **أولئك جزاؤهم** ﴾ الإشارة إلى المذكورين بقوله: ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** ﴾. وقوله : ﴿**جزاؤهم** ﴾ بدل اشتمال من اسم الإشارة. وقوله : ﴿ **مغفرة** ﴾ خبر ﴿ **ومن ربهم** ﴾ متعلق بمحذوف وقع صفة لمغفرة ، أى كائنة من ربهم . وقوله : ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ المخصوص بالمدح محذوف ، أى أجرهم ، أو ذلك المذكور ، وقد تقدم تفسير الجنات وكيفية جرى الأنهار من تحتها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : كانوا يتبايعون إلى الأجل، فإذا جاء الأجل زادوا عليهم وزادوا فى الأجل ، فنزلت: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عطاء ؛ قال : كانت ثقيف تدين

بني المغيرة لأجل في الجاهلية وذكر نحوه [١] . وأخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن معاوية بن قرة [٢] ؛ قال : كان الناس يتأولون هذه الآية : ﴿ **واتقوا النار التي أعدت للكافرين** ﴾ : اتقوا لا أعذبكم بذنوبكم في النار التي أعددتها للكافرين .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عطاء بن أبي رباح ؛ قال : قال المسلمون: يارسول الله ، أبنو إسرائيل كانوا أكرم على الله منا ؟ كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبًا أصبح كفارة ذنبه مكتوبة في عتبة بابه . اجدع أنفك ، اجدع أذنك ، افعل كذا وكذا ، فسكت النبي ﷺ فنزلت: ﴿ **وسارعوا** . . . ﴾ الآية [٣]. وأخرج ابن المنذر عن أنس بن مالك في تفسير: ﴿**وسارعوا**﴾ قال : التكبيرة الأولى . وأخرج ابن جرير من طريق السدي عن ابن عباس في قوله: ﴿**عرضها السموات والأرض**﴾ مثل ما ذكرناه سابقا عن الجمهور . وأخرج نحوه عنه سعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم من طريق كريب .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس في قوله : ﴿ **الذين ينفقون في السراء والضراء** ﴾ يقول . في اليسر والعسر ﴿ **والكاظمين الغيظ** ﴾ يقول : كاظمين على الغيظ . وقد وردت أحاديث كثيرة في ثواب من كظم الغيظ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن النخعي في الآية ؛ قال : الظلم من الفاحشة ، والفاحشة من الظلم .

وأخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وعبد بن حميد والطبراني وابن أبي الدنيا وابن المنذر والبيهقي عن ابن مسعود؛ قال: إن في كتاب الله لآيتين ما أذنب عبد ذنبا فقرأهما فاستغفر الله إلا غفر له: ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة**...﴾ الآية، وقوله: ﴿ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه . .﴾ الآية [النساء : ١١٠] . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير عن ثابت البناني ؛ قال: بلغني أن إبليس حين نزلت هذه الآية بكى : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة** . . .﴾ الآية . وأخرج الحكيم الترمذي عن عطاف بن خالد قال [٤] . بلغني أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ **ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا** ﴾ صاح إبليس بجنوده ، وحثا على رأسه

---

(١) ابن جرير ٤/ ٥٩

(٢) هومعاوية بن قرة بن إياس بن هلال المزني البصري ، روى عن أبيه ومعقل بن يسار وأبي أيوب الأنصاري ، وروى عنه ابنه إياس وثابت البناني ومطر الوراق وقتادة وغيرهم . ولقد قال معاوية بن قرة عن نفسه :« لقيت من الصحابة كثيراً، منهم خمسة وعشرون من مزينة » وقد وثقه يحيى بن معين وغيره، وذكره ابن حبان في الثقات، وقال الشافعي : « روايته عن عثمان منقطعة » وقد كان مولده يوم الجمل وتوفي عام ١١٣ هـ عن ٧٦عاما . تهذيب التهذيب ١٠/ ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٣) ابن جرير ٤/ ٦٢ .

(٤) هو عطاف بن خالد بن عبد الله بن العاص بن وابصة القرشي المخزومي المدني ، أحد المشايخ الثقات ، ولد سنة ٩١ هـ روى عن نافع وزيد بن أسلم، وروى عنه أبو النيماز وآدم بن إياس وقتيبة وغيرهم ، وثقه أحمد ابن حنبل وغيره ، ولم يحمده مالك ، وله نحو من مائة حديث ، وهو نحو فليح وابن أبي حازم في القوة. وكانت وفاته قريبًا من وفاة الإمام مالك . انظر : سير أعلام النبلاء ٨/ ٢٧٣، ٢٧٤ الجرح والتعديل ٧/ ٣٢ تهذيب التهذيب ٧/ ٢٢١ .

التراب ، ودعا بالويل والثبور ، حتى جاءته جنوده من كل بر وبحر فقالوا : ما لك ياسيدنا ؟ قال : آية نزلت فى كتاب الله لايصر بعدها أحدًا من بنى آدم ذنب ، قالوا : وما هى ؟ فأخبرهم. قالوا : نفتح لهم باب الأهواء فلا يتوبون ولايستغفرون ، ولا يرون إلا أنهم على الحق ، فرضى منهم بذلك .

وأخرج ابن أبى شيبة وأحمد والحميدى وعبد بن حميد وأهل السنن الأربع ، وحسنه النسائى ، وابن حبان ، والدارقطنى فى الأفراد ، والبزار وأبو يعلى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن السنى ، والبيهقى فى الشعب ، والضياء فى المختارة عن أبى بكر الصديق : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « ما من رجل يذنب ذنبًا ثم يقوم عند ذكر ذنبه فيتطهر ثم يصلى ركعتين ، ثم يستغفر من ذنبه ذلك إلا غفر الله له » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ **والذين إذا فعلوا فاحشة . . .** ﴾ الآية[1]. وأخرج البيهقى فى الشعب عن الحسن مرفوعا نحوه ، ولكنه قال : « ثم خرج إلى براز من الأرض فصلى » [2]. وأخرج عبد بن حميد وأبو داود والترمذى وأبو يعلى وابن جرير وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى الشعب عن أبى بكر الصديق ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « ما أصرَّ من استغفر وإن عاد فى اليوم سبعين مرة » [3]. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله : ﴿ **ولم يصروا** ﴾ فيسكتون ولايستغفرون. وأخرج ابن أبى حاتم عن مقاتل : ﴿ **ونعم أجر العاملين** ﴾ قال : أجر العاملين بطاعة الله الجنة .

﴿ **قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين (١٣٧) هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين (١٣٨) ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين (١٣٩) إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين (١٤٠) وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين (١٤١) أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين (١٤٢) ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم** ﴾

---

(١) ابن أبى شيبة فى الصلوات ٣٨٧/٢ وأحمد ٩/١ ، ١٠ وأبو داود فى الصلاة (١٥٢١) والترمذى فى الصلاة (٤٠٦) وقال : « حسن » وفى التفسير (٣٠٠٦) وابن ماجة فى إقامة الصلاة (١٣٩٥) والنسائى فى الكبرى فى عمل اليوم والليلة (١٠٢٤٧ ــ ١٠٢٥٠) وابن حبان فى التوبة (٦٢٢) وأبو يعلى فى المسند (١١ ــ ١٥) وابن جرير ٦٣/٤ والبيهقى فى الشعب (٧٠٧٧ ، ٧٠٧٨) ط . الكتب العلمية والطيالسى فى مسنده (١) .

(٢) البيهقى فى الشعب (٧٠٨١) ط . الكتب العلمية .

(٣) أبو داود فى الصلاة (١٥١٤) والترمذى فى الدعوات (٣٥٥٩) وأبو يعلى (١٣٩) وابن جرير ٦٤/٤ والبيهقى فى الشعب (٧٠٩٩) ط . الكتب العلمية .

تَنظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلاً وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ (١٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلاَّ أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (١٤٧) فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٤٨) ﴾ .

قوله : ﴿ **قد خلت من قبلكم سنن** ﴾ هذا رجوع إلى وصف باقى القصة، والمراد بالسنن: ما سنه الله فى الأمم من وقائعه ، أى قد خلت من قبل زمانكم وقائع سنها الله فى الأمم المكذبة ، وأصل السنن : جمع سنة ، وهى الطريقة المستقيمة ، ومنه قول الهذلى :

فَلا تَجْزَعَن مِنْ سُنَّةٍ أَنْتَ سِرْتَها فَأَوَّلُ راضٍ سُنَّةً مَن يَسيرها

والسنة : الإمام المتبع المؤتم به ، ومنه قول لبيد :

مِنْ مَعْشَرٍ سَنَّت لَهُمْ آباؤُهُم وَلِكُلِّ قَوْمٍ سنَّةٌ وإمامُ

والسنة : الأمة ، والسنن : الأمم ، قاله المفضل الضبى [1] . وقال الزجاج : المعنى فى الآية : أهل سنن فحذف المضاف. والفاء فى قوله : ﴿ **فسيروا** ﴾ سببية . وقيل : شرطية ، أى إن شككتم فسيروا . والعاقبة : آخر الأمر . والمعنى : سيروا فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ، فإنهم خالفوا رسلهم بالحرص على الدنيا ، ثم انقرضوا فلم يبق من دنياهم التى آثروها أثر. هذا قول أكثر المفسرين . والمطلوب من هذا السير المأمور به هو حصول المعرفة بذلك ، فإن حصلت بدونه فقد حصل المقصود ، وإن كان لمشاهدة الآثار زيادة غيرحاصلة لمن لم يشاهدها . والإشارة بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى قوله : ﴿ **قد خلت** ﴾ وقال الحسن : إلى القرآن. ﴿ **بيان للناس** ﴾ أى تبيين لهم ، وتعريف الناس للعهد وهم المكذبون ، أو للجنس ، أى للمكذبين وغيرهم ، وفيه حث على النظر فى سوء عاقبة المكذبين ، وما انتهى إليه أمرهم .

---

(١) هو أبو العباسى المفضل بن محمد بن يعلى بن عامر الضبى ، راوية علامة بالشعر والأدب وأيام العرب . قال عبد الواحد اللغوى :« هو أوثق من روى الشعر من الكوفيين »وقال أبو حاتم : «متروك القراءة والحديث » وقال أبو حاتم السجستانى : « هو ثقة فى الأشعار غير ثقة فى الحروف » يقال : إنه خرج على المنصور العباسى فظفر به وعفا عنه ، ولزم المهدى ، وصنف له كتابه : « المفضليات » وسماه الاختيارات وقيل : توفى سنة ١٦٨ هـ . وقيل : ١٧١ هـ ورجح الأستاذ / عبد السلام هارون أن وفاته كانت سنة ١٧٨ هـ . انظر : ميزان الاعتدال ٤/ ١٧٠ ولسان الميزان ٦/ ٩٥ والأعلام ٧/ ٢٨٠ .

قوله : ﴿ **وهدى وموعظة** ﴾ أى هذا النظر مع كونه بيانًا فيه هدى وموعظة للمتقين من المؤمنين، فعطف الهدى والموعظة على البيان يدل على التغاير ، ولو باعتبار المتعلق ، وبيانه أن اللام فى الناس إن كانت للعهد فالبيان للمكذبين ، والهدى والموعظة للمؤمنين ، وإن كانت للجنس فالبيان لجميع الناس مؤمنهم وكافرهم ، والهدى والموعظة للمتقين وحدهم .

قوله : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا** ﴾ عزاهم وسلاهم بما نالهم يوم أحد من القتل والجراح ، وحثهم على قتال عدوهم ، ونهاهم عن العجز والفشل ، ثم بين لهم أنهم الأعلَون على عدوهم بالنصر والظفر ، وهى جملة حالية ، أى والحال أنكم الأعلون عليهم وعلى غيرهم بعد هذه الوقعة. وقد صدق الله وعده ، فإن النبى ﷺ بعد وقعة أحُد ظفر بعدوه فى جميع وقعاته. وقيل : المعنى : وأنتم الأعلوْن عليهم بما أصبتم منهم فى يوم بدر ، فإنه أكثر مما أصابوا منكم اليوم . وقوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **ولا تهنوا** ﴾ وما بعده ، أو بقوله : ﴿**وأنتم الأعلون**﴾ أى إن كنتم مؤمنين فلا تهنوا ولا تحزنوا، أو إن كنتم مؤمنين فأنتم الأعلون. والقرح بالضم والفتح : الجرح ، وهما لغتان فيه ، قاله الكسائى والأخفش ، وقال الفراء : هو بالفتح : الجرح ، وبالضم: ألمه . وقرأ محمد بن السَّمَيْفَع :« قرح » بفتح القاف والراء على المصدر ، والمعنى فى الآية : إن نالوا منكم يوم أحد فقد نلتم منهم يوم بدر ، فلا تهنوا لما أصابكم فى هذا اليوم ، فإنهم لم يهنوا لما أصابهم فى ذلك اليوم ، وأنتم أولى بالصبر منهم . وقيل : إن المراد بما أصاب المؤمنين والكافرين فى هذا اليوم ، فإن المسلمين انتصروا عليهم فى الابتداء ، فأصابوا منهم جماعة ، ثم انتصر الكفار عليهم فأصابوا منهم ، والأول أولى ؛ لأن ما أصابه المسلمون من الكفار فى هذا اليوم لم يكن مثل ما أصابوه منهم فيه .

وقوله : ﴿ **وتلك الأيام** ﴾ أى الكائنة بين الأمم فى حروبها ، والآتية فيما بعد كالأيام الكائنة فى زمن النبوة؛ تارة تغلب هذه الطائفة ، وتارة تغلب الأخرى كما وقع أيها المسلمون فى يوم بدر وأحد . وهو معنى قوله : ﴿ **نداولها بين الناس** ﴾ . فقوله : ﴿ **تلك** ﴾ مبتدأ ﴿**والأيام**﴾ صفته، والخبر ﴿ **نداولها**﴾ وأصل المداولة : المعاورة داولته بينهم : عاورته. والدولة: الكرة، ويجوز أن تكون الأيام خبرًا ونداولها حالا، والأول أولى. وقوله : ﴿ **وليعلم الله** ﴾ معطوف على علة مقدرة كأنه قال : نداولها بين الناس ليظهر أمركم وليعلم ، أو يكون المعلل محذوفًا ، أى ليعلم الله الذين اتقوا فعلنا ذلك ، وهو من باب التمثيل ، أى فعلنا فعل من يريد أن يعلم ؛ لأنه سبحانه لم يزل عالمًا ، أو ليعلم الله الذين آمنوا بصبرهم علمًا يقع عليه الجزاء كما علمه علمًا أزليًا ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ أى يكرمهم بالشهادة ، والشهداء جمع شهيد ، سمى بذلك ؛ لكونه مشهودًا له بالجنة ، أو جمع شاهد لكونه كالمشاهد للجنة ، و« من » للتبعيض وهم شهداء أحد . وقوله : ﴿**والله لا يحب الظالمين** ﴾ جملة معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه ، لتقرير مضمون ما قبله .

وقوله : ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا** ﴾ من جملة العلل معطوف على ما قبله .

والتمحيص : الاختبار . وقيل : التطهير على حذف مضاف ، أى ليمحص ذنوب الذين آمنوا، قاله الفراء . وقيل : يمحص : يخلص ، قاله الخليل والزجاج ، أى ليخلص المؤمنين من ذنوبهم . وقوله : ﴿ **ويمحق الكافرين** ﴾ أى يستأصلهم بالهلاك . وأصل التمحيق : محو الآثار ، والمحق : نقصها .

قوله : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة** ﴾ كلام مستأنف لبيان ما ذكر من التمييز ، وأم هى المنقطعة ، والهمزة للإنكار، أى بل أحسبتم ، والواو فى قوله : ﴿ **ولما يعلم الله** ﴾ واو الحال، والجملة حالية ، وفيه تمثيل كالأول ، أو علم يقع عليه الجزاء . وقوله : ﴿**ويعلم** (١) **الصابرين**﴾ منصوب بإضمار « أن » كما قال الخليل وغيره ، على أن الواو للجميع ، وقال الزجاج : « الواو » بمعنى « حتى » . وقرأ الحسن ويحيى بن يعمر « ويعلم الصابرين » بالجزم عطفا على ﴿ **ولما يعلم** ﴾ وقرئ بالرفع على القطع . وقيل إن قوله : ﴿ **ولما يعلم** ﴾ كناية عن نفى المعلوم ، وهو الجهاد . والمعنى : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ، والحال أنه لم يتحقق منكم الجهاد والصبر ، أى الجمع بينهما ، ومعنى "لما" معنى « لم » عند الجمهور ، وفرق سيبويه بينهما فجعل « لم » لنفى الماضى ، و« لما » لنفى الماضى والمتوقع .

قوله : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت** ﴾ هو خطاب لمن كان يتمنى القتال والشهادة فى سبيل الله ممن لم يحضر يوم بدر، فإنهم كانوا يتمنون يوما يكون فيه قتال ، فلما كان يوم أحد انهزموا مع أنهم الذين ألحوا على رسول الله ﷺ بالخروج ، ولم يصبر منهم إلا نفر يسير . مثل أنس بن النضر عم أنس بن مالك. وقوله : ﴿ **من قبل أن تلقوه** ﴾ أى القتال أو الشهادة التى هى سبب الموت . وقرأ الأعمش : « من قبل أن تلاقوه » وقد ورد النهى عن تمنى الموت فلابد من حمله هنا على الشهادة . قال القرطبى : وتمنى الموت من المسلمين يرجع إلى تمنى الشهادة المبنية على الثبات والصبر على الجهاد ، لا إلى قتل الكفار لهم ، لأنه معصية وكفر ، ولا يجوز إرادة المعصية ، وعلى هذا يحمل سؤال المسلمين من الله أن يرزقهم الشهادة فيسألون الصبر على الجهاد وإن أدى إلى القتل (٢) . قوله : ﴿ **فقد رأيتموه** ﴾ أى القتال ، أو ماهو سبب الموت . ومحل قوله : ﴿ **وأنتم تنظرون** ﴾ النصب على الحال ، وقيد الرؤية بالنظر مع اتحاد معناهما للمبالغة . أى قد رأيتموه معاينين له حين قتل من قتل منكم . قال الأخفش : إن التكرير بمعنى التأكيد مثل قوله : ﴿ **ولا طائر يطير بجناحيه** ﴾ [الأنعام : ٣٨] . وقيل : معناه : بصراء ليس فى أعينكم عمى . وقيل : معناه : وأنتم تنظرون إلى محمد ﷺ .

وقوله : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ سبب نزول هذه ما سيأتى من أن النبى ﷺ لما أصيب فى يوم أحد صاح الشيطان قائلا : قد قتل محمد ، ففشل بعض المسلمين ، حتى قال قائل : قد أصيب محمد فاعطوا بأيديكم فإنما هم إخوانكم ، وقال آخر :

---

(١) فى المطبوعة : «وليعلم» والصحيح ما أثبتناه .

(٢) القرطبى ٢/١٤٦٣ .

لوكان رسولا ما قتل ، فرد الله عليهم ذلك ، وأخبرهم بأنه رسول قد خلت من قبله الرسل وسيخلوا ، كما خلوا ، فجملة قوله : ﴿ **قد خلت من قبله الرسل** ﴾ صفة لرسول، والقصر قصر إفراد ،كأنهم استبعدوا هلاكه فأثبتوا له صفتين: الرسالة ، وكونه لا يهلك ، فرد الله عليهم ذلك بأنه رسول لا يتجاوز ذلك إلى صفة عدم الهلاك ، وقيل : هو قصر قلب. وقرأ ابن عباس : « قد خلت من قبل رسل » ثم أنكر الله عليهم بقوله : ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾ أى كيف ترتدون وتتركون دينه إذا مات أو قتل مع علمكم أن الرسل تخلو ويتمسك أتباعهم بدينهم ، وإن فقدوا بموت أو قتل ؟ وقيل : الإنكار لجعلهم خلو الرسل قبله سببًا لانقلابهم بموته أو قتله ، وإنما ذكر القتل مع علمه سبحانه أنه لا يقتل ؛ لكونه مجوزًا عند المخاطبين . قوله : ﴿ **ومن ينقلب على عقبيه** ﴾ أى بإدباره عن القتال أو بارتداده عن الإسلام ﴿ **فلن يضر الله شيئا** ﴾ من الضرر،وإنما يضر نفسه ﴿ **وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ أى الذين صبروا وقاتلوا واستشهدوا؛ لأنهم بذلك شكروا نعمة الله عليهم بالإسلام ؛ ومن امتثل ما آمر به فقد شكرالنعمة التى أنعم الله بها عليه .

قوله : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله** ﴾ هذا كلام مستأنف يتضمن الحث على الجهاد ، والإعلام بأن الموت لابد منه .ومعنى ﴿ **بإذن الله** ﴾ : بقضاء الله وقدره . وقيل : إن هذه الجملة متضمنة للإنكار على من فشل بسبب ذلك الإرجاف بقتله ﷺ ، فبين لهم أن الموت بالقتل أو بغيره منوط بإذن الله ، وإسناده إلى النفس مع كونها غير مختارة له للإيذان بأنه لا ينبغى لأحد أن يقدم عليه إلا بإذن الله . وقوله : ﴿ **كتابا** ﴾ مصدرمؤكد لما قبله ؛ لأن معناه: كتب الله الموت كتابًا. والمؤجل : المؤقت الذى لا يتقدم على أجله ولا يتأخر . قوله : ﴿**ومن يرد**﴾ أى بعمله ﴿ **ثواب الدنيا** ﴾ كالغنيمة ونحوها ، واللفظ يعم كل ما يسمى ثواب الدنيا،و إن كان السبب خاصا ﴿ **نؤته منها** ﴾ أى من ثوابها على حذف المضاف . ﴿ **ومن يرد** ﴾ بعمله ﴿ **ثواب الآخرة** ﴾ وهو الجنة نؤته من ثوابها ، وتضاعف له الحسنات أضعافا كثيرة ﴿**وسنجزى الشاكرين** ﴾ بامتثال ما آمرناهم به كالقتال ، ونهيناهم عنه كالفرار وقبول الإرجاف .

وقوله : ﴿ **وكأين** ﴾ قال الخليل وسيبويه : هى « أى» دخلت عليها « كاف » التشبيه وثبتت معها فصارت بعد التركيب بمعنى « كم » ، وصورت في المصحف « نونا » ؛لأنها كلمة نقلت عن أصلها ، فغير لفظها لتغيير معناها ، ثم كثر استعمالها فتصرفت فيها العرب بالقلب والحذف ، فصار فيها أربع لغات قرئ بها : أحدها : كائن مثل كاعن ، وبها قرأ ابن كثير ، ومثله قول الشاعر :

وَكَائِنْ بِالأَبَاطِحِ مِن صَدِيقٍ ... يرانى لَوْ أصِبْتُ هو المُصَابَا

وقال آخر :

وَكائِن رَدَدْنا عنكم مِن مُدَجَّجٍ ... يَجِيءُ أمَامَ الرَّكْبِ يَرْدِى مُقَنَّعا

وقال زهير :

وَكَائِنْ تَرى مِن مُعْجَبٍ لَكَ شَخْصه زِيَادته أوْ نَقْـصه فِى التَّكلُّمِ

﴿ **وكأين** ﴾ بالتشديد مثل كعين ، وبه قرأ الباقون وهو الأصل ، والثالثة : كأين مثل كعين مخففًا ، والرابعة: كيئن بياء بعدها همزة مكسورة ، ووقف أبو عمرو بغير نون فقال : كأى لأنه تنوين ، ووقف الباقون بالنون . والمعنى : كثير من الأنبياء قتل معه ربيون . قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب :« قتل » على البناء للمجهول وهى قراءة ابن عباس ، واختارها أبو حاتم ، وفيه وجهان : أحدهما : أن يكون فى « قتل » ضمير يعود إلى النبى وحينئذ يكون قوله : ﴿ **معه ربيون** ﴾ جملة حالية ،كما يقال : قتل الأمير معه جيش ، أى ومعه جيش ، والوجه الثانى : أن يكون القتل واقعًا على ربيون ، فلا يكون فى قتل ضمير والمعنى : قتل بعض أصحابه وهم الربيون . وقرأ الكوفيون وابن عامر : ﴿ **قاتل** ﴾ وهى قراءة ابن مسعود واختارها أبو عبيد وقال : إن الله إذا حمد من قاتل كان من قتل داخلا فيه ، وإذا حمد من قتل لم يدخل فيه من قاتل ولم يقتل ، فقاتل أعم وأمدح ، ويرجح هذه القراءة الأخرى . والوجه الثانى من القراءة الأولى قول الحسن : ما قتل نبىّ فى حرب قط ، وكذا قال سعيد بن جبير ، « والربيون » بكسر الراء قراءة الجمهور ، وقرأ على بضمها وابن عباس بفتحها ، وواحده ربى بالفتح منسوب إلى الرب ، والربى بضم الراء وكسرها منسوب إلى الربة بكسر الراء وضمها وهى الجماعة ، ولهذا فسرهم جماعة من السلف بالجماعات الكثيرة . وقيل: هم الأتباع . وقيل : هم العلماء ، قال الخليل : الربى الواحد من العباد الذين صبروا مع الأنبياء وهم الربانيون نسبوا إلى التآله والعبادة ومعرفة الربوبية . وقال الزجاج : الربيون بالضم : الجماعات . قوله : ﴿ **فما وهنوا** ﴾ عطف على قاتل أو قتل ، والوهن : انكسار الجد بالخوف . وقرأ الحسن : ﴿**وهنوا** ﴾ بكسر الهاء وضمها . قال ابن زيد [١] : لغتان وهن الشىء يهن وهنًا [٢] : ضعف، أى ما وهنوا لقتل نبيهم أو لقتل من قتل منهم ﴿ **وما ضعفوا** ﴾ أى عن عدوهم ﴿ **وما استكانوا** ﴾ لما أصابهم فى الجهاد . والاستكانة : الذلة والخضوع . وقرئ : « وما وهنوا وما ضعفوا » بإسكان الهاء والعين . وحكى النسائى :«ضعفوا » بفتح العين ، وفى هذا توبيخ لمن انهزم يوم أحد وذل واستكان وضعف بسبب ذلك الإرجاف الواقع من الشيطان ولم يصنع كما صنع أصحاب من خلا من قبلهم من الرسل .

قوله : ﴿ **وما كان قولهم** ﴾ أى قول أولئك الذين كانوا مع الأنبياء إلا هذا القول ، وقولهم منصوب على أنه خبر كان. وقرأ ابن كثير وعاصم فى رواية عنهما برفع قولهم . وقوله: ﴿ **إلا أن قالوا** ﴾ استثناء مفرغ ،أى ما كان قولهم عند أن قتل منهم ربانيون أو قتل

---

(١) فى المطبوعة :« أبو زيد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) والواهنة : أسفل الأضلاع وقصارها ، والوهن من الإبل : الكثيف ، والوهن : ساعة تمضى من الليل ، وكذلك المَوْهن ، وآوهنا : صرنا فى تلك الساعة . اللسان ١٣/ ٤٥٤ ، ٤٥٥ .

نبيهم ﴿ **إلا أن قالوا ربنا اغفر لنا ذنوبنا** ﴾ قيل: هى الصغائر. وقوله : ﴿ **وإسرافنا فى أمرنا** ﴾ قيل : هى الكبائر، والظاهر أن الذنوب تعم كل ما يسمى ذنبا من صغيرة أو كبيرة . والإسراف ما فيه مجاوزة للحد،فهو من عطف الخاص على العام، قالوا ذلك مع كونهم ربانيين هضمًا لأنفسهم ﴿ **وثبت أقدامنا** ﴾ فى مواطن القتال ﴿ **فآتاهم الله** ﴾ بسبب ذلك ﴿ **ثواب الدنيا** ﴾ من النصر والغنيمة والعزة ونحوها ﴿ **وحسن ثواب الآخرة** ﴾ من إضافة الصفة إلى الموصوف ، أى ثواب الآخرة الحسن، وهو نعيم الجنة ، جعلنا الله من أهلها .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله :﴿**قد خلت من قبلكم سنن** ﴾ قال : تداول من الكفار والمؤمنين فى الخير والشر . وأخرج ابن أبى شيبة فى كتاب المصاحف عن سعيد بن جبير ؛ قال : أول ما نزل من آل عمران :﴿ **هذا بيان للناس** ﴾ ثم أنزل بقيتها يوم أحد . وأخرج ابن جرير عن الحسن فى قوله : ﴿ **هذا بيان** ﴾ يعنى : القرآن . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير عن قتادة نحوه . وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس قال : أقبل خالد بن الوليد يريد أن يعلو عليهم الجبل فقال النبى ﷺ : « اللهم لا يعلون علينا » ، فأنزل الله : ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا** ﴾ الآية [١] .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج ؛ قال : انهزم أصحاب رسول الله ﷺ فى الشعب يوم أحد ، فسألوا ما فعل النبى ﷺ ، وما فعل فلان ، فنعى بعضهم لبعض ، وتحدثوا أن النبى ﷺ قد قتل ، فكانوا فى هم وحزن، فبينما هم كذلك علا خالد بن الوليد بخيل المشركين فوقهم على الجبل ، وكانوا على أحد مجنبتى المشركين ، وهم أسفل من الشعب ، فلما رأوا النبى ﷺ فرحوا ، فقال النبى ﷺ : « اللهم لا قوة لنا إلا بك، **وليس أحد يعبدك بهذا البلد غير هؤلاء النفر فلا تهلكهم** » **وثاب نفر من المسلمين رماة فصعدوا فرموا خيل المشركين حتى هزمهم الله ، وعلا المسلمون الجبل فذلك قوله** : ﴿ **وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [٢] . وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك ﴿ **وأنتم الأعلون** ﴾ قال : وأنتم الغالبون .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **إن يمسسكم قرح** ﴾ قال : جراح وقتل . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله** ﴾ قال : إن يقتل منكم يوم أحد فقد قتل منهم يوم بدر. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وتلك الأيام نداولها بين الناس** ﴾ قال : كان يوم أحد بيوم بدر . وأخرج ابن جرير وابن المنذر من طريق ابن جريج عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وتلك الأيام** ﴾ الآية. قال: أدال المشركين على النبى ﷺ يوم أحد ، وبلغنى أن المشركين قتلوا من المسلمين يوم أحد بضعة وسبعين عدد الأسارى الذين

(١، ٢) ابن جرير ٤/ ٦٧ .

أسروا يوم بدر من المشركين ، وكان عدد الأسارى يوم بدر ثلاثة وسبعين رجلا. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ويتخذ منكم شهداء** ﴾ قال : إن المسلمين كانوا يسألون ربهم : اللهم ربنا أرنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين ونبليك فيه خيرًا ، ونلتمس فيه الشهادة ، فلقوا المشركين يوم أحد فاتخذ منهم شهداء .

وأخرجا عنه فى قوله: ﴿ **وليمحص الله الذين آمنوا** ﴾ قال: يبتليهم ﴿**ويمحق الكافرين** ﴾ قال ينقصهم . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عنه ؛ أن رجالا من أصحاب النبى ﷺ كانوا يقولون : ليتنا نقتل كما قتل أصحاب بدر ، ونستشهد ، أو ليت لنا يوما كيوم بدر نقاتل فيه المشركين، ونبلى فيه خيراً، ونلتمس الشهادة والجنة، والحياة والرزق ، فأشهدهم الله أحداً، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم . فقال الله : ﴿ **ولقد كنتم تمنون الموت** ﴾ الآية .

وأخرج ابن المنذر عن كليب قال : خطبنا عمر بن الخطاب ، فكان يقرأ على المنبر آل عمران ويقول : إنها أحدية، ثم قال : تفرقنا عن رسول الله ﷺ يوم أحد فصعدت الجبل فسمعت يهوديا يقول : قتل محمد ، فقلت : لا أسمع أحداً يقول : قتل محمد إلا ضربت عنقه ، فنظرت فإذا رسول الله ﷺ والناس يتراجعون إليه ، فنزلت هذه الآية ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل** ﴾ . وأخرج ابن جرير عن الضحاك قال : نادى مناد يوم أحد ألا إن محمداً قد قتل فارجعوا إلى دينكم الاول فأنزل الله : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل**﴾ (١) . وأخرج أيضا عن مجاهد نحوه (٢) . وأخرج أيضا عن على فى قوله : ﴿**وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ قال : الثابتين على دينهم أبا بكر وأصحابه ، فكان على يقول : كان أبو بكر أمير الشاكرين . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى والحاكم عنه ؛ أنه كان يقول فى حياة رسول الله ﷺ إن الله يقول : ﴿ **أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم**﴾ والله لا ننقلب على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ، والله لئن مات أو قتل لأقاتلن على ما قتل عليه حتى أموت .

وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن مسعود فى قوله : ﴿ **ربيون** ﴾ قال: ألوف . وأخرج سعيد بن منصور عن الضحاك قال : الربة الواحدة ألف . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ﴿ **ربيون** ﴾ قال : جموع . وأخرج ابن جرير عنه قال : علماء كثير . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿ **وما استكانوا** ﴾ قال : تخشعوا . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عنه فى قوله : ﴿**وإسرافنا فى أمرنا** ﴾ قال : خطايانا .

﴿ **يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا إن تُطيعُوا الَّذينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ**(١٤٩)

(١، ٢) المرجع السابق ٤ / ٧٤ .

بَلِ اللَّهُ مَوْلاكُمْ وهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِين (١٥٠) سنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِما أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ (١٥١) وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ واللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ (١٥٢) إِذْ تُصْعِدُونَ وَلا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ والرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِكَيْلا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا مَا أَصَابَكُمْ واللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ(١٥٣)﴾ .

لما أمر الله سبحانه بالاقتداء بمن تقدم من أنصار الأنبياء حذر عن طاعة الكفار وهم مشركو العرب. وقيل : اليهود والنصارى . وقيل : المنافقون فى قولهم للمؤمنين عند الهزيمة: ارجعوا إلى دين آبائكم . وقوله : ﴿ **يردوكم على أعقابكم** ﴾ أى يخرجوكم من دين الإسلام إلى الكفر ﴿ **فتنقلبوا خاسرين** ﴾ أى ترجعوا مغبونين . وقوله : ﴿ **بل الله مولاكم** ﴾ إضراب عن مفهوم الجملة الأولى ، أى إن تطيعوا الكافرين يخذلوكم ولا ينصروكم بل الله ناصركم لا غيره . وقرئ: « **بل الله** » بالنصب على تقدير : بل أطيعوا الله .

قوله : ﴿ **سنلقى** ﴾ قرأ السَّخْتِيَانِى [1] بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالنون . وقرأ ابن عامر والكسائى «الرعب» بضم العين ، وقرأ الباقون بالسكون وهما لغتان ، يقال : رَعَبْتُه رُعبا ورُعْبًا فهوَ مَرْعُوب ، ويجوز أن يكون مصدراً ، والرُّعب بالضم الاسم ، وأصله المَلْءُ . يقال: سَيْل راعب ، أى يملأ الوادى ، ورعبت الحوض : ملأته ، فالمعنى : سنملأ قلوب الكافرين رعبًا ، أى خوفًا وفزعًا ، والإلقاء يستعمل حقيقة فى الأجسام ، ومجازا فى غيرها كهذه الآية ، وذلك أن المشركين بعد وقعة أحد ندموا ألا يكونوا استأصلوا المسلمين ، وقالوا : بئسما صنعنا، قتلناهم حتى إذا لم يبق منهم إلا الشر تركناهم ؛ ارجعوا فاستأصلوهم ، فلما عزموا على ذلك ألقى الله فى قلوبهم الرعب حتى رجعوا عما هموا به ﴿ **بما أشركوا بالله** ﴾ متعلق بقوله : ﴿**سنلقى** ﴾ « وما » مصدرية أى بسبب إشراكهم ﴿ **ما لم ينزل به سلطانا** ﴾ أى ما لم ينزل الله بجعله شريكًا له حجة وبيانًا وبرهانًا ، والنفى يتوجه إلى القيد والمقيد ، أى لا حجة ولا

(١) هو : أبو بكر أيوب بن أبى تميمة كَيْسان الغزى ، مولاهم البصرى ، وهو من صغار التابعين ، فقد ولد فى العام الذى توفى فيه ابن عباس ٦٨ هـ وروى عن سعيد بن جبير وأبى العالية ومجاهد والحسن البصرى وغيرهم، وممن روى عنه محمد بن سيرين والزهرى وقتادة ـ وهم من شيوخه ـ وسفيان ومالك وغيرهم . قال عنه الحسن : «أيوب سيد شباب أهل البصرة » وقال ابن عيينة : «ما رأيت مثل أيوب » وقال مالك : «كنا ندخل على أيوب السَّخْتِيَانِىّ فإذا ذكرنا له حديث رسول الله ﷺ بكى حتى نرحمه » وقال محمد بن سعد الكتاب : «كان أيوب ثقة ، ثبتًا فى الحديث ، جامعًا، كثير العلم ، حجة ، عدلا ، توفى بالبصرة زمن الطاعون ١٣١ هـ عن ٦٣ سنة » . انظر : سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥ ـ ٢٦ .

إنزال ، والمعنى : أن الإشراك بالله لم يثبت فى شىء من الملل ، والمثوى: المكان الذى يقام فيه ، يقال : ثوى يثوى ثواءً [١] .

قوله : ﴿ **ولقد صدقكم الله وعده** ﴾ نزلت لما قال بعض المسلمين : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا الله النصر [٢]، وذلك أنه كان الظفر لهم فى الابتداء حتى قتلوا صاحب لواء المشركين وتسعة نفر بعده ؛ فلما اشتغلوا بالغنيمة وترك الرماة مركزهم طلبا للغنيمة كان ذلك سبب الهزيمة . والحس : الاستئصال بالقتل ، قاله أبو عبيد . يقال : جراد محسوس : إذا قتله البرد ، وسَنة حسوس : أى جدبة تأكل كل شىء . قيل : وأصله من الحس الذى هو الإدراك بالحاسة ، فمعنى حسه : أذهب حسه بالقتل ، وتحسونهم : تقتلونهم وتستأصلونهم . قال الشاعر :

حسسناهم بالسيف حسًّا فَأصْبَحت ... بِقـيَّتُهم قد شُرِّدوا وتَبَدَّدوا

وقال جرير :

تَحُسُّهُم السّيـوفُ كما تسامَى ... حَرِيقُ النَّارِ فى الأجمِ الحَصِيدِ

﴿ **بإذنه** ﴾ أى بعلمه أو بقضائه ﴿ **حتى إذا فشلتم** ﴾ أى جبنتم وضعفتم . قيل : جواب حتى محذوف تقديره : امتحنتم ، وقال الفراء : جواب حتى قوله : ﴿ **وتنازعتم** ﴾ والواو مقحمة زائدة كقوله : ﴿ **فلما أسلما وتله للجبين** ﴾ [الصافات : ١٠٣] وقال أبو على : يجوز أن يكون الجواب صرفكم عنهم . وقيل : فيه تقديم وتأخير ، أى حتى إذا تنازعتم وعصيتم فشلتم . وقيل : إن الجواب عصيتم ، والواو مقحمة . وقد جوز الأخفش مثله فى قوله تعالى: ﴿ حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم ﴾ [التوبة : ١١٨] . وقيل : «حتى » بمعنى « إلى » وحينئذ لا جواب لها ، والتنازع المذكور هو ما وقع من الرماة حين قال بعضهم : نلحق الغنائم ، وقال بعضهم : نثبت فى مكاننا كما أمرنا رسول الله ﷺ . ومعنى قوله : ﴿ **من بعد ما أراكم ما تحبون** ﴾ ما وقع لهم من النصر فى الابتداء فى يوم أحد كما تقدم ﴿ **منكم من يريد الدنيا** ﴾ يعنى الغنيمة ﴿ **ومنكم من يريد الآخرة** ﴾ أى الأجر بالبقاء فى مراكزهم امتثالا لأمر رسول الله ﷺ ﴿ **ثم صرفكم عنهم ليبتليكم** ﴾ أى ردكم الله عنهم بالانهزام بعد أن استوليتم عليهم ليمتحنكم ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ لما علم من ندمكم فلم يستأصلكم بعد المعصية والمخالفة ، والخطاب لجميع المنهزمين ، وقيل : للرماة فقط .

قوله : ﴿ **إذ تصعدون** ﴾ متعلق بقوله : ﴿ **صرفكم** ﴾ أو بقوله : ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ أو بقوله : ﴿ **ليبتليكم** ﴾ وقرأه الجمهوربضم التاء وكسر العين ، وقرأ أبو رجاء العطاردى ،

(١) وقيل: الثواء: الإقامة مع الاستقرار. اللسان ١٤/ ١٢٥. قال عز وجل: ﴿ وما كنت ثاويًا فى أهل مدين ﴾ [القصص : ٤٥] .

(٢) ابن جرير ٤/ ٨٦ عن القاسم .

وأبو عبد الرحمن السلمى ، والحسن، وقتادة بفتح التاء والعين. وقرأ ابن محيصن وقنبل : «يصعدون» بالتحتية . قال أبو حاتم : أصعدت : إذا مضيت حيال وجهك ، وصعدت : إذا ارتقيت فى جبل ، فالإصعاد : السير فى مستوى الأرض وبطون الأودية ، والصعود : الارتفاع على الجبال والسطوح والسلالم والدرج ، فيحتمل أن يكون صعودهم فى الجبل بعد إصعادهم فى الوادى، فيصح المعنى على القراءتين . وقال القتيبى : أصعد : إذا أبعد فى الذهاب وأمعن فيه. ومنه قول الشاعر[١] :

ألا أيهذا السَائلى أيْنَ أصْعدت فإنَّ لَها من بَطْن يَثرِبَ مَوْعِدا

وقال الفراء : الإصعاد : الابتداء فى السفر ، والانحدار : الرجوع منه ، يقال : أصعدنا من بغداد إلى مكة ، وإلى خراسان ، وأشباه ذلك : إذا خرجنا إليها وأخذنا فى السفر ، وانحدرنا إذا رجعنا .وقال المفضل : صعد وأصعد بمعنى واحد. ومعنى ﴿ **تلوون** ﴾ : تعرجون وتقيمون ، أى لا يلتفت بعضكم إلى بعض هربًا ، فإن المعرج إلى الشىء يلوى [٢] إليه عنقه أو عنق دابته . ﴿ **على أحد** ﴾ أى على أحد ممن معكم . وقيل : على رسول الله ﷺ . وقرأ الحسن : « تلون » بواو واحدة ، وقرأ عاصم فى رواية عنه بضم التاء وهى لغة . قوله : ﴿ **والرسول يدعوكم فى أخراكم** ﴾ أى فى الطائفة المتأخرة منكم ، يقال : جاء فلان فى آخر الناس ، وآخرة الناس ، وأخرى الناس ، وأخريات الناس . وكان دعاء النبى ﷺ : « أى عباد الله ارجعوا » [٣] . قوله : ﴿ **فأثابكم** ﴾[٤] عطف على صرفكم . أى فجازاكم الله غمًا حين صرفكم عنه بسبب غم أذقتموه رسول الله ﷺ بعصيانكم ، أو غمًا موصولا بغم بسبب ذلك الإرجاف والجرح والقتل وظفر المشركين . والغم فى الأصل : التغطية ، غميت الشىء : غطيته ، ويوم غم ، وليلة غمة : إذا كانا مظلمين ، ومنه : غم الهلال . وقيل : الغم الأول: الهزيمة ، والثانى : الإشراف من أبى سفيان [٥] ، وخالد بن الوليد عليهم فى الجبل . قوله : ﴿ **لكيلا تحزنوا** ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ **فأثابكم** ﴾ أى هذا الغم بعد الغم لكيلا تحزنوا على ما فات من الغنيمة ، ولا ما أصابكم من الهزيمة ، تمرينا لكم على المصائب وتدريبًا لاحتمال الشدائد . وقال المفضل: معنى : ﴿ **لكيلا تحزنوا** ﴾ لكى تحزنوا ، و «لا » زائدة كقوله تعالى : ﴿ ما منعك ألا تسجد ﴾ [الأعراف : ١٢] أى أن تسجد ، وقوله : ﴿ لئلا يعلم أهل الكتاب﴾ [الحديد : ٢٩] أى ليعلم .

وقد أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **يا أيها الذين**

---

(١) الشاعر: هو أعشى قيس ، والبيت من قصيدة مدح بها النبى ﷺ .

(٢) فى المطبوعة :« يأوى » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٣) مجاز القرآن لأبى عبيد ١/ ١٠٥ ومعانى القرآن للفراء ١/ ٢٣٩ وابن جرير ٤/ ٨٨ .

(٤) الإثابة هنا : فى معنى عقاب .

(٥) فى المطبوعة : « إشراف أبى هريرة » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا ﴾ قال : لا تنتصحوا اليهود والنصارى على دينكم ولا تصدقوهم بشيء في دينكم . وأخرج ابن أبي حاتم عن السدى يقول : إن تطيعوا أبا سفيان بن حرب يردكم كفارًا . وأخرج ابن جرير عنه في قوله : ﴿ سنلقى في قلوب الذين كفروا الرعب ﴾ نحو ما قدمناه في سبب نزول الآية [١] . وأخرج البيهقي في الدلائل عن عروة في قوله : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده ﴾ قال : كان الله وعدهم على الصبر والتقوى أن يمدهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ، وكان قد فعل، فلما عصوا أمر رسول الله ﷺ ، وتركوا مصافهم ، وتركت الرماة عهد الرسول إليهم ألا يبرحوا منازلهم، وأرادوا الدنيا رفع عنهم مدد الملائكة[٢]. وقصة أحد مستوفاة في السير والتواريخ ، فلا حاجة إلى إطالة الشرح هنا .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن عبد الرحمن بن عوف في قوله: ﴿ إذ تحسونهم ﴾ قال : الحس: القتل. وأخرج عبد بن حميد عن ابن عباس مثله. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عنه قال: الفشل: الجبن. وأخرج ابن المنذر عن البراء بن عازب في قوله: ﴿ من بعد ما أراكم ما تحبون ﴾ قال: الغنائم وهزيمة القوم . وأخرج ابن جرير عن الحسن في قوله: ﴿ ولقد عفا عنكم ﴾ قال: يقول الله قد عفوت عنكم ألا أكون استأصلتكم. وأخرج أيضا عن ابن جرير نحوه.

وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس ﴿ إذ تصعدون ﴾ قال : أصعدوا في أحُد فرارا والرسول يدعوهم في أخراهم:« إلى عبادَ الله ، ارجعوا ، إلىَّ عباد الله ، ارجعوا » [٣] . وأخرج ابن مردويه عن عبد الرحمن بن عوف ﴿ فأثابكم غمًا بغم ﴾ قال: الغم الأول : بسبب الهزيمة ، والثاني : حين قيل : قتل محمد ، وكان ذلك عندهم أعظم من الهزيمة . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن مجاهد في قوله : ﴿ غما بغم ﴾ قال : فرة بعد الفرة الأولى حين سمعوا الصوت أن محمداً قد قتل . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم قال : الغم الأول : الجراح والقتل ، والغم الآخر : حين سمعوا أن النبي ﷺ قد قتل . وأخرج ابن جرير عن الربيع مثله .

﴿ ثُمَّ أنزل عليكُم مِن بعد الغمِ أمنة نُعاسًا يغشى طائفةً مِنكُم وطَائفةٌ قد أهمتهم أنفسهم يظُنُّون باللَّه غيرَ الحقِ ظنَ الجاهليةِ يقولُون هل لَنَا من الأمرِ من شيءٍ قُل إنَ الأمرَ كلَّهُ للَّه يُخفُون في أنفسهم مَا لا يبدُون لك يقولُون لوْ كان لنا من الأمرِ شيءٌ مَا قُتلْنا ها هُنا قُل لَوْ كُنتُم في بيُوتكُم لبرزَ الذين كُتبَ عليهمُ القتْل إلَى مضَاجعهمْ وليَبْتلي اللَّهُ ما في صُدُوركُم وليُمحّص مَا في قُلوبكُمْ واللَّهُ عليمٌ بذات الصُّدُور (١٥٤) إنَ الذين تولَّوْا منكُمْ يومَ التقى الجمْعَان إنَما استزلَّهُمُ الشيْطانُ ببعضِ ما كَسبُوا ولَقدْ عفا اللَّهُ عَنْهُم إنَّ اللَّه غفُورٌ

(١) ابن جرير ٤/ ٨١ . (٢) البيهقي في الدلائل ٣/ ٢٥٦ . (٣) ابن جرير ٤/ ٨٧ ، ٨٨ .

حليم(١٥٥) ﴾ .

الأمنة والأمن سواء . وقيل : الأمنة إنما تكون مع أسباب الخوف ، والأمن مع عدمه ، وهى منصوبة بأنزل . و﴿**نعاسا**﴾ بدل منها ، أو عطف بيان ، أو مفعول له ، وأما ما قيل من أن ﴿ **أمنة** ﴾ حال من ﴿ **نعاسا** ﴾ مقدمة عليه ، أو حال من المخاطبين ، أو مفعول له فبعيد . وقرأ ابن محيصن : « أمنة » بسكون الميم . قوله : ﴿ **يغشى** ﴾ قرئ بالتحتية على أن الضمير للنعاس ، وبالفوقية على أن الضمير لأمنة [1] . والطائفة : تطلق على الواحد والجماعة، والطائفة الأولى: هم المؤمنون الذين خرجوا للقتال طلبًا للأجر ، والطائفة الأخرى : هم مُعتِّب ابن قشير وأصحابه ، وكانوا خرجوا طمعاً فى الغنيمة ، وجعلوا يناشدون على الحضور ، ويقولون الأقاويل . ومعنى ﴿**أهمتهم أنفسهم** ﴾ :حملتهم على الهم ، أهمنى الأمر : أقلقنى، والواو فى قوله : ﴿ **وطائفة** ﴾ للحال ، وجاز الابتداء بالنكرة لاعتمادها على واو الحال ، وقيل: إن معنى ﴿ **أهمتهم أنفسهم** ﴾ صارت همهم لا هم لهم غيرها ﴿ **يظنون بالله غير الحق**﴾ هذه الجملة فى محل نصب على الحال ، أى يظنون بالله غير الحق الذى يجب أن يظن به ، وظن الجاهلية بدل منه ، وهو الظن المختص بملة الجاهلية ، أو ظن أهل الجاهلية ، وهو ظنهم أن أمر النبى ﷺ باطل ، وأنه لا ينصر ولايتم ما دعا إليه من دين الحق .

وقوله : ﴿ **يقولون** ﴾ بدل من ﴿ **يظنون** ﴾ أى يقولون لرسول ﷺ : ﴿ هل لنا من الأمر من شىء ﴾ ؟ أى هل لنا من أمر الله نصيب . وهذا الاستفهام معناه : الجحد ، أى ما لنا شىء من الأمر . وهو النصر والاستظهار على العدو . وقيل : هو الخروج ، أى إنما خرجنا مكرهين، فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ **قل إن الأمر كله لله** ﴾ وليس لكم ولا لعدوكم منه شىء، فالنصر بيده والظفر منه . وقوله : ﴿ **يخفون فى أنفسهم** ﴾ أى يضمرون فى أنفسهم النفاق ولا يبدون لك ذلك، بل يسألونك سؤال المسترشدين . وقوله : ﴿ **يقولون لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا ها هنا** ﴾ استئناف كأنه قيل: ما هو الأمر الذى يخفون فى أنفسهم ؟ فقيل : يقولون فيما بينهم أو فى أنفسهم : ﴿ **لو كان لنا من الأمر شىء ما قتلنا هاهنا** ﴾ أى ما قتل من قتل منا فى هذه المعركة ، فرد الله سبحانه ذلك عليهم بقوله : ﴿ **قل لو كنتم فى بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم** ﴾ أى لو كنتم قاعدين فى بيوتكم لم يكن بدٌ من خروج من كتب عليه القتل إلى هذه المصارع التى صرعوا فيها ، فإن قضاء الله لا يرد .

وقوله : ﴿ **وليبتلى الله ما فى صدوركم** ﴾ علة لفعل مقدر قبلها معطوفة على علل له أخرى مطوية للإيذان بكثرتها ، كأنه قيل : فعل ما فعل لمصالح جمة ﴿ **وليبتلى** ﴾ إلخ . وقيل: إنه معطوف على علة مطوية لبرز ، والمعنى : ليمتحن ما فى صدوركم من الإخلاص ،

---

(١) يقول ابن جرير ٤/ ٩٢ : «الأمنة فى هذا الموضع هى : النعاس ، والنعاس هو : الأمنة » .

وليمحص ما فى قلوبكم من وساوس الشيطان . قوله : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ﴾ أى انهزموا يوم أحد ، وقيل : المعنى : إن الذين تولوا المشركين يوم أحد ﴿ **إنما استزلهم الشيطان** ﴾ استدعى زللهم بسبب بعض ما كسبوا من الذنوب التى منها مخالفة رسول الله ﷺ ﴿ **ولقد عفا الله عنهم** ﴾ لتوبتهم واعتذارهم .

وقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس فى الآية قال : أمنهم الله يومئذ بنعاس غشاهم ، وإنما ينعس من يأمن . وقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره أن أبا طلحة قال : غشينا ونحن فى مصافنا يوم أحد فجعل سيفى يسقط من يدى وآخذه ، ويسقط وآخذه ، فذلك قوله : ﴿ **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا . . .** ﴾ الآية [١] . وأخرج الترمذى وصححه ، وابن جرير وأبو الشيخ ، والبيهقى فى الدلائل عن الزبير بن العوام ؛ قال : رفعت رأسى يوم أحد فجعلت أنظر وما منهم من أحد إلا وهو يميل [٢] تحت جحفته من النعاس ، وتلا هذه الآية[٣] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريج قال : إن المنافقين قالوا لعبد الله بن أبى ، وكان سيد المنافقين : قتل اليوم بنو الخزرج، فقال : وهل لنا من الأمر شىء ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل . وأخرج ابن جرير عن قتادة والربيع فى قوله : ﴿ **ظن الجاهلية** ﴾ قال : ظن أهل الشرك . وأخرج ابن إسحاق وابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : معتب هو الذى قال يوم أحد : لو كان لنا من الأمر شىء . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن أن الذى قال ذلك عبد الله بن أبى .

وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن عبد الرحمن بن عوف فى قوله : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان** ﴾ قال : هم ثلاثة ، واحد من المهاجرين . واثنان من الأنصار . وأخرج ابن منده وابن عساكر عن ابن عباس فى الآية ؛ قال : نزلت فى عثمان ، ورافع بن المعلى ، وخارجة بن زيد . وقد روى فى تعيين « من » فى الآية روايات كثيرة .

﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِندَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١٥٦) وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ (١٥٨) فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ (١٥٩) إِن يَنصُرْكُمُ**

---

(١) البخارى فى المغازى (٤٠٦٨) وفى التفسير (٤٥٦٢) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٨) وأحمد ٤/ ٢٩ .
(٢) عند الترمذى : « يميد » أى يميل . والجحفة : الترس المصنوع من الجلد . الترمذى ٤/ ٢١٣ التعليق على الترمذى .
(٣) الترمذى فى التفسير (٣٠٠٧) وقال: «حسن صحيح» وابن جرير ٤/ ٩٣ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٧٢ .

اللَّهُ فَلا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١٦٠) وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١٦١) أَفَمَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٦٢) هُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ (١٦٣) لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ (١٦٤) ﴾

قوله : ﴿ **لا تكونوا كالذين كفروا** ﴾ هم المنافقون الذين قالوا : ﴿ **لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا** ﴾ . قوله: ﴿ **وقالوا لإخوانهم** ﴾ فى النفاق أو فى النسب ، أى قالوا لأجلهم ﴿ إذا ضربوا فى الأرض ﴾ إذا ساروا فيها للتجارة أو نحوها . قيل : إن « إذا » هنا المفيدة لمعنى الاستقبال بمعنى « إذا » المفيدة لمعنى المضى . وقيل : هى على معناها، والمراد هنا: حكاية الحال الماضية . وقال الزجاج : « إذا » هنا تنوب عن ما مضى من الزمان وما يستقبل ﴿ **لو كانوا غزى** ﴾ جمع غاز ،كراكع وركع ، وغائب وغيب . قال الشاعر :

قل للقوافل والغزى إذا غزوا

﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم** ﴾ اللام متعلقة بقوله : ﴿ **قالوا** ﴾ أى قالوا ذلك واعتقدوه ليكون حسرة فى قلوبهم، والمراد: أنه صار ظنهم أنهم لو لم يخرجوا ما قتلوا حسرة، أو متعلقة بقوله : ﴿ **لا تكونوا** ﴾ أى لا تكونوا مثلهم فى اعتقاد ذلك ليجعله الله حسرة فى قلوبهم فقط دون قلوبكم . وقيل : المعنى : لا تلتفتوا إليهم ليجعل الله عدم التفاتكم إليهم حسرة فى قلوبهم . وقيل : المراد : حسرة فى قلوبهم يوم القيامة لما فيه من الخزى والندامة ﴿**والله يحيى ويميت** ﴾ فيه ردّ على قولهم ، أى ذلك بيد الله سبحانه يصنع ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، فيحيى من يريد ، ويميت من يريد ، من غير أن يكون للسفر أو الغزو أثر فى ذلك، واللام فى قوله : ﴿ **ولئن قتلتم** ﴾ موطئة . وقوله: ﴿ **لمغفرة** ﴾ جواب القسم سادّ مسدّ جواب الشرط ، والمعنى: أن السفر والغزو ليسا مما يجلب الموت ، ولئن وقع ذلك بأمر الله سبحانه . ﴿ **لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون** ﴾ أى الكفرة من منافع الدنيا وطيباتها مدة أعمارهم على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، أو خير مما تجمعون أيها المسلمون من الدنيا ومنافعها على قراءة من قرأ بالفوقية . والمقصود فى الآية : بيان مزية القتل أو الموت فى سبيل الله وزيادة تأثيرهما فى استجلاب المغفرة والرحمة .

قوله : ﴿ **ولئن متم أو قتلتم** ﴾ على أى وجه حسب تعلق الإرادة الإلهية ﴿ **لإلى الله تحشرون** ﴾ هو جواب القسم المدلول عليه باللام الموطئة سادّ مسدّ جواب الشرط كما تقدم فى

الجملة الأولى ، أى إلى الرب الواسع المغفرة تحشرون لا إلى غيره كما يفيده تقديم الظرف على الفعل مع ما في تخصيص اسم الله سبحانه بالذكر من الدلالة على كمال اللطف والقهر. و«ما» في قوله: ﴿ **فبما رحمة من الله** ﴾ مزيدة للتأكيد ، قاله سيبويه وغيره . وقال ابن كيسان: إنها نكرة في موضع جر بالباء ، ورحمة بدل منها ، والأول أولى بقواعد العربية ومثله قوله تعالى: ﴿ **فبما نقضهم ميثاقهم** ﴾ [النساء : ١٥٥] والجار والمجرور متعلق بقوله : ﴿ **لنت لهم** ﴾ وقدم عليه لإفادة القصر، وتنوين رحمة للتعظيم ، والمعنى : أن لينه لهم ما كان إلا بسبب الرحمة العظيمة منه . وقيل : إن « ما » استفهامية ، والمعنى : فبأى رحمة من الله لنت لهم ؟ وفيه معنى التعجب وهو بعيد ، ولو كان كذلك لحذف الألف من « ما » . وقيل : فبما رحمة من الله . والفظ : الغليظ الجافي . وقال الراغب : الفظ هو الكريه الخلق ، وأصله : فظظ كحذر، وغلظ القلب: قساوته وقلة إشفاقه وعدم انفعاله للخير. والانفضاض : التفرق . يقال: فضضتهم فانفضوا ، أى فرقتهم فتفرقوا ، والمعنى : لو كنت فظا غليظ القلب لا ترفق بهم لتفرقوا من حولك هيبة لك ، واحتشاما منك ، بسبب ما كان من توليهم ، وإذا كان الأمر كما ذكر ﴿ **فاعف عنهم** ﴾ فيما يتعلق بك من الحقوق ﴿ **واستغفر لهم**﴾ الله سبحانه فيما هو إلى الله سبحانه ﴿ **وشاورهم في الأمر** ﴾ أى الذى يرد عليك، أى أمر كان مما يشاور في مثله، أو في أمر الحرب خاصة كما يفيده السياق لما في ذلك من تطييب خواطرهم ، واستجلاب مودتهم، ولتعريف الأمة بمشروعية ذلك ، حتى لا يأنف منه أحد بعدك . والمراد هنا : المشاورة في غير الأمور التى يرد الشرع بها . قال أهل اللغة : الاستشارة مأخوذة من قول العرب . شرت الدابة وشورتها : إذا علمت خبرها . وقيل : من قولهم : شرت العسل : إذا أخذته من موضعه . قال ابن خويز منداد : واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون ، وفيما أشكل عليهم من أمور الدنيا ، ومشاورة وجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب ، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح ، ووجوه الكتاب والعمال والوزراء فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها . وحكى القرطبي عن ابن عطية أنه لا خلاف في وجوب عزل من لا يستشير أهل العلم والدين.

قوله : ﴿ **فإذا عزمت فتوكل على الله** ﴾ أى إذا عزمت عقب المشاورة على شيء ، واطمأنت به نفسك ، فتوكل على الله في فعل ذلك . أى اعتمد عليه وفوض إليه . وقيل : إن المعنى : فإذا عزمت على أمر أن تمضى فيه فتوكل على الله لا على المشاورة . والعزم في الأصل[١] : قصد الإمضاء ، أى فإذا قصدت إمضاء أمر فتوكل على الله . وقرأ جعفر الصادق وجابر بن زيد : « فإذا عزمت » بضم التاء بنسبة العزم إلى الله تعالى ، أى فإذا عزمت لك على شيء وأرشدتك إليه فتوكل على الله .

وقوله : ﴿ **إن ينصركم الله فلا غالب لكم** ﴾ جملة مستأنفة لتأكيد التوكل والحث عليه

---

(١) والعزم : هو الأمر الذي المنتج ، وليس ركوب الرأى دون روية عزمًا . اللسان ١٢/ ٣٩٩ .

والخذلان : ترك العون، أى وإن يترك الله عونكم ﴿ **فمن ذا الذى ينصركم من بعده** ﴾ وهذا الاستفهام إنكارى . والضمير فى قوله : ﴿ **من بعده** ﴾ راجع إلى الخذلان المدلول عليه بقوله : ﴿ **وإن يخذلكم** ﴾ أو إلى الله ، ومن علم أنه لا ناصر له إلا الله سبحانه وأن من نصره الله لا غالب له ، ومن خذله لا ناصر له، فوض أموره إليه وتوكل عليه ولم يشتغل بغيره ، وتقديم الجار والمجرور على الفعل فى قوله: ﴿ **وعلى الله فليتوكل المؤمنون** ﴾ لإفادة قصره عليه.

قوله : ﴿ **وما كان لنبى أن يغلّ** ﴾ أى ماصحّ له ذلك لتنافى الغلول والنبوة . قال أبو عبيد: الغلول من المغنم خاصَّة ، ولا نراه من الخيانة ولا من الحقد ، ومما يبين ذلك أنه يقال : من الخيانة : أغَلّ يغِلّ ، ومن الحِقْد : غَلّ يَغِلُّ بالكسر ، ومن الغُلول : غَلَّ يَغُلُّ بالضم . يقال : غل المغنم غلولا ، أى خان بأن يأخذ لنفسه من غير اطلاع أصحابه. وفيه تنزيه الأنبياء عن الغلول . ومعناها على القراءة بالبناء للمفعول : **ما صح** لنبى أن يغله أحد من أصحابه ، أى يخونه فى الغنيمة ، وهو على هذه القراءة الأخرى نهى الناس عن الغلول فى المغانم ، وإنما خص خيانة الأنبياء مع كونه خيانة غيرهم من الأئمة والسلاطين والأمراء حرامًا ؛ لأن خيانة الأنبياء أشد ذنبًا وأعظم وزرا ﴿ ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامة ﴾ أى يأت به حاملا له على ظهره كما صح ذلك عن النبى ﷺ ، فيفضحه بين الخلائق ، وهذه الجملة تتضمن تأكيد تحريم الغلول والتنفير منه ، بأنه ذنب يختص فاعله بعقوبة على رؤوس الأشهاد ، يطلع عليها أهل المحشر ، وهى مجيئه يوم القيامة بما غله حاملا له قبل أن يحاسب عليه ويعاقب عليه . قوله : ﴿ **ثم توفى كل نفس ما كسبت** ﴾ أى تعطى جزاء ما كسبت ، وافيا من خير وشر ، وهذه الآية تعم كل من كسب خيرا أو شراً ، ويدخل تحتها الغال دخولا أوليا لكون السياق فيه .

قوله : ﴿ **أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله** ﴾ الاستفهام للإنكار ، أى ليس من اتبع رضوان الله فى أوامره ونواهيه فعمل بأمره واجتنب نهيه كمن باء ، أى رجع بسخط عظيم ، كائن من الله ، بسبب مخالفته لما أمر به ونهى عنه . ويدخل تحت ذلك من اتبع رضوان الله بترك الغلول واجتنابه ، ومن باء بسخط من الله بسبب إقدامه على الغلول . ثم أوضح ما بين الطائفتين من التفاوت فقال : ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾ أى متفاوتون فى الدرجات ، والمعنى : هم ذوو درجات ، أو لهم درجات ، فدرجات من اتبع رضوان الله ليست كدرجات من باء بسخط من الله، فإن الأولين فى أرفع الدرجات. والآخرين فى أسفلها.

قوله : ﴿ **لقد من الله على المؤمنين** ﴾ جواب قسم محذوف ، وخص المؤمنين لكونهم المنتفعين ببعثته . ومعنى ﴿ **من أنفسهم** ﴾ : أنه عربى مثلهم . وقيل : بشر مثلهم ، ووجه المنة على الأول : أنهم يفقهون عنه ويفهمون كلامه ولا يحتاجون إلى ترجمان . ومعناها على الثانى : أنهم يأنسون به بجامع البشرية ، ولو كان ملكًا لم يحصل كمال الأنس به لاختلاف الجنسية ، وقرئ « من أنفَسهم » بفتح الفاء ، أى من أشرفهم لأنه من بنى هاشم ، وبنو هاشم

أفضل قريش ، وقريش أفضل العرب ، والعرب أفضل من غيرهم ، ولعل وجه الامتنان على هذه القراءة : أنه لما كان من أشرفهم كانوا أطوع له، وأقرب إلى تصديقه ، ولابد من تخصيص المؤمنين فى هذه الآية بالعرب على الوجه الأول ، وأما على الوجه الثانى فلا حاجة إلى هذا التخصيص، وكذا على قراءة من قرأ بفتح الفاء لاحاجة إلى التخصيص ؛ لأن بنى هاشم هم أنفس العرب والعجم فى شرف الأصل وكرم النجاد [١] ، ورفاعة المحتد . ويدل على الوجه الأول قوله تعالى : ﴿ هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم ﴾ [الجمعة : ٢] ، وقوله : ﴿وإنه لذكر لك ولقومك ﴾ [الزخرف : ٤٤] . قوله: ﴿ يتلو عليهم آياته ﴾ هذه منة ثانية ، أى يتلو عليهم القرآن بعد أن كانوا أهل جاهلية لا يعرفون شيئًا من الشرائع ﴿ ويزكيهم ﴾ أى يطهرهم من نجاسة الكفر ، وهذه الجملة معطوفة على الجملة الأولى ، وهما فى محل نصب على الحال ، أو صفة لرسول ، وهكذا قوله : ﴿ويعلمهم الكتاب ﴾ والمراد بالكتاب هنا : القرآن . والحكمة : السنة ، وقد تقدم فى البقرة تفسير ذلك : ﴿ وإن كانوا من قبل ﴾ أى من قبل محمد ، أومن قبل بعثته ﴿لفى ضلال مبين ﴾ أى واضح لا ريب فيه ، واللام للفرق بين إن المخففة من الثقيلة، وبين النافية ، فهى تدخل فى خبر المخففة لا النافية ، واسمها ضمير الشأن ، أى وإن الشأن والحديث. وقيل : إنها النافية ، واللام بمعنى إلا ، أى وما كانوا من قبل إلا فى ضلال مبين ، وبه قال الكوفيون ، والجملة على التقديرين فى محل نصب على الحال .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله تعالى: ﴿ **وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض** . . .﴾ الآية . قال : هذا قول عبد الله بن أبى ابن سلول والمنافقين . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى نحوه . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن أبى حاتم وابن المنذر عن مجاهد فى قوله : ﴿ **ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم** ﴾ قال : يحزنهم قولهم ولا ينفعهم شيئًا . وأخرجوا عن قتادة فى قوله : ﴿ **فبما رحمة من الله** ﴾ يقول: فبرحمة من الله ﴿ **لنت لهم** ﴾ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لانفضوا من حولك** ﴾ قال: لانصرفوا عنك. وأخرج ابن عدى ، والبيهقى فى الشعب . قال السيوطى :ـ بسند حسن ـ عن ابن عباس ؛ قال لما نزلت : ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ قال رسول الله ﷺ : « أما إن الله ورسوله لغنيان عنها ، ولكن الله جعلها رحمة لأمتى، فمن استشار منهم لم يعدم رشدا ، ومن تركها لم يعدم غيا » [٢] . وأخرج الحاكم وصححه ، والبيهقى فى سننه عن ابن عباس ﴿ **وشاورهم فى الأمر** ﴾ قال: أبو بكر وعمر[٣].

---

(١) فى المطبوعة :« النجار » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

(٢) ابن عدى فى الكامل ٤/ ٣٣٧ والبيهقى فى الشعب (٧٥٤٢) وقال : « غريب » ط. الكتب العلمية ، والسيوطى فى الدر المنثور ٢/ ٩٠ .

(٣) صححه الحاكم ٣/ ٧٠ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى ، والبيهقى ١٠/ ١٠٨ ، ١٠٩ .

وأخرج ابن مردويه عن على قال : سئل رسول الله ﷺ عن العزم ، فقال : «مشاورة أهل الرأى ثم اتباعهم » .

وأخرج عبد بن حميد وأبو داود ، والترمذى وحسنه ، وابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **وما كان لنبى أن يغل** ﴾ فى قطيفة حمراء افتقدت يوم بدر، فقال بعض الناس : لعل رسول الله ﷺ أخذها فنزلت [1] . وأخرج البزار وابن أبى حاتم والطبرانى عن ابن عباس : ﴿ **وما كان لنبى أن يغل** ﴾ قال : ما كان لنبى أن يتهمه أصحابه . وقد ورد فى تحريم الغلول أحاديث كثيرة .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس : ﴿ **هم درجات عند الله** ﴾ يقول : بأعمالهم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن عائشة فى قوله : ﴿ **لقد منّ الله على المؤمنين . . .** ﴾ الآية . قالت هذه للعرب خاصة .

﴿ **أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٦٥) وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ (١٦٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالاً لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٦٧) الَّذِينَ قَالُوا لإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (١٦٨)** ﴾ .

قوله : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة** ﴾ الألف للاستفهام بقصد التقريع ، والواو للعطف . والمصيبة : الغلبة والقتل الذى أصيبوا به يوم أحد ﴿ **قد أصبتم مثليها** ﴾ يوم بدر وذلك أن الذين قتلوا من المسلمين يوم أحد سبعون، وقد كانوا قتلوا من المشركين يوم بدر سبعين ، وأسروا سبعين ، فكان مجموع القتلى والأسرى يوم بدر مثلى القتلى من المسلمين يوم أحد ، والمعنى : أحين أصابكم من المشركين نصف ما أصابهم منكم قبل ذلك جزعتم وقلتم : من أين أصابنا هذا وقد وعدنا بالنصر؟ وقوله : ﴿ **أنى هذا** ﴾ أى من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل ونحن نقاتل فى سبيل الله ومعنا رسول الله ﷺ ، وقد وعدنا الله بالنصر عليهم ؟ وقوله : ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ أمر لرسول الله ﷺ بأن يجيب عن سؤالهم بهذا الجواب، أى هذا الذين سألتم عنه هو من عند أنفسكم ، بسبب مخالفة الرماة لما أمرهم به النبى ﷺ من لزوم المكان الذى عينه لهم، وعدم مفارقتهم له على كل حال، وقيل : إن المراد بقوله:

---

(١) أبو داود فى الحروف والقراءات (٣٩٧١) والترمذى فى التفسير (٣٠٠٩) وقال : « حسن غريب » وابن جرير ٤/ ١٠٢ .

﴿ **هو من عند أنفسكم** ﴾ خروجهم من المدينة ، ويرده أن الوعد بالنصر إنما كان بعد ذلك . وقيل : هو اختيارهم الفداء يوم بدرعلى القتل .

و ﴿ **يوم التقى الجمعان** ﴾ يوم أحد ، أى ما أصابكم يوم أحد من القتل والجرح والهزيمة ﴿ **فبإذن الله** ﴾ فبعلمه . وقيل : بقضائه وقدره . وقيل : بتخليته بينكم وبينهم ، والفاء دخلت فى جواب الموصول لكونه يشبه الشرط كما قال سيبويه . وقوله : ﴿ **وليعلم المؤمنين** ﴾ عطف على قوله : ﴿ **فبإذن الله** ﴾ عطف سبب على سبب .

وقوله : ﴿ **وليعلم الذين نافقوا** ﴾ عطف على ما قبله ، قيل : أعاد الفعل لقصد تشريف المؤمنين عن أن يكون الفعل المسند إليهم وإلى المنافقين واحدًا . والمراد بالعلم هنا : التمييز والإظهار؛ لأن علمه تعالى ثابت قبل ذلك ؛ والمراد بالمنافقين هنا : عبد الله بن أبى وأصحابه. قوله : ﴿ **وقيل لهم** ﴾ هو معطوف على قوله : ﴿ **نافقوا** ﴾ أى ليعلم الله الذين نافقوا والذين قيل لهم . وقيل : هو كلام مبتدأ ، أى قيل لعبد الله بن أبى وأصحابه : ﴿ **تعالوا قاتلوا فى سبيل الله** ﴾ إن كنتم ممن يؤمن بالله واليوم الآخر﴿ **أو ادفعوا** ﴾ [1] عن أنفسكم إن كنتم لا تؤمنون بالله واليوم الآخر ، فأبوا جميع ذلك وقالوا : لو نعلم أنه سيكون قتالا لاتبعناكم وقاتلنا معكم ، ولكنه لا قتال هنالك . وقيل : المعنى : لو كنا نقدر على القتال ونحسنه لاتبعناكم ؛ ولكنا لا نقدر على ذلك ولا نحسنه . وعبر عن نفى القدرة على القتال بنفى العلم به ؛ لكونها مستلزمة له ، وفيه بعد لا ملجئ إليه . وقيل : معناه : لو نعلم ما يصح أن يسمى قتالا لاتبعناكم ، ولكن ما أنتم بصدده ليس بقتال ، ولكنه إلقاء بالنفس إلى التهلكة ، لعدم القدرة منا ومنكم على دفع ما ورد من الجيش بالبروز إليهم والخروج من المدينة ، وهذا أيضًا فيه بعد دون بعد ما قبله . وقيل : معنى الدفع هنا : تكثير سواد المسلمين . وقيل : معناه : رابطوا ، والقائل للمنافقين هذه المقالة التى حكاها الله سبحانه هو عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصارى ، والد جابر بن عبد الله .

قوله : ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ أى هم فى هذا اليوم الذى انخذلوا فيه عن المؤمنين إلى الكفر أقرب منهم إلى الإيمان عند من كان يظن أنهم مسلمون ؛ لأنهم قد بينوا حالهم ، وهتكوا أستارهم ، وكشفوا عن نفاقهم إذ ذاك . وقيل : المعنى : أنهم لأهل الكفر يومئذ أقرب نصرة منهم لأهل الإيمان . قوله : ﴿ **يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ جملة مستأنفة مقررة لمضمون ما تقدمها ، أى أنهم أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، وذكر الأفواه للتأكيد ، مثل قوله : ﴿ يطير بجناحيه ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

قوله : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم** ﴾ إلخ ، أى هم الذين قالوا لإخوانهم على أنه خبر مبتدأ

---

(١) وقيل : الدفع : كثروا سوادنا ، وإن لم تقاتلوا معنا ، فيكون ذلك دفعًا وقمعًا للعدو .

محذوف ، ويجوز أن يكون بدلا من واو يكتمون ، أو منصوبًا على الذم ، أو وصفاً للذين نافقوا . وقد تقدم معنى : ﴿ **قالوا لإخوانهم** ﴾ أى قالوا لهم ذلك ، والحال أن هؤلاء القائلين قد قعدوا عن القتال ﴿ **لو أطاعونا** ﴾ بترك الخروج من المدينة ما قتلوا ، فرد الله عليهم ذلك بقوله : ﴿ **قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ والدرء : الدفع، أى لا ينفع الحذر من القدر ، فإن المقتول يقتل بأجله .

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة . . .** ﴾ الآية ، يقول : إنكم قد أصبتم من المشركين يوم بدر مثل ما أصابوا منكم يوم أحد . وقد بين هذا عكرمة ، فأخرج ابن جرير عنه قال : قتل المسلمون من المشركين يوم بدر سبعين وأسروا سبعين ، وقتل المشركون يوم أحد من المسلمين سبعين . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى الآية قال : لما رأوا من قتل منهم يوم أحد قالوا : من أين هذا ، ما كان للكفار أن يقتلوا منا ؟ فلما رأى الله ما قالوا من ذلك، قال الله : هم بالأسرى الذين أخذتم يوم بدر، فردهم الله بذلك وعجل لهم عقوبة ذلك فى الدنيا ليسلموا منها فى الآخرة ، ويؤيد هذا ما أخرجه ابن أبى شيبة ، والترمذى وحسنه ، والنسائى وابن جرير وابن مردويه عن على ؛ قال: جاء جبريل إلى النبى ﷺ فقال : يامحمد ، إن الله قد كره ما صنع قومك فى أخذهم الأسارى ، وقد أمرك أن تخيرهم بين أمرين : إما أن يقدموا فتضرب أعناقهم ، وبين أن يأخذوا الفداء على أن تقبل منهم عدتهم ، فدعا رسول الله ﷺ الناس فذكر ذلك لهم ، فقالوا: يارسول الله ، عشائرنا وإخواننا ، لا بل نأخذ فداءهم فنقوى به على قتال عدونا ، ويستشهد منا عدتهم ، فليس فى ذلك ما نكره ، فقتل منهم يوم أحد سبعون رجلا عدة أسارى أهل بدر [١] . وهذا الحديث هو [٢] فى سنن الترمذى ، والنسائى ، هو [٣] من طريق أبى داود الحضرى عن يحيى بن زكريا بن أبى زائدة عن سفيان بن سعيد عن هشام بن حسان عن محمد ابن سيرين عن عبيدة عن على : قال الترمذى بعد إخراجه :حسن غريب ، لا نعرفه إلا من حديث ابن أبى زائدة. وروى أبو أمامة عن هشام نحوه . وروى عن ابن سيرين عن عبيدة عن النبى ﷺ مرسلا، وإسناد ابن جرير لهذا الحديث هكذا :حدثنا القاسم ،حدثنا الحسين ، حدثنا إسماعيل بن علية ، عن ابن عون قال سنيد وهو حسين ، وحدثنى حجاج عن جرير عن محمد عن عبيدة عن على فذكره .

وأخرج ابن أبى حاتم من طريق أبى بكر بن أبى شيبة ، حدثنا قراد أبو نوح [٤] ، حدثنا

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٣٤) والترمذى فى السير (١٧٦٥) وقال : «حسن غريب » والنسائى فى الكبرى فى السير (٨٦٦٢) وابن جرير ٤/ ١١٠ .

(٢) هذا اللفظ ساقط من المطبوعة . (٣) كذا فى المخطوطة ؛ ولعل الصواب : «وهو» .

(٤) فى المطبوعة : «قراد بن نوح » والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة . سير أعلام النبلاء ٩/ ٥١٨ والطبقات الكبرى ٧/ ٣٣٥ وتهذيب التهذيب ٦/ ٢٤٧ والجرح والتعديل ٥/ ٢٧٤ .

عكرمة بن عمار ، حدثنا سماك الحنفى أبو زميل ، حدثنى ابن عباس عن عمر بن الخطاب ؛ قال: لما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا بما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء ، فقتل منهم سبعون وفر أصحاب محمد ﷺ عنه ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه ، وسال الدم على وجهه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة** . . .﴾ الآية [١]. وأخرجه الإمام أحمد من طريق عبد الرحمن بن غزوان ، وهو قراد أبو نوح [٢] به ، ولكن بأطول منه، ولكنه يشكل على حديث التخيير السابق ما نزل من المعاتبة منه سبحانه وتعالى لمن أخذ الفداء بقوله : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض ﴾ [الأنفال: ٩٧] ، وما روى من بكائه ﷺ هو وأبو بكر ندمًا على أخذ الفداء ، ولو كان أخذ ذلك بعد التخيير لهم من الله سبحانه لم يعاتبهم عليه ، ولا حصل ما حصل من النبى ﷺ ومن معه من الندم والحزن ، ولا صوب النبى ﷺ رأى عمر رضى الله عنه ، حيث أشار بقتل الأسرى ، وقال ما معناه : « لو نزلت عقوبة لم ينج منها إلا عمر» [٣] والجميع فى كتب الحديث والسير .

وأخرج ابن المنذر عن ابن عباس ﴿ **قلتم أنى هذا** ﴾ ونحن مسلمون نقاتل غضبًا لله وهؤلاء مشركون ، فقال : ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ عقوبة لكم بمعصيتكم النبى ﷺ حين قال : لا تتبعوهم . وأخرج ابن المنذر عنه فى قوله : ﴿ **أوادفعوا** ﴾ قال : كثروا بأنفسكم وإن لم تقاتلوا. وأخرج أيضاً عن الضحاك نحوه . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أبى عون الأنصارى فى قوله : ﴿ **أو ادفعوا** ﴾ قال : رابطوا . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن شهاب وغيره؛ قال: خرج رسول الله ﷺ إلى أحد فى ألف رجل من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشوط بين أحد والمدينة انخذل عنهم عبد الله بن أبى بثلث الناس وقال : أطاعهم وعصانى ، والله ما ندرى على ما نقتل أنفسنا هاهنا ؟ فرجع من اتبعه من أهل النفاق وأهل الريب ، واتبعهم عبد الله ابن عمرو بن حرام من بنى سلمة يقول : ياقوم ، أذكركم الله أن تخذلوا نبيكم وقومكم عندما حضرهم عدوهم ، قالوا : لو نعلم أنكم تقاتلون ما أسلمناكم ولا نرى أن يكون قتال[٤] . وأخرجه ابن إسحاق قال: حدثنى محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى ، ومحمد بن يحيى بن حبان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، والحسين بن عبدالرحمن بن عمر بن سعد بن معاذ ، وغيرهم من علمائنا فذكره ، وزاد أنهم لما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف قال : أبعدكم الله أعداء الله فسيغنى الله عنكم [٥] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى قوله : ﴿ **لو نعلم قتالا لاتبعناكم** ﴾ قال : لو نعلم أنا واجدون معكم مكان قتال لاتبعناكم .

---

(١) ابن أبى شيبة فى المغازى (١٨٥٣١) .

(٢) فى المطبوعة :« ابن نوح » ، والصواب ما أثبتناه من المخطوطة ، كما تقدم فى الصفحة السابقة .

(٣) أحمد ١/ ٣٠ ، ٣١ وهو جزء من حديث طويل وإسناده صحيح .

(٤) ابن جرير ٤/ ١١١ .

(٥) ابن إسحاق ٣/ ٢٧ .

﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٧٠) يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ (١٧١) الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٢) الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ (١٧٣) فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ (١٧٤) إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (١٧٥) ﴾.

لما بين الله ــ سبحانه ــ أن ما جرى على المؤمنين يوم أحد كان امتحانا ؛ ليتميز المؤمن من المنافق ، والكاذب من الصادق ؛ بين هاهنا أن من لم ينهزم وقتل فله هذه الكرامة والنعمة، وأن مثل هذا مما يتنافس فيه المتنافسون ، لا مما يخاف ويحذر ، كما قالوا مَنْ حكى الله عنهم: ﴿ **لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا** ﴾ وقالوا : ﴿ **لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ فهذه الجملة مستأنفة لبيان هذا المعنى ، والخطاب لرسول الله ﷺ ، أو لكل أحد . وقرئ بالياء التحتية ، أى لا يحسبن حاسب . وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم ؟ فقيل : فى شهداء أحد . وقيل : فى شهداء بدر . وقيل : فى شهداء بئر معونة ، وعلى فرض أنها نزلت فى سبب خاص، فالاعتبار بعموم اللفظ لا بخصوص السبب. ومعنى الآية عند الجمهور: أنهم أحياء حياة محققة ثم اختلفوا، فمنهم من يقول : إنها ترد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون . وقال مجاهد : يرزقون من ثمر الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها ، وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية ، والمعنى: أنهم فى حكم الله مستحقون للتنعم فى الجنة ، والصحيح الأول ، ولا موجب للمصير إلى المجاز . وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر، وأنهم فى الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون (١) .

وقوله : ﴿ **الذين قتلوا** ﴾ هو المفعول الأول ، والحاسب هو النبى ﷺ ، أو كل أحد كما سبق . وقيل : يجوز أن يكون الموصول هو فاعل الفعل ، والمفعول الأول محذوف ، أى لا تحسبن الذين قتلوا أنفسهم أمواتًا وهذا تكلف لا حاجة إليه ، ومعنى النظم القرآنى فى غاية الوضوح والجلاء . وقوله : ﴿ **بل أحياء** ﴾ خبر مبتدأ محذوف، أى بل هم أحياء . وقرئ بالنصب على تقدير الفعل ، أى بل أحسبهم أحياء . وقوله : ﴿ **عند ربهم** ﴾ إما خبر ثان ،

---

(١) الحديث عن ابن مسعود عند مسلم فى الإمارة (١٨٨٧/١٢١) والترمذى فى التفسير (٣٠١١) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٠١) ورواه أبوداود فى الجهاد (٢٥٢٠) عن ابن عباس .

أو صفة لأحياء ، أو فى محل نصب على الحال ، وقيل : فى الكلام حذف ، والتقدير : عند كرامة ربهم . قال سيبويه : هذه عندية الكرامة لا عندية القرب . وقوله: ﴿ **يرزقون** ﴾ يحتمل فى إعرابه الوجوه التى ذكرناها فى قوله : ﴿ **عند ربهم** ﴾ والمراد بالرزق هنا :هو الرزق المعروف فى العادات على ما ذهب إليه الجمهور كما سلف ، وعند من عدا الجمهور المراد به : الثناء الجميل ، ولا وجه يقتضى تحريف الكلمات العربية فى كتاب الله تعالى ، وحملها على مجازات بعيدة لا لسبب يقتضى ذلك .

وقوله : ﴿ **فرحين** ﴾ حال من الضمير فى: ﴿ **يرزقون** ﴾ و ﴿ **بما آتاهم الله من فضله** ﴾ متعلق به ، وقرأ ابن السَّمَيْقع : « فارحين » وهما لغتان كالفره والفاره ، والحذر والحاذر . والمراد ﴿ **بما آتاهم الله** ﴾ : ما ساقه الله إليهم من الكرامة بالشهادة ، وما صاروا فيه من الحياة، وما يصل إليهم من رزق الله سبحانه . ﴿ **ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم**﴾ من إخوانهم المجاهدين الذين لم يقتلوا إذ ذاك . فالمراد باللحوق هنا : أنهم لم يلحقوا بهم فى القتل والشهادة ؛ بل سيلحقون بهم من بعد . وقيل : المراد : لم يلحقوا بهم فى الفضل ، وإن كانوا أهل فضل فى الجملة ، و الواو فى : ﴿**ويستبشرون** ﴾ عاطفة على ﴿ **يرزقون** ﴾ أى يرزقون ويستبشرون . وقيل : المراد بإخوانهم هنا : جميع المسلمين الشهداء وغيرهم ؛ لأنهم لما عاينوا ثواب الله ، وحصل لهم اليقين بحقية دين الإسلام، استبشروا بذلك لجميع أهل الإسلام الذين هم أحياء لم يموتوا ، وهذا أقوى ؛ لأن معناه أوسع وفائدته أكثر ، واللفظ يحتمله ، بل هو الظاهر ، وبه قال الزجاج ، وابن فورك . وقوله : ﴿ **ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون** ﴾ بدل من الذين ، أى يستبشرون بهذه الحالة الحاصلة لإخوانهم من أنه لا خوف عليهم ولا حزن ، و«أن» هى المخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن المحذوف ، وكرر قوله: ﴿ **يستبشرون**﴾ لتأكيد الأول ، ولبيان أن الاستبشار ليس لمجرد عدم الخوف والحزن ،بل به وبنعمة الله وفضله ، والنعمة : ما ينعم الله به على عباده ، والفضل: ما يتفضل به عليهم. وقيل : النعمة : الثواب ، والفضل : الزائد . وقيل : النعمة : الجنة ، والفضل : داخل فى النعمة ذكر بعدها لتأكيدها . وقيل : إن الاستبشار الأول متعلق بحال إخوانهم ، والاستبشار الثانى بحال أنفسهم. قوله: ﴿ **وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين** ﴾ قرأ الكسائى بكسر الهمزة من « أن » وقرأ الباقون بفتحها ، فعلى القراءة الأولى هو مستأنف اعتراض ، وفيه دلالة على أن الله لا يضيع أجر شىء من أعمال المؤمنين ، ويؤيده قراءة ابن مسعود : «والله لا يضيع أجر المؤمنين » ، وعلى القراءة الثانية الجملة عطف على فضل داخلة فى جملة ما يستبشرون به .

وقوله : ﴿ **الذين استجابوا** ﴾ صفة للمؤمنين ، أو بدل منهم ، أو من الذين لم يلحقوا بهم ، أو هو مبتدأ خبره ﴿ **للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم** ﴾ بجملته ، أو منصوب على المدح وقد تقدم تفسيرالقرح .

قوله : ﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ المراد بالناس هنا: نعيم بن مسعود، كما سيأتى بيانه ،

وجاز إطلاق لفظ الناس عليه لكونه من جنسهم . وقيل : المراد بالناس : ركب عبد القيس الذين مروا بأبى سفيان . وقيل : هم المنافقون . والمراد بقوله : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ أبو سفيان وأصحابه، والضمير فى قوله: ﴿ **فزادهم** ﴾ راجع إلى القول المدلول عليه بـ ﴿ **قال** ﴾ أو إلى المقول ، وهو : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم** ﴾ أو إلى القائل ، والمعنى : أنهم لم يفشلوا لما سمعوا ذلك ولا التفتوا إليه ؛ بل أخلصوا لله وازدادوا طمأنينة ويقينًا . وفيه دليل على أن الإيمان يزيد وينقص . قوله : ﴿ **وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ حسب مصدر حسبه ، أى كفاه وهو بمعنى الفاعل ، أى محسب بمعنى كافى. قال فى الكشاف : والدليل على أنه بمعنى المحسب أنك تقول : هذا رجل حسبك ، فتصف به النكرة ؛ لأن إضافته لكونه بمعنى اسم الفاعل غير حقيقية . انتهى [1] . والوكيل هو: من توكل إليه الأمور ، أى نعم الموكول إليه أمرنا، أو الكافى ، أو الكافل ، والمخصوص بالمدح محذوف ، أى نعم الوكيل الله سبحانه .

قوله : ﴿ **فانقلبوا** ﴾ هو معطوف على محذوف ، أى فخرجوا إليهم فانقلبوا بنعمة هو متعلق بمحذوف وقع حالا . والتنوين للتعظيم ، أى رجعوا متلبسين ﴿ **بنعمة** ﴾ عظيمة وهى السلامة من عدوهم وعافية ﴿ **وفضل** ﴾ أى أجر تفضل الله به عليهم . وقيل : ربح فى التجارة . وقيل : النعمة خاصة بمنافع الدنيا ، والفضل بمنافع الآخرة ، وقد تقدم تفسيرهما قريبا بما يناسب ذلك المقام ؛ لكون الكلام فيه مع الشهداء الذين قد صاروا فى الدار الآخرة ، والكلام هنا مع الأحياء. قوله : ﴿ **لم يمسسهم سوء** ﴾ فى محل نصب على الحال ، أى سالمين عن سوء لم يصبهم قتل ولا جرح ولا ما يخافونه ﴿ **واتبعوا رضوان الله** ﴾ فى ما يأتون ويذرون ، ومن ذلك خروجهم لهذه الغزوة ﴿ **والله ذو فضل عظيم** ﴾ لا يقادر قدره ولا يبلغ مداه ، ومن تفضله عليهم : تثبيتهم وخروجهم للقاء عدوهم وإرشادهم ، إلى أن يقولوا هذه المقالة التى هى جالبة لكل خير، ودافعة لكل شر .

قوله : ﴿ **إنما ذلكم** ﴾ أى المثبط لكم أيها المؤمنون ﴿ **الشيطان** ﴾ هو خبر اسم الإشارة ، ويجوز أن يكون الشيطان صفة لاسم الإشارة والخبر قوله : ﴿ **يخوف أولياءه** ﴾ فعلى الأول يكون قوله : ﴿ **يخوف أولياءه** ﴾ جملة مستأنفة أو حالية، والظاهر أن المراد هنا : الشيطان نفسه باعتبار ما يصدر منه من الوسوسة المقتضية للتثبيط. وقيل : المراد به : نعيم بن مسعود لما قال لهم تلك المقالة. وقيل : أبو سفيان لما صدر منه الوعيد لهم ، والمعنى : أن الشيطان يخوف المؤمنين أولياءه وهم الكافرون. وقيل : إن قوله : ﴿ **أولياءه** ﴾ منصوب بنزع الخافض، أى يخوفكم بأوليائه أو من أوليائه ، قاله الفراء والزجاج وأبو على الفارسى . ورده ابن الأنبارى بأن التخويف قد يتعدى بنفسه إلى مفعولين ، فلا ضرورة إلى إضمار حرف الجر . وعلى قول الفراء ومن معه يكون مفعول يخوف محذوفا ، أى يخوفكم وعلى الأول يكون

(١) الكشاف ١/ ٤٤٢ .

المفعول الأول محذوفا والثانى مذكورًا ، ويجوز أن يكون المراد : أن الشيطان يخوف أولياءه وهم القاعدون من المنافقين فلا حذف . قوله: ﴿ **فلا تخافوهم** ﴾ أى أولياءه الذين يخوفكم بهم الشيطان ، أو فلا تخافوا الناس المذكورين فى قوله : ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ نهاهم سبحانه عن أن يخافوهم فيجبنوا عن اللقاء ويفشلوا عن الخروج ، وأمرهم بأن يخافوه سبحانه فقال : ﴿ **وخافون** ﴾ فافعلوا ما آمركم به، واتركوا ما أنهاكم عنه ؛ لأنى الحقيق بالخوف منى، والمراقبة لأمرى ونهيى لكون الخير والشر بيدى ، وقيده بقوله : ﴿ **إن كنتم مؤمنين** ﴾ لأن الإيمان يقتضى ذلك .

وقد أخرج الحاكم وصححه عن ابن عباس قال : نزلت هذه الآية : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله** ﴾ فى حمزة وأصحابه . وأخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد عن أبى الضحى [١] ؛ أنها نزلت فى قتلى أحد وحمزة منهم . وأخرج عبد بن حميد وأبو داود وابن جرير ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن عباس؛ قال : قال رسول الله ﷺ : «لما أصيب إخوانكم بأحد جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة وتأكل من ثمارها وتأوى إلى قناديل من ذهب معلقة فى ظل العرش ، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم وحسن مقيلهم، قالوا : ياليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا » . وفى لفظ قالوا: «من يبلغ إخواننا أننا أحياء فى الجنة نرزق لئلا يزهدوا فى الجهاد ، ولا ينكلوا عن الحرب ، فقال الله : أنا أبلغهم عنكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات : ﴿ **ولا تحسبن الذين قتلوا** . . . ﴾ الآية وما بعدها[٢]. وأخرج الترمذى وحسنه ، وابن ماجة وابن خزيمة والطبرانى ، والحاكم وصححه ، وابن مردويه ، والبيهقى فى الدلائل عن جابر بن عبد الله ؛ أن أباه سأل الله سبحانه أن يبلغ من وراءه ما هو فيه ، فنزلت هذه الآية [٣] وهو من قتلى أحد ، وقد روى من وجوه كثيرة أن سبب نزول الآية قتلى أحد . وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن أنس ؛ أن سبب نزول الآية قتلى بئر معونة[٤] ، وعلى كل حال فالآية باعتبار عموم لفظها يدخل تحتها كل شهيد ، وقد ثبت فى أحاديث كثيرة فى الصحيح وغيره أن أرواح الشهداء فى أجواف طيور خضر[٥] وثبت فى فضل الشهداء ما يطول تعداده ، ويكثر إيراده ، مما هو معروف فى كتب الحديث .

---

(١) أبوالضحى : هو مسلم بن صبيح الهمدانى من صغار التابعين .

(٢) أبو داود فى الجهاد (٢٥٢٠) وابن جرير ٤/ ١١٣ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٧ ، ٢٩٨ على شرط مسلم ووافقه الذهبى ، والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٣٠٤ .

(٣) الترمذى فى التفسير (٣٠١٠) وابن ماجة فى الجهاد (٢٨٠٠) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٢٩٨ ، ٢٩٩ .

(٤) ابن جرير ٤/ ١١٥ ، وهو جزء من حديث طويل .

(٥) الحديث عن ابن مسعود عند مسلم فى الإمارة (١٨٨٧ / ١٢١) والترمذى فى التفسير (٣٠١١) وقال : «حسن صحيح » .

وأخرج النسائى وابن ماجة وابن أبى حاتم والطبرانى بسند صحيح عن ابن عباس ؛ قال : لما رجع المشركون عن أحد قالوا : لا محمدًا قتلتم ، ولا الكواعب أردفتم ، بئس ما صنعتم ، ارجعوا ، فسمع رسول الله ﷺ بذلك فندب المسلمين فانتدبوا حتى بلغ حمراء الأسد ، أو بئر أبى عتبة [١] ، شك سفيان ، فقال المشركون : يرجع من قابل ، فرجع رسول الله ﷺ ، فكانت تعدّ غزوة ، فأنزل الله سبحانه : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول** ﴾ الآية[٢] . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة فى قوله تعالى : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول** . . . ﴾ الآية ، أنها قالت لعروة بن الزبير : يابن أختى ، كان أبواك منهم : الزبير وأبو بكر ، لما أصاب النبى ﷺ ما أصاب يوم أحد انصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا ، فقال: « من يرجع فى أثرهم ؟ » فانتدب منهم سبعون ، فيهم أبوبكر والزبير [٣] .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير، والبيهقى فى الدلائل عن عبد الله بن أبى بكر بن محمد ابن عمرو بن حزم؛ قال : خرج رسول الله ﷺ بحمراء الأسد، وقد أجمع أبو سفيان بالرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وقالوا : رجعنا قبل أن نستأصلهم لنَكَرَّن على بقيتهم ، فبلغه أن النبى ﷺ خرج فى أصحابه يطلبهم ، فثنى ذلك أبا سفيان وأصحابه ، مر ركب من عبد القيس، فقال لهم أبو سفيان : بلغوا محمدًا أنا قد أجمعنا الرجعة على أصحابه لنستأصلهم ، فلما مر الركب برسول الله ﷺ بحمراء الأسد أخبروه بالذى قال أبو سفيان ، فقال رسول الله ﷺ والمسلمون معه :« حسبنا الله ونعم الوكيل » فأنزل الله فى ذلك : ﴿ **الذين استجابوا لله والرسول** . . . ﴾ الآيات [٤] . وأخرج موسى بن عقبة فى مغازيه ، والبيهقى فى الدلائل عن ابن شهاب ؛ قال : إن رسول الله ﷺ استنفر المسلمين لموعد أبى سفيان بدرًا ، فاحتمل الشيطان أولياءه من الناس فمشوا فى الناس يخوفونهم ، وقالوا : إنا قد أخبرنا أن قد جمعوا لكم من الناس مثل الليل ، يرجون أن يواقعوكم . والروايات فى هذا الباب كثيرة قد اشتملت عليها كتب الحديث والسيرة . وأخرج ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : القرح : الجراحات .

---

(١) كذا فى المخطوطة، وفى المطبوعة: «عتبة » وعند النسائى «عتيبة » وعند الطبرانى:«عيينة» وعند الهيثمى: «عينة».

(٢) النسائى فى التفسير (١٠٣) والطبرانى (١١٦٣٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ١٢٤ : «رجاله رجال الصحيح غير محمد بن منصور الجواز وهو ثقة» وعزاه ابن حجر فى الفتح ٨/ ٢٢٨ إلى النسائى وابن مردويه وقال : «ورجاله رجال الصحيح إلا أن المحفوظ إرساله عن عكرمة ليس فيه ابن عباس » كما عزاه الإمام المزى للنسائى فى التفسير .

(٣) البخارى فى المغازى (٤٠٧٧) ومسلم فى فضائل الصحابة (٢٤١٨ / ٥١ ، ٥٢) والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٣١٢ .

(٤) ابن إسحاق فى السيرة النبوية ٣/ ٤٤ ، ٤٥ وابن جرير ٤/ ١١٩ والبيهقى فى الدلائل ٣/ ٣١٥ ـ ٣١٧.

وأخرج ابن جرير عن السدى أن أبا سفيان وأصحابه لقوا أعرابيًا فجعلوا له جعلا على أن يخبر النبى ﷺ وأصحابه أنهم قد جمعوا لهم ، فأخبرالنبى ﷺ بذلك فقال هو والصحابة: « حسبنا الله ونعم الوكيل » ، ثم رجعوا من حمراء الأسد ، فأنزل الله فيهم وفى الأعرابى : ﴿ **الذين قال لهم الناس** ﴾ الآية [١] . وأخرج ابن مردويه عن أبى رافع أن هذا الأعرابى من خزاعة .

وقد ورد فى فضل هذه الكلمة أعنى : ﴿ **حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ أحاديث ، منها ما أخرجه ابن مردويه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وقعتم فى الأمر العظيم فقولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » قال ابن كثير بعد إخراجه : هذا حديث غريب من هذا الوجه [٢] . وأخرج أبو نعيم عن شداد بن أوس قال : قال النبى ﷺ : « حسبى الله ونعم الوكيل أمان كل خائف » . وأخرج ابن أبى الدنيا فى الذكر عن عائشة أن النبى ﷺ كان إذا اشتد غمه مسح بيده على رأسه ولحيته ثم تنفس الصعداء ، وقال : « حسبى الله ونعم الوكيل». وأخرج البخارى وغيره عن ابن عباس قال :« حسبنا الله ونعم الوكيل » قالها إبراهيم حين ألقى فى النار، وقالها محمد حين قالوا: ﴿ **إن الناس قد جمعوا لكم** ﴾ [٣]. وأخرج أحمد وأبو داود والنسائى عن عوف بن مالك ؛ أنه حدثهم أن النبى ﷺ قضى بين رجلين ، فقال المقضى عليه لما أدبر : حسبى الله ونعم الوكيل ، فقال رسول الله ﷺ : « ردوا على الرجل » فقال: « ما قلت؟ » قال :قلت:حسبى الله ونعم الوكيل، فقال رسول الله ﷺ : « إن الله يلوم على العجز ، ولكن عليك بالكيس فإذا غلبك أمر فقل حسبى الله ونعم الوكيل » [٤] وأخرج أحمد عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ :« كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته يسمع متى يؤمر فينفخ ؟ » ثم أمر الصحابة أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل على الله توكلنا » وهو حديث جيد [٥] .

وأخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **فانقلبوا بنعمة سن الله وفضل** ﴾ قال : النعمة أنهم سلموا ، والفضل أن عيرًا مرت ، وكان فى أيام الموسم ، فاشتراها رسول الله ﷺ فربح مالا فقسمه بين أصحابه [٦] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد فى الآية ؛ قال : الفضل ما أصابوا من التجارة والأجر . وأخرج ابن جرير عن السدى قال : 'أما النعمة : فهى العافية ، وأما الفضل : فالتجارة ، والسوء : القتل . وأخرج ابن

---

(١) ابن جرير ٤/ ١١٩ ، ١٢٠ . (٢) ابن كثير ٢/ ١٦٢ .

(٣) البخارى فى التفسير (٤٥٦٣) والنسائى فى التفسير (١٠١) وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٨ على شرط الشيخين ووافقه الذهبى .

(٤) أحمد ٦/ ٢٤، ٢٥ وأبو داود فى الأقضية (٣٦٢٧) والنسائى فى الكبرى عمل اليوم والليلة (١٠٤٦٢).

(٥) أحمد ١/ ٣٢٦ وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ١٣٤ ، ١٠ / ٣٣٤) : «فيه عطية العوفى ، وهو ضعيف ، وفيه توثيق لين » . لكن ورد هذا الحديث بإسناد صحيح عن صحابة آخرين منهم أبو هريرة عند النسائى فى التفسير (١٠٢) وأبو سعيد الخدرى عند أبى يعلى (١٠٨٤) وابن حبان فى صحيحه (٨٢٠) .

(٦) البيهقى فى الدلائل ٣/ ٣١٨ .

جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **لم يمسسهم سوء** ﴾ قال : لم يؤذهم أحد ﴿ **واتبعوا رضوان الله** ﴾ قال : أطاعوا الله ورسوله.

وأخرج ابن جرير من طريق العوفى عنه فى قوله : ﴿ **إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه**﴾ قال : يقول الشيطان يخوف بأوليائه . وأخرج عبد بن حميد وابن أبى حاتم عن أبى مالك قال: يعظم أولياءه فى أعينكم. وأخرج ابن المنذر عن عكرمة مثل قول ابن عباس . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن: إنما كان ذلك تخويف الشيطان ولا يخاف الشيطان إلا ولى الشيطان.

﴿ **وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٧٦) إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْكُفْرَ بِالإِيمَانِ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٧٧) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ (١٧٨) مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ (١٧٩) وَلا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُم بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٨٠)** ﴾.

قوله: ﴿ **ولا يحزنك** ﴾ قرأ نافع بضم الياء وكسر الزاى ، وقرأ ابن محيصن بضم الياء والزاى ، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الزاى ، وهما لغتان . يقال : حزننى الأمر وأحزننى ، والأولى أفصح . وقرأ طلحة :« يسرعون » قيل: هم قوم ارتدّوا ، فاغتم النبى ﷺ لذلك ، فسلاه الله سبحانه ونهاه عن الحزن ، وعلل ذلك بأنهم لن يضروا الله شيئًا ، وإنما ضروا أنفسهم بأن لاحظ لهم فى الآخرة ولهم عذاب عظيم . وقيل : هم كفار قريش . وقيل : هم المنافقون . وقيل : هو عام فى جميع الكفار . قال القشيرى : والحزن على كفر الكافر طاعة ؛ ولكن النبى ﷺ كان يفرط فى الحزن ، فنهى عن ذلك كما قال الله تعالى : ﴿ فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ﴾ [فاطر :٨] ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ [الكهف : ٦] وعدى يسارعون [(١)] بفى دون إلى للدلالة على أنهم مستقرون فيه مديمون لملابسته ، ومثله : ﴿ يسارعون فى الخيرات ﴾ [المؤمنون : ٦١] وقوله : ﴿ **إنهم لن يضروا الله شيئاً** ﴾ تعليل للنهى ، والمعنى : أن كفرهم لا ينقص من ملك الله سبحانه شيئًا. وقيل المراد : لن يضروا أولياءه، ويحتمل أن يراد : لن يضروا دينه الذى شرعه لعباده،

(١) فى المطبوعة : « السارعون » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

و ﴿ **شيئًا** ﴾ منصوب على المصدرية ، أى شيئًا من الضرر . وقيل : منصوب بنزع الخافض ، أى بشىء ، والحظ : النصيب . قال أبوزيد : يقال : رجل حظيظ إذا كان ذاحظ من الرزق ، والمعنى : أن الله يريد ألا يجعل لهم نصيبًا فى الجنة أو نصيبا من الثواب ، وصيغة الاستقبال للدلالة على دوام الإرادة واستمرارها ﴿ **ولهم عذاب عظيم** ﴾ بسبب مسارعتهم فى الكفر فكان ضرر كفرهم عائداً عليهم جالبًا لهم عدم الحظ فى الآخرة ، ومصيرهم فى العذاب العظيم.

قوله : ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان** ﴾ أى استبدلوا الكفر بالإيمان ، وقد تقدم تحقيق هذه الاستعارة ﴿ **لن يضروا الله شيئا** ﴾ معناه كالأول وهو للتأكيد لما تقدمه . وقيل : إن الأول خاص بالمنافقين ، والثانى يعم جميع الكفار ، والأول أولى .

قوله : ﴿ **لا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم** ﴾ قرأ ابن عامر وعاصم وغيرهما ﴿ **يحسبن** ﴾ بالياء التحتية وقرأ حمزة بالفوقية ، والمعنى على الأولى : لا يحسبن الكافرون أنما نملى لهم بطول العمر ، ورغد العيش ، أو بما أصابوا من الظفر يوم أحد ﴿ **خير لأنفسهم** ﴾ فليس الأمر كذلك ؛ بل ﴿ **إنما نملى**[1] **لهم ليزدادوا إثمًا ولهم عذاب مهين** ﴾ ، وعلى القراءة الثانية : لا تحسبن يامحمد أن الإملاء للذين كفروا بما ذكر خير لأنفسهم ، بل هو شر واقع عليهم ، ونازل بهم ، وهو أن الإملاء الذى نمليه لهم ليزدادوا إثماً. فالموصول على القراءة الأولى فاعل الفعل ، وإنما نملى وما بعده ساد مَسَدَّ مفعولى الحسبان عند سيبويه أو سادّ مسدّ أحدهما ، والآخر محذوف عند الأخفش ، وأما على القراءة الثانية فقال الزجاج : إن الموصول هو المفعول الأول ، وإنما وما بعدها بدل من الموصول سادّ مسدّ المفعولين ، ولا يصح أن يكون إنما وما بعده هو المفعول الثانى لأن المفعول الثانى فى هذا الباب هو الأول فى المعنى . وقال أبو على الفارسى : لو صح هذا لكان خيرًا بالنصب لأنه يصير بدلا من الذين كفروا ، فكأنه قال : لا تحسبن إملاء الذين كفروا خيراً، وقال الكسائى والفراء : إنه يقدر تكرير الفعل كأنه قال : ولا تحسبن الذين كفروا ، ولا تحسبن أنما نملى لهم، فسدت مسدّ المفعولين. وقال فى الكشاف : فإن قلت : كيف صح مجىء البدل ولم يذكر إلا أحد المفعولين ولا يجوز الاقتصار بفعل الحسبان على مفعول واحد ؟ قلت : صح ذلك من حيث أن التعويل على البدل والمبدل منه فى حكم المنحى ، ألا تراك تقول: جعلت متاعك بعضه فوق بعض مع امتناع سكوتك على متاعك . انتهى [2] . وقرأ يحيى بن وثاب « إنما نملى » بكسر إن فيهما وهى قراءة ضعيفة باعتبار العربية .

وقوله : ﴿ **إنما نملى لهم ليزدادوا إثما** ﴾ جملة مستأنفة مبينة لوجه الإملاء للكافرين . وقد احتج الجمهور بهذه الآية على بطلان ماتقوله المعتزلة ؛ لأنه سبحانه أخبر بأنه يطيل أعمار الكفار ويجعل عيشهم رغدا ليزدادوا إثما . قال أبو حاتم : وسمعت الأخفش يذكر كسر « إنما نملى » الأولى وفتح الثانية ، ويحتج بذلك لأهل القدر؛ لأنه منهم ويجعله على هذا التقدير:

---

(١) الإملاء : الإطالة فى العمر ، والإنساء فى الأجل . اللسان ١٥/ ٢٩١ . (٢) الكشاف ١/ ٤٤٤ .

ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم ليزدادوا إثما إنما نملى لهم خير لأنفسهم . وقال فى الكشاف : إن ازدياد الإثم علة ، وما كل علة بعرض ألا تراك تقول : قعدت عن الغزو للعجز والفاقة ، وخرجت من البلد لمخافة الشر وليس شيء يعرض لك وإنما هى علل وأسباب (١) .

قوله : ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه** ﴾ كلام مستأنف ، والخطاب عند جمهور المفسرين للكفار والمنافقين ، أى ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه من الكفر والنفاق ﴿ **حتى يميز الخبيث من الطيب** ﴾ وقيل : الخطاب للمؤمنين والمنافقين ، أى ما كان الله ليترككم على الحال التى أنتم عليه من الاختلاط حتى يميز بعضكم من بعض . وقيل : الخطاب للمشركين . والمراد بالمؤمنين : مَن فى الأصلاب والأرحام ، أى ما كان الله ليذر أولادكم على ما أنتم عليه حتى يفرق بينكم وبينهم . وقيل : الخطاب للمؤمنين ، أى ما كان الله ليذركم يامعشر المؤمنين على ما أنتم عليه من الاختلاط بالمنافقين حتى يميز بينكم ، وعلى هذا الوجه ، والوجه الثانى يكون فى الكلام التفات . وقرئ :« يميز » بالتشديد للمخفف ، من ماز الشيء يميزه ميزاً إذا فرق بين شيئين، فإن كانت أشياء قيل : ميزه تمييزا ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ حتى تميزوا بين الطيب والخبيث فإنه المستأثر بعلم الغيب لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول من رسله يجتبيه فيطلعه على شيء من غيبه، فيميز بينكم كما وقع من نبينا ﷺ من تعيين كثير من المنافقين ، فإن ذلك كان بتعليم الله له لا بكونه يعلم الغيب . وقيل : المعنى : وما كان الله ليطلعكم على الغيب فى مَن يستحق النبوة حتى يكون الوحى باختياركم ﴿ **ولكن الله يجتبى** ﴾ أى يختار ﴿ **من رسله من يشاء** ﴾. قوله: ﴿ **فآمنوا بالله ورسله** ﴾ أى افعلوا الإيمان المطلوب منكم ودعوا الاشتغال بما ليس من شأنكم من التطلع لعلم الله سبحانه ﴿ **وإن تؤمنوا** ﴾ بما ذكر ﴿ **وتتقوا فلكم** ﴾ عوضا عن ذلك ﴿ **أجر عظيم** ﴾ لا يعرف قدره ولا يبلغ كنهه .

قوله : ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم** ﴾ الموصول فى محل رفع على أنه فاعل الفعل على قراءة من قرأ بالياء التحتية ، والمفعول الأول محذوف ، أى لا يحسبن الباخلون البخل خيراً لهم ، قاله الخليل ، وسيبويه والفراء قالوا : وإنما حذف لدلالة يبخلون عليه ، ومن ذلك قول الشاعر :

إذا نُهِى السَفِيه جَرَى إليه وخالَفَ والسَّفِيهُ إلى خِلاف

أى جرى إلى السفه ، فالسّفيه دل على السَّفه ، وأما على قراءة من قرأ بالفوقية فالفعل مسند إلى النبى ﷺ والمفعول الأول محذوف ، أى لا تحسبن يامحمد بخل الذين يبخلون خيراً لهم . قال الزجاج : هو مثل : ﴿ واسأل القرية ﴾[يوسف: ٨٢] ، والضمير المذكور هو ضمير الفصل . قال المبرد : والسين فى قوله : ﴿ **سيطوقون ما بخلوا به**﴾ مين الوعيد ، وهذه الجملة مبينة لقوله : ﴿ **بل هو شرلهم** ﴾ قيل : ومعنى التطويق هنا : أنه يكون ما بخلوا به من

(١) الكشاف ١/ ٤٤٤ .

المال طوقًا من نار فى أعناقهم. وقيل: معناه: أنه سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة وليس من التطويق. وقيل: المعنى: أنهم يلزمون أعمالهم كما يلزم الطوق العنق، يقال: طوق فلان عمله طوق الحمامة، أى ألزم جزاء عمله. وقيل: إن مالم تؤد زكاته من المال يمثل له شجاعًا أقرع حتى يطوق به فى عنقه كما ورد ذلك مرفوعا إلى النبى ﷺ(١). قال القرطبى: والبخل فى اللغة: أن يمنع الإنسان الحق الواجب، فأما من منع ما لا يجب عليه فليس ببخيل(٢).

قوله: ﴿ **ولله ميراث السموات والأرض** ﴾ أى له وحده لا لغيره كما يفيده التقديم، والمعنى: أن له مافيهما مما يتوارثه أهلها فما بالهم يبخلون بذلك ولا ينفقونه وهو لله سبحانه لا لهم، وإنما كان عندهم عارية مستردة! ومثل هذه الآية قوله تعالى: ﴿ إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ﴾ [مريم: ٤٠] وقوله: ﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ [الحديد: ٧]، والميراث فى الأصل: هو ما يخرج من مالك إلى آخر، ولم يكن مملوكًا لذلك الآخر قبل انتقاله إليه بالميراث، ومعلوم أن الله سبحانه هو المالك بالحقيقة لجميع مخلوقاته.

وقد أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿ **إن الذين اشتروا الكفر بالإيمان** ﴾ قال: هم المنافقون. وأخرج عبد الرزاق وابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى، والحاكم وصححه عن ابن مسعود: قال: ما من نفس برة ولا فاجرة إلا والموت خير لها من الحياة إن كان برًا فقد قال الله: ﴿ وما عند الله خير للأبرار ﴾ [آل عمران: ١٩٨] وإن كان فاجرًا فقد قال: ﴿ **ولا يحسبن الذين كفروا** ﴾ الآية. وأخرج سعيد بن منصور وعبد ابن حميد وابن جرير وابن المنذر عن أبى الدرداء نحوه. وأخرج سعيد بن منصور وابن المنذر عن محمد بن كعب نحوه. وأخرج عبد بن حميد عن أبى برزة أيضا نحوه.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى قال: قالوا: إن كان محمد صادقًا فليخبرنا بمن يؤمن به منا ومن يكفر، فأنزل الله: ﴿ **ما كان الله ليذر المؤمنين** ﴾ الآية (٣). وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال: يميز أهل السعادة من أهل الشقاوة. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة قال: يميز بينهم فى الجهاد والهجرة، وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله: ﴿ **وما كان الله ليطلعكم على الغيب** ﴾ قال: ولا يطلع على الغيب إلا رسول. وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن مجاهد ﴿**ولكن الله يجتبى** ﴾ قال: يختص. وأخرج ابن أبى حاتم عن مالك قال: يستخلص.

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **ولا يحسبن الذين يبخلون** ﴾ قال: هم أهل الكتاب بخلوا أن يبينوه للناس. وأخرج ابن جرير عن مجاهد قال: هم يهود. وأخرج ابن جرير عن السدى قال: بخلوا أن ينفقوها فى سبيل الله لم يؤدوا زكاتها. وأخرج البخارى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: « من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له

---

(١) البخارى فى الزكاة (١٤٠٣) وفى التفسير (٤٥٦٥) عن أبى هريرة رضى الله عنه.
(٢) القرطبى ٣/ ١٥٣٤. (٣) ابن جرير ٤/ ١٢٥.

شجاعا أقرع ، له زبيبتان ، يطوقه يوم القيامة ، فيأخذ بلهزمته ـ يعنى : بشدقه ـ فيقول : أنا مالك أنا كنزك » ثم تلا هذه الآية (١) . وقد ورد هذا المعنى فى أحاديث كثيرة عند جماعة من الصحابه يرفعونها .

﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق (١٨١) ذلك بما قدمت أيديكم وأن الله ليس بظلام للعبيد (١٨٢) الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين (١٨٣) فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات والزبر والكتاب المنير (١٨٤) ﴾ .

قال أهل التفسير : لما أنزل الله : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ [البقرة : ٢٦١ ، الحديد : ١١] قال قوم من اليهود هذه المقالة ، تمويها على ضعفائهم ؛ لا أنهم يعتقدون ذلك ؛ لأنهم أهل الكتاب ، بل أرادوا أنه تعالى إن صح ماطلبه منا من القرض على لسان محمد فهو فقير ليشككوا على إخوانهم فى دين الإسلام . وقوله : ﴿سنكتب ما قالوا ﴾ سنكتبه فى صحف الملائكة أو سنحفظه . أو سنجازيهم عليه . والمراد : الوعيد لهم ، وأن ذلك لا يفوت على الله ، بل هو معد لهم ليوم الجزاء . وجملة سنكتب على هذا مستأنفة جوابًا لسؤال مقدر ، كأنه قيل : مادا صنع الله بهؤلاء الذين سمع منهم هذا القول الشنيع ؟ فقال : قال لهم : ﴿ سنكتب ما قالوا ﴾ . وقرأ الأعمش وحمزة : « سيكتب » بالمثناة التحتية مبنى للمفعول . وقرأ برفع اللام من ﴿ قتلهم ﴾ ، و « يقول » بالياء المثناة تحت . قوله : ﴿وقتلهم الأنبياء ﴾ عطف على : ﴿ ما قالوا ﴾ أى ونكتب قتلهم الأنبياء ، أى قتل أسلافهم للأنبياء ، وإنما نسب ذلك إليهم لكونهم رضوا به ، جعل ذلك القول قرينا لقتل الأنبياء تنبيهًا على أنه من العظم والشناعة بمكان بعدل قتل الأنبياء . قوله : ﴿ ونقول ﴾ معطوف على : ﴿سنكتب﴾ أى ننتقم منهم بعد الكتابة بهذا القول الذى نقوله لهم فى النار ، أو عند الموت ، أو عند الحساب . والحريق : اسم للنار الملتهبة وإطلاق الذوق على إحساس العذاب فيه مبالغة بليغة . وقرأ ابن مسعود : « ويقال ذوقوا » . والإشارة بقوله: ﴿ذلك ﴾ إلى العذاب المذكور قبله، وأشار إلى القريب بالصيغة التى يشار بها إلى البعيد للدلالة على بعد منزلته فى الفظاعة، وذكر الأيدى لكونها المباشرة لغالب المعاصى .

وقوله : ﴿ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴾ معطوف على : ﴿ ما قدمت أيديكم ﴾ ووجهه أنه سبحانه عذبهم بما أصابوا من الذنب، وجازاهم على فعلهم فلم يكن ذلك ظلمًا. أو بمعنى: أنه مالك الملك يتصرف فى ملكه كيف يشاء ، وليس بظالم لمن عذبه بذنبه . وقيل : إن وجهه

(١) سبق تخريجه .

أن نفى الظلم مستلزم للعدل المقتضى لإثابة المحسن ومعاقبة المسىء ، ورد بأن ترك التعذيب مع وجود سببه ليس بظلم عقلاً ولا شرعًا. وقيل: إن جملة قوله: ﴿**وأن الله ليس بظلام للعبيد**﴾ فى محل رفع على أنها خبر مبتدأ محذوف ، أى والأمر أن الله ليس بظلام للعبيد ، والتعبير بذلك عن نفى الظلم مع أن تعذيبهم بغيرذنب ليس بظلم عند أهل السنة فضلا عن كونه ظلمًا بالغًا لبيان تنزهه عن ذلك ، ونفى ظلام المشعر بالكثرة يفيد ثبوت أصل الظلم ، وأجيب عن ذلك بأن الذى توعد بأن يفعله بهم لو كان ظلمًا لكان عظيمًا فنفاه على حد عظمه لو كان ثابتًا .

قوله : ﴿ **الذين قالوا** ﴾ هو خبر مبتدأ محذوف ، أى هم الذين قالوا . وقيل : نعت للعبيد . وقيل : منصوب على الذم. وقيل : هو فى محل جر بدل من : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا** ﴾ وهو ضعيف ؛ لأن البدل هو المقصود دون المبدل منه ، وليس الأمر كذلك هنا ، والقائلون هؤلاء هم جماعة من اليهود كما سيأتى ، وهذا المقول ، وهو أن الله عهد إليهم ألا يؤمنوا لرسول حتى يأتيهم بالقربان ، هو من جملة دعاويهم الباطلة ، وقد كان دأب بنى إسرائيل أنهم كانوا يقربون القربان فيقوم النبى فيدعو فتنزل نار من السماء فتحرقه [١] ، ولم يتعبد الله بذلك كل أنبيائه ولا جعله دليلا على صدق دعوى النبوة ، ولهذا رد الله عليهم فقال: ﴿ **قل قد جاءكم رسل من قبلى بالبينات وبالذى قلتم** ﴾ من القربان ﴿ **فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾ كيحيى بن زكريا ، وشعياء ، وسائر من قتلوا من الأنبياء . والقربان : ما يتقرب به إلى الله من نسيكة وصدقة وعمل صالح ، وهو فعلان من القربة، ثم سلّى الله رسوله ﷺ بقوله : ﴿ **فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاؤوا** ﴾ بمثل ما جئت به من البينات. والزبر : جمع زبور ، وهو الكتاب ، وقد تقدم تفسيره ، ﴿ **والكتاب المنير** ﴾ الواضح الجلى المضىء يقال : نار الشىء وأنار ونوره واستناره بمعنى .

وقد أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس ؛ قال : دخل أبو بكر بيت المدراس فوجد يهود قد اجتمعوا إلى رجل منهم يقال له : فنحاص وكان من علمائهم وأحبارهم . فقال أبو بكر : ويحك يافنحاص ، اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدًا رسول الله تجدونه مكتوبًا عندكم فى التوراة ، فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من فقر وإنه إلينا لفقير ، وما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا عنه لأغنياء ، ولو كان عنا غنيا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطينا [٢] ، ولو كان غنيًا عنا ما أعطانا الربا ، فغضب أبو بكر فضرب وجه فنحاص ضربة شديدة ، وقال : والذى نفسى بيده لولا العهد الذى بيننا وبينكم لضربت عنقك يا عدو الله ، فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ فقال : يامحمد انظر ما صنع صاحبك بى ، فقال رسول الله ﷺ لأبى بكر :

---

(١) عن ابن عباس قوله : ﴿ **حتى يأتينا بقربان تأكله النار** ﴾ كان الرجل يتصدق فإذا تقبل منه أنزلت عليه نار من السماء فأكلته . تفسير ابن جرير٤/ ١٣١ .

(٢) كذا ؛ فى المخطوطة وفى مراجع التخريج :« يعطيناه » .

« ما حملك على ما صنعت ؟ » فقال : يارسول الله ، قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص فقال : ما قلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص تصديقًا لأبى بكر : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا**﴾ الآية ، ونزل فى أبى بكر وما بلغه فى ذلك من الغضب : ﴿ ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا ﴾ [آل عمران : ١٨٦] الآية[١] . وقد أخرج هذه القصة ابن جرير وابن المنذر عن عكرمة [٢] ، وأخرجها ابن جرير عن السدى بأخصر من ذلك [٣] .

وأخرج ابن أبى حاتم وابن مردويه ، والضياء فى المختارة من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس ؛ قال : أتت اليهود محمدًا ﷺ حين أنزل الله : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا ﴾ [البقرة : ٢٤٥] فقالوا : يامحمد ، أفقير ربك يسأل عباده القرض ؟ فأنزل الله الآية. وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن قتادة : أن القائل لهذه حُيّى بن أخطب ، وأنها نزلت فيه[٤]. وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن العلاء بن بدر ، أنه سئل عن قوله : ﴿**وقتلهم الأنبياء بغير حق** ﴾ وهم لم يدركوا ذلك ، قال : بموالاتهم من قتل الأنبياء .

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وأن الله ليس بظلام للعبيد** ﴾ قال : ما أنا بمعذب من لم يجترم . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عن الضحاك فى قوله: ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾ قال : هم اليهود . وأخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله : ﴿ حتى يأتينا بقربان تأكله النار ﴾ قال: يتصدق الرجل منا ، فإذا تقبل منه أنزلت عليه النار من السماء فأكلته . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن فى قوله : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا** ﴾ قال: كذبوا على الله . وأخرج ابن أبى حاتم عن قتادة فى قوله : ﴿بالبينات﴾ قال : الحلال والحرام ﴿ **والزبر** ﴾ قال : كتب الأنبياء ﴿ **والكتاب المنير** ﴾ قال : هو القرآن .

﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ** (١٨٥) **لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ** (١٨٦) **وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ** (١٨٧) **لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِّنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ**

(١) ابن إسحاق ٢/ ٢٠٠ وابن جرير ٤/ ١٢٩ . (٢، ٣) ابن جرير ٤/ ١٢٩ .
(٤) المرجع السابق ٤/ ١٣٠ .

(١٨٨) وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٨٩) ﴾ .

قوله : ﴿ **ذائقة** ﴾ من الذوق ، ومنه قول أمية بن أبى الصلت :

مَنْ لَمْ يَمُت عَبْطَةَ[1] يَمُتْ هَرَمًا ... المَوْت كَأسٌ والمرءُ ذَائقُها

وهذه الآية تتضمن الوعد والوعيد للمصدق والمكذب ، بعد إخباره عن الباخلين القائلين : ﴿ **إن الله فقير ونحن أغنياء** ﴾ . وقرأ الأعمش ، ويحيى بن وثاب ، وابن أبى إسحاق « ذائقة الموت » بالتنوين ونصب الموت . وقرأ الجمهور بالإضافة . قوله : ﴿ **وإنما توفون أجوركم يوم القيامة** ﴾ أجر المؤمن : الثواب ، وأجر الكافر : العقاب ، أى أن توفية الأجور وتكميلها إنما تكون فى ذلك اليوم ، وما يقع من الأجور فى الدنيا أو فى البرزخ فإنما هو بعض الأجور . والزحزحة : التنحية ، والإبعاد : تكرير الزح وهو الجذب بعجلة ، قاله فى الكشاف [2] ، وقد سبق الكلام عليه ، أى فمن بعد عن النار يومئذ ونحى فقد فاز ، أى ظفر بما يريد ونجا مما يخاف ، وهذا هو الفوز الحقيقى الذى لا فوز يقاربه ، فإن كل فوز وإن كان بجميع المطالب دون الجنة ليس بشىء بالنسبة إليها ، اللهم لا فوز إلا فوز الآخرة ، ولا عيش إلا عيشها ، ولا نعيم إلا نعيمها، فاغفر ذنوبنا ، واستر عيوبنا ، وارض عنا رضاً لا سخط بعده ، واجمع لنا بين الرضا منك علينا والجنة . والمتاع : ما يتمتع به الإنسان وينتفع به ثم يزول ولا يبقى ، كذا قال أكثر المفسرين . الغرور : الشيطان يغر الناس بالأمانى الباطلة والمواعيد الكاذبة ، شبه سبحانه الدنيا بالمتاع الذى يدلس به على من يريده ، وله ظاهر محبوب وباطن مكروه .

قوله : ﴿ **لتبلون فى أموالكم وأنفسكم** ﴾ هذا الخطاب للنبى ﷺ وأمته ، تسلية لهم عما سيلقونه من الكفرة والفسقة؛ ليوطنوا أنفسهم على الثبات والصبر على المكاره .والابتلاء : الامتحان والاختبار ، والمعنى : لتمتحنن ولتختبرن فى أموالكم بالمصائب ، والإنفاقات الواجبة، وسائر التكاليف الشرعية المتعلقة بالأموال ، والابتلاء فى الأنفس بالموت والأمراض ، وفقد الأحباب ، والقتل فى سبيل الله ، وهذه الجملة جواب قسم محذوف ، دلت عليه اللام الموطئة، ﴿**ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم** ﴾ وهم اليهود والنصارى ﴿ **ومن الذين أشركوا** ﴾ وهم سائر الطوائف الكفرية من غير أهل الكتاب ﴿ **أذى كثيرًا** ﴾ من الطعن فى دينكم وأعراضكم ، والإشارة بقوله : ﴿ **فإن ذلك** ﴾ إلى الصبر والتقوى المدلول عليهما بالفعلين . وعزم الأمور : معزوماتها، أى مما يجب عليكم أن تعزموا عليه لكونه عزمة من عزمات الله، التى أوجب عليهم القيام بها ، يقال : عزم الأمر ، أى شده وأصلحه .

قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ هذه الآية توبيخ لأهل الكتاب وهم اليهود والنصارى، أو اليهود فقط على الخلاف فى ذلك ، والظاهر أن المراد بأهل الكتاب: كل من آتاه الله علم شىء من الكتاب، أى كتاب كما يفيده التعريف الجنس فى الكتاب . قال الحسن وقتادة : إن الآية عامة لكل عالم ، وكذا قال محمد بن كعب ، ويدل على ذلك قول

(١) مات عبطة أى : مات شابا صحيحا . (٢) الكشاف ١/ ٤٤٩ .

أبى هريرة : لولا ما أخذ الله على أهل الكتاب ما حدثتكم بشىء ثم تلا هذه الآية ، والضمير فى قوله : ﴿**لتبيننه**﴾ راجع إلى الكتاب. وقيل: راجع إلى النبى ﷺ وإن لم يتقدم له ذكر؛ لأن الله أخذ على اليهود والنصارى أن يبينوا نبوته للناس ولا يكتموها ﴿ **فنبذوه وراء ظهورهم** ﴾ . وقرأ أبو عمرو ، وعاصم فى رواية أبى بكر وأهل المدينة : « ليبيننه » بالياء التحتية ، وقرأ الباقون بالمثناة الفوقية . وقرأ ابن عباس « وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لتبيننه » ويشكل على هذه القراءة قوله : ﴿ **فنبذوه** ﴾ فلابد من أن يكون فاعله الناس . وفى قراءة ابن مسعود : «لتبينونه». والنبذ : الطرح ، وقد تقدم فى البقرة : ﴿ **وراء ظهورهم** ﴾ مبالغة فى النبذ والطرح ، وقد تقدم أيضا معنى قوله : ﴿ **واشتروا به ثمنا قليلا** ﴾ والضمير عائد إلى الكتاب الذى أمروا ببيانه ونُهوا عن كتمانه . وقوله : ﴿ **ثمنًا قليلا** ﴾ أى حقيرًا يسيرًا من حطام الدنيا وأعراضها . قوله : ﴿ **فبئس ما يشترون** ﴾ « ما » نكرة منصوبة مفسرة لفاعل بئس، ويشترون صفة ، والمخصوص بالذم محذوف ، أى بئس شيئًا يشترونه بذلك الثمن .

قوله : ﴿ **لا تحسبن الذين يفرحون** ﴾ قرأ الكوفيون بالتاء الفوقية ، والخطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له . وقوله : ﴿ **بما أتوا** ﴾ أى بما فعلوا . وقد اختلف فى سبب نزول الآية كما سيأتى ، والظاهر شمولها لكل من حصل منه ما تضمنته عملا بعموم اللفظ ، وهو المعتبر دون خصوص السبب ، فمن فرح بما فعل ، وأحب أن يحمده الناس بما لم يفعل ، فلا تحسبنه بمفازة من العذاب ، وقرأ نافع وابن عامر وابن كثير وأبو عمرو :« لا يحسبنّ » بالياء التحتية ، أى لا يحسبن الفارحون فرحهم منجيًا لهم من العذاب ، فالمفعول الأول محذوف وهو فرحهم ، والمفعول الثانى بمفازة من العذاب ، وقوله : ﴿ **فلا تحسبنهم** ﴾ تأكيد للفعل الأول على القراءتين ، والمفازة : المنجاة ، مفعلة من فاز يفوز إذا نجا ، أى ليسوا بفائزين ، سمى موضع الخوف مفازة على جهة التفاؤل قاله الأصمعى . وقيل : لأنها موضع تفويز ومظنة هلاك، تقول العرب : فوّز الرجل إذا مات . قال ثعلب : حكيت لابن الأعرابى قول الأصمعى فقال : أخطأ . قال لى أبو المكارم : إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز وقال ابن الأعرابى : بل ؛ لأنه مستسلم لما أصابه . وقيل : المعنى : لا تحسبنهم بمكان بعيد من العذاب ؛ لأن الفوز: التباعد عن المكروه . وقرأ مروان بن الحكم والأعمش ، وإبراهيم النخعى : « آتوا » بالمد ، أى يفرحون بما أعطوا . وقرأ جمهور القراء السبعة وغيرهم :﴿ **أتوا** ﴾ بالقصر .

وقد أخرج ابن أبى شيبة وهناد وعبد بن حميد ، والترمذى وصححه ، وابن حبان وابن جرير وابن أبى حاتم، والحاكم وصححه عن أبى هريرة ؛ قال : قال رسول الله ﷺ : « إن موضع سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها، اقرؤوا إن شئتم : ﴿ **فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور** ﴾ »[1]. وأخرج ابن مردويه عن سهل بن

(١) ابن أبى شيبة فى الجنة (١٥٨٢١) والترمذى فى التفسير (٣٠١٣) وقال : «حسن صحيح » وابن حبان فى إخباره ﷺ عن البعث وأحوال الناس فى ذلك اليوم (٧٣٧٤) وابن جرير ٤/ ١٣٣ وصححه الحاكم ٢/ ٢٩٩ على شرط مسلم ووافقه الذهبى .

سعد مرفوعا نحوه [١] . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن الزهرى فى قوله : ﴿ **ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا** ﴾ قال : هو كعب بن الأشرف ، وكان يحرِّض المشركين على رسول الله ﷺ وأصحابه فى شعره . وأخرج ابن المنذر من طريق الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك مثله . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى الآية ؛ قال : يعنى : اليهود والنصارى ، فكان المسلمون يسمعون من اليهود قولهم : ﴿ عزير ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] ومن النصارى قولهم: ﴿ المسيح ابن الله ﴾ [التوبة : ٣٠] . ﴿ **إن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور** ﴾ قال : من القوة مما عزم الله عليه وأمركم به .

وأخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس**﴾ قال : فنحاص ، وأشيع ، وأشباههما من الأحبار . وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله: ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس** ﴾ قال : كان الله أمرهم أن يتبعوا النبى الأمى . وأخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم عنه فى الآية قال : فى التوراة والإنجيل أن الإسلام دين الله الذى افترضه على عباده ، وأن محمدًا رسول الله يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل فنبذوه . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن سعيد بن جبير فى الآية ؛ قال : هم اليهود ﴿ **لتبيننه للناس** ﴾ قال: محمدًا ﷺ . وأخرج ابن جرير عن السدى مثله . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ؛ قال : هذا ميثاق أخذه الله على أهل العلم ، فمن علم علمًا فليعلمه الناس ، وإياكم وكتمان العلم ، فإن كتمان العلم هلكة. وأخرج ابن سعد عن الحسن قال : لولا الميثاق الذى أخذه الله على أهل العلم ما حدثتكم بكثير مما تسألون عنه . وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما ؛ أن مروان قال لبوابه : اذهب يارافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امرئ منا فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لَنُعذَّبنّ أجمعون، فقال ابن عباس : ما لكم ولهذه الآية ، إنما أنزلت فى أهل الكتاب، ثم تلا : ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب** ﴾ الآية ، قال ابن عباس : مسألهم النبى ﷺ عن شىء فكتموه إياه وأخبروه بغيره فخرجوا وقد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحمدوا بذلك إليه ، وفرحوا بما أتوا من كتمان ما مسألهم عنه [٢] .

وفى البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى سعيد الخدرى ؛ أن رجالا من المنافقين كانوا إذا خرج رسول الله ﷺ إلى الغزو تخلفوا عنه ، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله ﷺ ، فإذا قدم رسول الله ﷺ من الغزو اعتذروا إليه ، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا ،

---

(١) البخارى فى الجهاد (٢٨٩٢) وفى الرقاق (٦٤١٥) وهو جزء من حديث بدون ذكر الآية .

(٢) البخارى فى التفسير (٤٥٦٨) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٨/٢٧٧٨) والترمذى فى التفسير (٣٠١٤) وقال : «حسن صحيح غريب » والنسائى فى التفسير (١٠٦) .

فنزلت[١] . وقد روى : أنها نزلت فى فنحاص ، وأشيع ، وأشباههما . وروى أنها نزلت فى اليهود . وأخرج مالك وابن سعد والطبرانى ، والبيهقى فى الدلائل عن محمد بن ثابت ؛ أن ثابت بن قيس قال : يارسول الله ، لقد خشيت أن أكون قد هلكت ، قال : « لم ؟ » ، قال : قد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل وأجدنى أحب الحمد ، ونهانا عن الخيلاء وأجدنى أحب الجمال ، ونهانا أن نرفع أصواتنا فوق صوتك وأنا رجل جهير الصوت ، فقال: « يا ثابت، ألا ترضى أن تعيش حميدًا ، وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة ؟ » فعاش حميدًا وقتل شهيدًا يوم مسيلمة الكذاب [٢] . وأخرج ابن المنذر عن الضحاك فى قوله : ﴿ **بمفازة** ﴾ قال : بمنجاة . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله .

﴿ **إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاف اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (١٩٠) الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٩١) رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ (١٩٢) رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الأَبْرَارِ (١٩٣) رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لا تُخْلِفُ الْمِيعَادَ (١٩٤)** ﴾ .

قوله : ﴿ **إن فى خلق السموات والأرض** ﴾ هذه جملة مستأنفة لتقرير اختصاصه سبحانه بما ذكره فيها ، والمراد : ذات السموات والأرض وصفاتهما ﴿ **واختلاف الليل والنهار** ﴾ أى تعاقبهما ، وكون كل واحد منهما يخلف الآخر ، وكون زيادة أحدهما فى نقصان الآخر ، وتفاوتهما طولا وقصرًا وحرًا وبردًا وغير ذلك ، ﴿ **لآيات** ﴾ أى دلالات واضحة ، وبراهين بينة ، تدل على الخالق سبحانه . وقد تقدم تفسير بعض ما هاهنا فى سورة البقرة . والمراد بأولى الألباب : أهل العقول الصحيحة الخالصة من شوائب النقص ، فإن مجرد التفكير فيما قصه الله فى هذه الآية يكفى العاقل، ويوصله إلى الإيمان الذى لا تزلزله الشبه، ولا تدفعه التشكيكات.

قوله: ﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ الموصول نعت لأولى الألباب. وقيل : هو مفصول عنه خبر مبتدأ محذوف ، أو منصوب على المدح ، والمراد بالذكر هنا :

(١) البخارى فى التفسير (٤٥٦٧) ومسلم فى صفات المنافقين وأحكامهم (٧/٢٧٧٧) والواحدى فى أسباب النزول ٧٨ .

(٢) الطبرانى (١٣١٠ ــ ١٣١٥) وقال الهيثمى فى المجمع ٩/ ٣٢٤: «رواه الطبرانى فى الأوسط والكبير مطولا هكذا ومختصرا، ورجال المختصر ثقات وفى رجال المطول شيخ الطبرانى أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة الحضرمى ضعفه ابن حبان فى ترجمة أبيه فى الثقات هو وأخوه عبيد الله، وبقية رجاله ثقات، ويعتضد بثقة رجال المختصر ورواه من طريق إسماعيل بن ثابت أن ثابتا قال : يارسول الله ، وإسناده متصل ، ورجاله رجال الصحيح غير إسماعيل وهو ثقة تابعى سمع من أبيه » والبيهقى فى الدلائل ٦/ ٣٥٥.

ذكره سبحانه فى هذه الأحوال من غير فرق بين حال الصلاة وغيرها ، وذهب جماعة من المفسرين إلى أن الذكر هنا عبارة عن الصلاة ، أى لايضيعونها فى حال من الأحوال فيصلونها قيامًا مع عدم العذر، وقعودًا وعلى جنوبهم مع العذر. قوله : ﴿ **ويتفكرون فى خلق السموات والأرض** ﴾ معطوف على قوله: ﴿ **يذكرون** ﴾. وقيل: إنه معطوف على الحال، أعنى: ﴿ **قيامًا وقعودًا** ﴾ . وقيل : إنه منقطع عن الأول ، والمعنى : أنهم يتفكرون فى بديع صنعهما ، وإتقانهما مع عظم أجرامها ، فإن هذا الفكر إذا كان صادقا أوصلهم إلى الإيمان بالله سبحانه . قوله : ﴿ **ربنا ما خلقت هذا باطلا** ﴾ هو على تقدير القول ، أى يقولون : ما خلقت هذا عبثًا ولهوًا؛ بل خلقته دليلا على حكمتك وقدرتك . والباطل : الزائل الذاهب ، ومنه قول لبيد :

ألا كل شىء ما خلا الله باطل

وهو منصوب على أنه صفة لمصدر محذوف ، أى خلقاً باطلا . وقيل : منصوب بنزع الخافض . وقيل : هو مفعول ثان ، وخلق بمعنى : جعل ، أو منصوب على الحال ، والإشارة بقوله : ﴿ **هذا** ﴾ إلى السموات والأرض ، أو إلى الخلق على أنه بمعنى المخلوق . قوله : ﴿**سبحانك** ﴾ أى تنزيهًا لك عما لا يليق بك من الأمور التى من جملتها أن يكون خلسقك لهذه المخلوقات باطلا. وقوله : ﴿ **فقنا عذاب النار** ﴾ الفاء لترتيب هذا الدعاء على ما قبله.

وقوله : ﴿ **ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته** ﴾ تأكيد لما تقدمه من استدعاء الوقاية من النار منه سبحانه، وبيان للسبب الذى لأجله دعاء عباده بأن يقيهم عذاب النار ، وهو أن من أدخله النار فقد أخزاه ، أى أذله وأهانه . وقال المفضل: معنى أخزيته : أهلكته ، وأنشد :

أخْزَى الإلهُ بنى الصَلِيب عُنَيْزة [1] والابسين مَلابِس الرهْبَانِ

وقيل : معناه : فضحته وأبعدته ، يقال : أخزاه الله : أبعده ومقته ، والاسم : الخزى ، قال ابن السكِّيت: خَزَى يَخْزَى خِزْيًا : إذا وقع فى بَلِيَّة .

قوله : ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان** ﴾ المنادى عند أكثر المفسرين هو النبى ﷺ . وقيل : هو القرآن ، وأوقع السماع على المنادى مع كون المسموع هو النداء ؛ لأنه قد وصف المنادى بما يسمع ، وهو قوله : ﴿ **ينادى للإيمان أن آمنوا** ﴾ . وقال أبو على الفارسى : إن ﴿**ينادى** ﴾ هو المفعول الثانى وذكر ﴿ **ينادى** ﴾ مع أنه قد فهم من قوله : ﴿ **مناديًا** ﴾ لقصد التأكيد والتفخيم لشأن هذا المنادى به ، واللام فى قوله : ﴿ **للإيمان** ﴾ بمعنى إلى . وقيل : إن ينادى يتعدى باللام وبإلى ، يقال : ينادى لكذا وينادى إلى كذا . وقيل : اللام للعلة ، أى لأجل الإيمان . قوله : ﴿ **أن آمنوا** ﴾ هى إما تفسيرية، أو مصدرية ، وأصلها بأن آمنوا

---

(١) عند القرطبى : «من » بدلا من « بنى » و « عبيدة » بدلا من « عنيزة » و« قلانس » بدلا من « ملابس » ٣/١٥٥٨ .

فحذف حرف الجر . قوله : ﴿ **فآمنا** ﴾ أى امتثلنا ما يأمر به هذا المنادى من الإيمان فآمنا ، وتكرير النداء فى قوله : ﴿ **ربنا** ﴾ لإظهار التضرع والخضوع . وقيل : المراد بالذنوب هنا : الكبائر ، وبالسيئات : الصغائر . والظاهر عدم اختصاص أحد اللفظين بأحد الأمرين ، والآخر بالآخر ؛ بل يكون المعنى فى الذنوب والسيئات واحداً ، والتكرير للمبالغة والتأكيد، كما أن معنى الغفر والكفر : الستر . والأبرار : جمع بار أو برّ ، وأصله من الاتساع ، فكأن البار متسع فى طاعة الله ومتسعة له رحمته . قيل : هم الأنبياء ، ومعنى اللفظ أوسع من ذلك .

قوله: ﴿**ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك**﴾ هذا دعاء آخر، والنكتة فى تكرير النداء ما تقدم، والموعود به على ألسن الرسل هو الثواب الذى وعد الله به أهل طاعته ، ففى الكلام حذف وهو لفظ الألسن كقوله: ﴿واسأل القرية﴾ [يوسف: ٨٢]. وقيل المحذوف: التصديق، أى ما وعدتنا على تصديق رسلك. وقيل: ما وعدتنا منزلا على رسلك أو محمولا على رسلك والأول أولى وصدور هذا الدعاء منهم مع علمهم أن ما وعدهم الله به على ألسن رسله كائن لا محالة، إما لقصد التعجيل، أو للخضوع بالدعاء لكونه مخ العبادة. وفى قولهم: ﴿**إنك لا تخلف الميعاد**﴾ دليل على أنهم لم يخافوا خلف الوعد، وأن الحامل لهم على الدعاء هو ما ذكرنا.

وقد أخرج ابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس ؛ قال : أتت قريش اليهود فقالوا : ما جاءكم به موسى من الآيات ؟ قالوا : عصاه ، ويده بيضاء للناظرين، وأتوا النصارى فقالوا : كيف كان عيسى فيكم ؟ قالوا : كان يبرئ الأكمه والأبرص ، ويحيى الموتى ، فأتوا النبى ﷺ فقالوا: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، فدعا ربه، فنزلت: ﴿**إن فى خلق السموات والأرض**﴾ الآية [(١)]. وقد ثبت فى الصحيحين وغيرهما من حديث ابن عباس قال: بتُّ عند خالتى ميمونة فنام رسول الله ﷺ حتى انتصف الليل، أو قبله بقليل، أو بعده بقليل ، ثم استيقظ فجعل يمسح النوم عن وجهه بيديه ، ثم قرأ العشر الآيات الأواخر من سورة آل عمران حتى ختم [(٢)] . وأخرج عبد الله بن أحمد فى زوائد المسند ، والطبرانى ، والحاكم فى الكنى ، والبغوى فى معجم الصحابة عن صفوان بن المعطل ؛ قال : كنت مع النبى ﷺ فى سفر فذكر نحوه [(٣)] .

وأخرج ابن أبى حاتم والطبرانى من طريق جويبر عن الضحاك عن ابن مسعود فى قوله :

---

(١) الطبرانى (١٢٣٢٢) وقال الهيثمى فى المجمع ٦/ ٣٣٢ : «فيه يحيى الحمانى وهو ضعيف » وقال ابن كثير ٢/ ١٧٥ :« وهذا مشكل ، فإن هذه الآية مدنية ، وسؤالهم أن يكون الصفا ذهبا كان بمكة والله أعلم ».

(٢) جزء من حديث عند البخارى فى الوضوء (١٨٣) وفى العمل فى الصلاة (١١٩٨) وفى التفسير (٤٥٧٠ ، ٤٥٧٢) ومسلم فى صلاة المسافرين وقصرها (٧٦٣ / ١٨٢ ، ١٩١) وأبو داود فى الصلاة (١٣٦٧) والنسائى فى التفسير (١٠٧) .

(٣) أحمد ٥/ ٣١٢ والطبرانى (٧٣٤٣) وقال الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٧٥: «وفيه عبد الله بن جعفر والد على بن المدينى وهو ضعيف».

﴿ **الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم** ﴾ الآية . قال : إنما هذه الصلاة إذا لم يستطع قائمًا فقاعدًا ، وإن لم يستطع قاعدًا فعلى جنبه ، وقد ثبت فى البخارى من حديث عمران بن حصين قال : كانت بى بواسير ، فسألت النبى ﷺ عن الصلاة فقال : « صل قائمًا فإن لم تستطع فقاعدًا فإن لم تستطع فعلى جنب » (١) ، وثبت فيه عنه قال : سألت رسول الله ﷺ عن صلاة الرجل وهو قاعد فقال : « من صلى قائمًا فهو أفضل ، ومن صلى قاعدًا فله نصف أجر القائم ، ومن صلى نائمًا فله نصف أجر القاعد»(٢) . وأخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن قتادة فى الآية ؛ قال: هذه حالاتك كلها يابن آدم ، اذكر الله وأنت قائم ، فإن لم تستطع فاذكره جالساً ، فإن لم تستطع فاذكره وأنت على جنبك ، يسر من الله وتخفيف.

وأقول : هذا التقييد الذى ذكره بعدم الاستطاعة مع تعميم الذكرلا وجه له لا من الآية ولا من غيرها ، فإنه لم يرد فى شىء من الكتاب والسنة ما يدل على أنه لا يجوز الذكر من قعود إلا مع عدم استطاعة الذكر من قيام ، ولا يجوز على جنب إلا مع عدم استطاعته من قعود ، وإنما يصلح هذا التقييد لمن جعل المراد بالذكر هنا الصلاة ، كما سبق عن ابن مسعود.

وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر ، وابن حبان فى صحيحه ، وابن مردويه عن عائشة مرفوعا : « ويل لمن قرأ هذه الآية ولم يتفكر فيها » (٣) . وأخرج ابن أبى الدنيا فى التفكر عن سفيان رفعه : « من قرأ آخر سورة آل عمران فلم يتفكر فيها ويله فعدّ أصابعه عشرا » . قيل للأوزاعى : ما غاية التفكر فيهنّ ؟ قال : يقرؤهن وهو يعقلهن . وقد وردت أحاديث وآثار عن السلف فى استحباب التفكر مطلقًا .

وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن أنس فى قوله : ﴿ **مَنْ تدخل النار فقد أخزيته** ﴾ قال : من تخلد . وأخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن سعيد بن المسيب فى الآية قال : هذه خاصة بمن لا يخرج منها . وأخرج ابن جرير والحاكم عن عمرو بن دينار قال : قدم علينا جابر بن عبد الله فى عمرة فانتهيت إليه أنا وعطاء فقلت : ﴿**وماهم بخارجين من النار** ﴾ [البقرة : ١٦٧] قال: أخبرنى رسول الله ﷺ أنهم الكفار، قلت لجابر: فقوله : ﴿ **إنك من تدخل النار فقد أخزيته** ﴾ قال : وما أخزاه حين أحرقه بالنار ، وإن دون ذلك خزيا (٤) .

وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله :﴿ **مناديًا ينادى للإيمان** ﴾ قال : هو محمد ﷺ . وأخرج ابن جرير عن ابن زيد مثله . وأخرج عبد بن حميد

---

(١) البخارى فى تقصير الصلاة (١١١٧) . (٢) المرجع السابق (١١١٥ ، ١١١٦) .
(٣) الديلمى (٧١٥٨) .
(٤) ابن جرير ٤/ ١٤١ مقتصرًا على الشطر الأخير فقط، وسكت عنه الحاكم ٢/ ٣٠٠ وقال الذهبى: «بحر هالك».

وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ؛ قال : هو القرآن ، ليس كل أحد سمع النبى ﷺ . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن جريج فى قوله : ﴿ **ربنا وآتنا ماوعدتنا على رسلك** ﴾ قال : يستنجزون موعد الله على رسله . وأخرج عبد بن حميد وابن المنذر وابن أبى حاتم عن ابن عباس فى قوله : ﴿ **ولا تخزنا يوم القيامة** ﴾ قال : لا تفضحنا .

﴿ **فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ (١٩٥)** ﴾

قوله : ﴿ **فاستجاب** ﴾ الاستجابة بمعنى : الإجابة . وقيل : الإجابة عامة ، والاستجابة خاصة بإعطاء المسؤول ؛ وهذا الفعل يتعدى بنفسه وباللام ، يقال : استجابه ، واستجاب له ، والفاء للعطف . وقيل: على مقدر، أى دعوا بهذه الأدعية فاستجاب لهم . وقيل : على قوله : ﴿ **ويتفكرون** ﴾ وإنما ذكر سبحانه الاستجابة وما بعدها فى جملة مالهم من الأوصاف الحسنة لأنها منه، إذ من أجيبت دعوته فقد رفعت درجته. قوله : ﴿ **أنى لا أضيع عمل عامل منكم** ﴾ أى بأنى، وقرأ عيسى بن عمرو بكسر الهمزة على تقدير القول الأول ، وقرأ أبى بثبوت الباء وهى للسببية، أى فاستجاب لهم ربهم بسبب أنه لا يضيع عمل عامل منهم. والمراد بالإضاعة: ترك الإثابة . قوله: ﴿ **من ذكر أو أنثى** ﴾ « من » بيانية ومؤكدة لما تقتضيه النكرة الواقعة فى سياق النفى من العموم . قوله: ﴿ **بعضكم من بعض** ﴾ أى رجالكم مثل نسائكم فى الطاعة ونساؤكم مثل رجالكم فيها ، والجملة معترضة لبيان كون كل منهما من الآخر باعتبار تشعبهما من أصل واحد .

قوله: ﴿ **فالذين هاجروا** ﴾ الآية . هذه الجملة تتضمن تفصيل ما أجمل فى قوله : ﴿ **أنى لا أضيع عمل عامل** ﴾ أى فالذين هاجروا من أوطانهم إلى رسول الله ﷺ ﴿ **وأخرجوا من ديارهم** ﴾ فى طاعة الله عز وجل ﴿**وقاتلوا** ﴾ أعداء الله ﴿ **وقتلوا** ﴾ فى سبيل الله . وقرأ ابن كثير وابن عامر: « وقتّلوا » على التكثير . وقرأ الأعمش وحمزة والكسائى : « **وقتلوا وقاتلوا** » وهو مثل قول الشاعر :

تصابى وأمسى علاه الكبر

أى قد علاه الكبر . وأصل الواو لمطلق الجمع بلا ترتيب كما قال به الجمهور . والمراد هنا : أنهم قاتلوا وقتل بعضهم ، كما قال امرؤ القيس :

فإن تقـــتلونا نقتلكموا

وقرأ عمر بن عبد العزيز : « وقتلوا وقتلوا » . ومعنى قوله : ﴿ **أوذوا فى سبيلى** ﴾ أى بسببه ، والسبيل : الدين الحق، والمراد هنا : ما نالهم من الأذية من المشركين بسبب إيمانهم بالله وعملهم بما شرعه الله لعباده . وقوله : ﴿**لأكفرن** ﴾ جواب قسم محذوف . وقوله : ﴿**ثوابا من عند الله** ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين . لأن معنى قوله :﴿**لأدخلنهم جنات** ﴾ لأثيبنهم ثوابا ، أى إثابة أو تثويبًا كائنًا من عند الله ، وقال الكسائى : إنه منتصب على الحال، وقال الفراء : على التفسير ، ﴿ **والله عنده حسن الثواب** ﴾ أى حسن الجزاء وهو ما يرجع على العامل من جزاء عمله من ثاب يثوب إذا رجع .

وقد أخرج سعيد بن منصور وعبد الرزاق والترمذى وابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم والطبرانى ، والحاكم وصححه عن أم سلمة ؛ قالت : يارسول الله ، لا أسمع الله ذكر النساء فى الهجرة بشىء ، فأنزل الله : ﴿**فاستجاب لهم**﴾ إلى آخر الآية [1] . وأخرج ابن أبى حاتم عن عطاء قال : ما من عبد يقول : يارب يارب ، ثلاث مرات إلا نظر الله إليه . فذكر للحسن فقال : أما تقرأ القرآن ؟ ﴿ **ربنا إننا سمعنا مناديا** ﴾ إلى قوله : ﴿**فاستجاب لهم ربهم** ﴾ . وأخرج ابن مردويه عن أم سلمة قالت : آخر آية نزلت هذه الآية : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم** ﴾ إلى آخرها . وقد ورد فى فضل الهجرة أحاديث كثيرة .

﴿**لا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٩٧) لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ لِّلأَبْرَارِ (١٩٨) وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩٩) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠)**﴾ .

قوله : ﴿ **لا يغرنك** ﴾ خطاب للنبى ﷺ ، والمراد : تثبيته على ما هو عليه كقوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمَنوا آمِنُوا ﴾ [النساء : ١٣٦] أو خطاب لكل أحد . وهذه الآية متضمنة لقبح حال الكفار بعد ذكر حسن حال المؤمنين ؛ والمعنى : لا يغرنك ماهم فيه من تقلبهم فى البلاد بالأسفار للتجارة التى يتوسعون بها فى معاشهم ، فهو متاع قليل يتمتعون به فى هذه الدار ثم مصيرهم إلى جهنم. فقوله: ﴿ **متاع** ﴾ خبر مبتدأ محذوف ، أى هو متاع قليل لا اعتداد به

(١) الترمذى فى التفسير (٣٠٢٣) وابن جرير ٤/ ١٤٣ والطبرانى ٢٣/ ٢٩٤ (٦٥١) وصححه الحاكم ٢/ ٣٠٠ ، ٤١٦ على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

بالنسبة إلى ثواب الله سبحانه ﴿ **ومأواهم** ﴾ أى مايأوون إليه . والتقلب فى البلاد : الاضطراب فى الأسفار إلى الأمكنة ، ومثله قوله تعالى : ﴿ فلا يغررك تقلبهم فى البلاد ﴾ [غافر : ٤] والمتاع : ما يعجل الانتفاع به ، وسماه قليلا لأنه فانٍ ، وكل فانٍ وإن كان كثيرًا فهو قليل . وقوله : ﴿ **وبئس المهاد** ﴾ ما مهدوا لأنفسهم فى جهنم بكفرهم ، أو مامهد الله لهم من النار ، فالمخصوص بالذم محذوف وهو هذا المقدر .

قوله: ﴿ **لكن الذين اتقوا ربهم** ﴾ هو استدراك مما تقدم؛ لأن معناه معنى النفى،كأنه قال: ليس لهم فى تقلبهم فى البلاد كثير انتفاع ﴿ **لكن الذين اتقوا** ﴾ لهم الانتفاع الكثير والخلد الدائم . وقرأ يزيد بن القعقاع : « لكن» بتشديد النون . قوله : ﴿ **نزلا** ﴾ مصدر مؤكد عند البصريين كما تقدم فى : ﴿ **ثوابا** ﴾ وعند الكسائى والفراء مثل ما قالا فى ﴿**ثوابا** ﴾ والنزل : مايهيأ للنزيل ، والجمع أنزال ، قال الهروى : ﴿ **نزلا من عند الله** ﴾ أى ثوابًا من عند الله ﴿**وما عند الله** ﴾ مما أعده لمن أطاعه ﴿ **خير للأبرار** ﴾ مما يحصل للكفار من الربح فى الأسفار فإنه متاع قليل عن قريب يزول .

قوله : ﴿ **وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله** ﴾ هذه الجملة سيقت لبيان أن بعض أهل الكتاب لهم حظ من الدين، وليسوا كسائرهم فى فضائحهم التى حكاها الله عنهم فيما سبق وفيما سيأتى ، فإن هذا البعض يجمعون بين الإيمان بالله وبما أنزل الله على سيدنا محمد ﷺ ، وما أنزله على أنبيائهم حال كونهم ﴿ **خاشعين لله لا يشترون** ﴾ أى يستبدلون ﴿**بآيات الله ثمنًا قليلا** ﴾ بالتحريف والتبديل كما يفعله سائرهم ؛ بل يحكون كتب الله سبحانه كما هى ، والإشارة بقوله : ﴿ **أولئك** ﴾ إلى هذه الطائفة الصالحة من أهل الكتاب ؛ من حيث اتصافهم بهذه الصفات الحميدة ﴿**لهم أجرهم**﴾ الذى وعد الله سبحانه به بقوله : ﴿ أولئك يؤتون أجرهم مرتين﴾ [القصص : ٥٤] وتقديم الخبر يفيد اختصاص ذلك الأجر بهم . وقوله : ﴿ **عند ربهم** ﴾ فى محل نصب على الحال .

قوله : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اصبروا** ﴾ إلخ ، هذه الآية العاشرة من قوله سبحانه : ﴿ **إن فى خلق السموات** ﴾ ختم بها هذه السورة لما اشتملت عليه من الوصايا التى جمعت خير الدنيا والآخرة ، فحض على الصبر على الطاعات والشهوات . والصبر : الحبس ، وقد تقدم تحقيق معناه ، والمصابرة : مصابرة الأعداء ، قاله الجمهور ، أى غالبوهم فى الصبر على شدائد (١) الحرب ، وخص المصابرة بالذكر بعد أن ذكر الصبر لكونها أشد منه وأشق .وقيل : المعنى : صابروا على الصلوات . وقيل : صابروا الأنفس عن شهواتها . وقيل : صابروا الوعد الذى وعدتم ولا تيأسوا ، والقول الأول هو المعنى العربى ، ومنه قول عنترة :

---

(١) فى المطبوعة : « الشدائد » ، والصحيح ما أثبتناه من المخطوطة .

فَلَمْ أرَحيًا صَابَروُا مِثْلَ صَبْرِنا وَلا كَافَحواُ مِثْلَ الذَّين نُكَافِحُ

أى صابروا العدو فى الحرب . قوله : ﴿ **ورابطوا** ﴾ أى أقيموا فى الثغور رابطين خيلكم فيها كما يربطها أعداؤكم، وهذا قول جمهور المفسرين . وقال : أبو سلمة بن عبد الرحمن : هذه الآية فى انتظار الصلاة بعد الصلاة، ولم يكن فى زمن رسول الله ﷺ غزو يرابط فيه ، وسيأتى ذكر من خرج عنه هذا ، والرباط اللغوى هو الأول ، ولا ينافيه تسميته ﷺ لغيره رباطا كما سيأتى ، ويمكن إطلاق الرباط على المعنى الأول وعلى انتظار الصلاة . قال الخليل : الرباط: ملازمة الثغور ، ومواظبة الصلاة هكذا قال ؛ وهو من أئمة اللغة ، وحكى ابن فارس عن الشيبانى أنه قال : يقال : ماء مترابط : دائم لايبرح، وهو يقتضى تعدية الرباط إلى غير ارتباط الخليل فى الثغور. قوله : ﴿ **واتقوا الله** ﴾ فلا تخالفوا ما شرعه لكم ﴿**لعلكم تفلحون**﴾ أى تكونون من جملة الفائزين بكل مطلوب وهم المفلحون .

وقد أخرج عبد بن حميد وابن المنذر عن عكرمة فى قوله: ﴿**لا يغرنَّك تقلب الذين كفروا**﴾ تقلب ليلهم ونهارهم وما يجرى عليهم من النعم، قال عكرمة: قال ابن عباس: وبئس المهاد أى بئس المنزل. وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن السدى فى قوله: ﴿تقلبهم فى البلاد﴾ [غافر: ٤] قال: ضربهم فى البلاد. وأخرج عبد بن حميد، والبخارى فى الأدب المفرد، وابن أبى حاتم عن ابن عمر فى قوله: ﴿**وما عند الله خير للأبرار**﴾ قال: إنما سماهم الله أبرارًا؛ لأنهم بروا الآباء والأبناء كما أن لوالدك عليك حقا كذلك لولدك عليك حقًا. وأخرجه ابن مردويه عنه مرفوعا، والأول أصح قاله السيوطى. وأخرج ابن جرير عن ابن زيد ﴿**خير للأبرار**﴾ لمن يطيع الله.

وأخرج النسائى والبزار وابن المنذر وابن أبى حاتم وابن مردويه عن أنس ؛ قال : لما مات النجاشى قال ﷺ : « صلوا عليه » قالوا : يارسول الله ، نصلى على عبد حبشى ؟ فأنزل الله: ﴿ **وإن من أهل الكتاب** ﴾ الآية [(١)] . وأخرج ابن جرير عن جابر مرفوعًا :إن المنافقين قالوا : انظروا إلى هذا ـ يعنى النبى ﷺ ـ يصلى على علج نصرانى ، فنزلت [(٢)] . وأخرج الحاكم وصححه عن عبد الله بن الزبير [(٣)] ؛ أنها نزلت فى النجاشى [(٤)] وأخرج ابن جرير وابن أبى حاتم عن مجاهد قال : هم مسلمة أهل الكتاب من اليهود والنصارى . وأخرج ابن أبى حاتم عن الحسن قال : هم أهل الكتاب الذين كانوا قبل محمد والذين اتبعوا محمدا ﷺ . وأخرج ابن المبارك وابن جرير وابن المنذر ، والحاكم وصححه ، والبيهقى فى الشعب عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ما قد منا ذكره .

---

(١) النسائى فى التفسير (١٠٨ ، ١٠٩) وإسناده حسن ، والبزار (٨٣٢) .
(٢) ابن جرير ٤/١٤٦ وهو جزء من حديث ، وهو ضعيف من جهة الإسناد .
(٣) كذا ؛ وعند الحاكم عن عبد الله بن الزبير عن أبيه .
(٤) وصححه الحاكم ٢/ ٣٠٠ ووافقه الذهبى .

وأخرج ابن مردويه عنه عن أبى هريرة قال : أما إنه لم يكن فى زمن النبى ﷺ غزو يرابطون فيه ، ولكنها نزلت فى قوم يعمرون المساجد ، يصلون الصلوات فى مواقيتها ، ثم يذكرون الله فيها [١] . وقد ثبت فى الصحيح وغيره من قول النبى ﷺ : « ألا أخبركم بما يمحو الله به الخطايا ويرفع به الدرجات : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط فذلكم الرباط فذلكم الرباط » [٢] . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبى حاتم عن محمد بن كعب القرظى ؛ قال : اصبروا على دينكم ، وصابروا الوعد الذى وعدتكم ، ورابطوا عدوى وعدوكم . وقد روى من تفاسير السلف غير هذا فى سر الصبر على نوع من أنواع الطاعات، والمصابرة على نوع آخر،ولا تقوم بذلك حجة، فالواجب الرجوع إلى المدلول اللغوى وقد قدمناه .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى فضل الرباط وفيها التصريح بأنه الرباط فى سبيل الله ، وهو يرد ما قاله أبو سلمة بن عبد الرحمن ؛ فإن رسول الله ﷺ قد ندب إلى الرباط فى سبيل الله وهو الجهاد ، فيحمل ما فى الآية عليه ، وقد ورد عنه ﷺ أنه سمى حراسة الجيش رباطًا ، فأخرج الطبرانى فى الأوسط بسند جيد عن أنس قال : سئل رسول الله ﷺ عن أجر المرابط فقال : « من رابط ليلة حارسًا من وراء المسلمين كان له أجر من خلفه ممن صام وصلى » [٣] .

وقد ورد فى فضل هذه العشر الآيات التى فى آخر هذه السورة مرفوعًا إلى النبى ﷺ كان يقرأ عشر آيات من آخر سورة آل عمران كل ليلة [٤] . وفى إسناده مظاهر بن أسلم ، وهو ضعيف . وقد تقدم من حديث ابن عباس فى الصحيحين ؛ أن النبى ﷺ قرأ هذه العشر الآيات لما استيقظ [٥] . وكذلك تقدم فى غير الصحيحين من رواية صفوان بن المعطل عن النبى ﷺ [٦] . وأخرج الدارمى عن عثمان بن عفان قال : من قرأ آخر آل عمران فى ليلة كتب له قيام ليلة [٧] .

---

(١) لكنه صححه الحاكم ٢/ ٣٠١ ووافقه الذهبى . مع اختلاف السند .

(٢) والحديث عن أبى هريرة رضى الله عنه عند مسلم فى الطهارة (٢٥١ / ٤١) والترمذى فى الطهارة (٥١، ٥٢) وقال: «حسن صحيح».

(٣) عزاه الهيثمى فى المجمع ٥/ ٢٩٢ إلى الطبرانى فى الأوسط وقال : « ورجاله ثقات » .

(٤) ابن السنى (٦٨٢) وابن عساكر ٦/ ٢٨٨ وعزاه الهيثمى فى المجمع ٢/ ٢٧٧ إلى الطبرانى فى الأوسط وفيه مظاهر بن أسلم وثقه ابن حبان، وضعفه ابن معين وجماعة .

(٥) سبق تخريجه

(٦) سبق تخريجه .

(٧) الدارمى فى فضائل القرآن ٢/ ٤٥٢ .